Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Bibliotheca Alexandrina
0128802

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الشعب
١١

على هامش

التاريخ المصري القديم

عبد القادر حمزة

لن تتم على أحدكم نعمة الإيمان بمصر
حتى يحيط بتاريخها علما

مطابع الشعب
١٩٥٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

زرت الأقصر فى سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ آمون» الذى كان مستر هوارد كارتر (١) قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون (٢) ، فزرت فى الوقت نفسه كثيرا من قبور وادى الملوك ووادى الملكات ، وزرت الدير البحرى ومعبد الكرنك . وكنت نازلا فى فندق « ونتر بالاس » فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ولكنى لم أجشم نفسى عناء دخوله . ووقع فى يدى وأنا فى الفندق كتاب « طيبة » Thêbes للأستاذ كابار (٣) » وقيل لى إن ثمنه مائتا قرش فترددت فى شرائه ، ولكنى اشتريته ، ثم عدت إلى القاهرة وفى نفسى من ذلك كله اثر غامض . وقرات الكتاب فخيل لى أن الآثار التى مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظرى رويدا رويدا ، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثنى عن مجد عجبت من اننى لم اجد فى مدارس الحكومة التى تلقيت فيها تعليمى فى جميع درجاته ما يرشد إليه او يبعث فى الذهن فكرة عنه .

وحفزنى ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها فى سنة ١٩٢٦ ، ولكن الزيارة فى هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة ، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة ، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار . وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفا بمصر القديمة ، فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى ، مع اننى كنت قد زرته من قبل مرتين ، فجعلت ازوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد .

وتكررت زياراتى للآثار ، وانكببت على المؤلفات التى وضعها علماء المصرولوجيا (٤) فكنت كلما اوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى امتلىء بذلك زهوا ، وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الاعجاب الذى يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الاغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

وكان من الضرورى أن أقرا هذه المؤلفات ، أو بعضها على الأقل ، مرة وثانية ، بل ثالثة فى بعض الأحيان ، فلم أجد فى ذلك كلفة ، ولم ينقص التكرار شيئا من معنى بالقراءه ، لأننى كنت أفهم فى الثانية ما يبهم على فى الأولى ، وأنفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنى فى الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ ، فكتبت فى « البلاغ » رسائل فى تاريخ مصر القديم كانت لى تجربة أولى ، ثم جذبتنى القراءة وشواغلى الصحفية فانصرفت إليهما . ثم حانت فرصة فى سنة ١٩٣٨ فكتبت فى « البلاغ » رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابى هذا فأجمع فيه بعض ما كتبته من قبل ، بعد تعديله وتنقيحه ، ثم أضيف إليه بحوثا أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم ، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة او أكثر ، فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، مئات من الكتب (٥) ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد

---

(١) توفى مستر كارتر منذ عامين (صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٤٠ ــ دار الشعب) .

(٢) توفى اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات .

(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل .

(٤) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم علما مستقلا يسمونه « ايجبتولوجيا » نسبة الى « ايجبت » اى مصر . فكلمة « مصرولوجيا » هى اذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٥) امامى وأنا اكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التى وضعت عن مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية يصل العدد فيه الى ما يقرب من الف مؤلف . وهذا عن امهات المؤلفات فكيف بغيرها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدا ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد . فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف .

❋ ❋ ❋

وقد قصصت قصتى هذه فى انسياقى إلى التاريخ المصرى القديم لأنى أعرف أن شيئا منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه – مع الأسف – جميع المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون فى هذا التاريخ مؤلفات عربية (١) تجذبهم إليه ، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد فى مجموعه على مايعرفونه عن اليابان فى آسيا أو عن كندا فى أمريكا . وقد يعرفون عن انجلترا أو عن فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا أن نأخذ من امسنا ليومنا وغدنا . والانسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

والآراء منفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محى للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة ادق إلى أن يحيلوه فيه شبحا بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحقا إنه لتقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وانا اعرف أن علم الآثار صار يدرس فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين ، وأن وزارة المعارف بعثت وقتا ما بعثة إلى المانيا تخصص أفرادها فيه . ولكن اين هذا من العناية الواجبة بالتوسع فى تدريس التاريخ المصرى فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ؟ وأين هذا من مئات المؤلفات التى يجب أن توجد فى هذا التاريخ باللغة العربية ؟

إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى المانيا او فى غيرها من البلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع مافى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمو تبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الاقدام وسمو النفس ومجالدة المخاطر والميل إلى طيب الأحدوثة . ومن عجيب امر التاريخ انه يولد هذه الفضائل كلها سواء اكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة . اما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشىء منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هذا الشىء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخرافات بالاخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث إلى النفوس حديثا يقومها ويربى الفضائل فيها .

❋ ❋ ❋

وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التى تشوه التاريخ المصرى ، فأذكر هنا أن الخرافات هى الصورة التى يغلب أن ترتسم فى الذهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا

(١) لا يفوتنى هنا أن أشير الى المؤلفات التى تركها العالمان احمد كمال باشا واحمد نجيب بك وهى مؤلفات نافعة فى ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتفاع بها محدودا . ولا يفوتنى أن الدكتور حسن كمال عرب كتاب «تاريخ مصر» للعالم J. H. Breasted وهو من الكتب النفيسة فى موضوعه . ولا يفوتنى أخيرا أن بعض الموظفين فى المتحف المصرى اصدروا فى السنين الاخيرة كتيبا ماالجوا بها نواحى من التاريخ المصرى القديم . ولكن هذا التاريخ محتاج الى عشرات وعشرات من الكتب لا الى هذا العدد القليل منها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

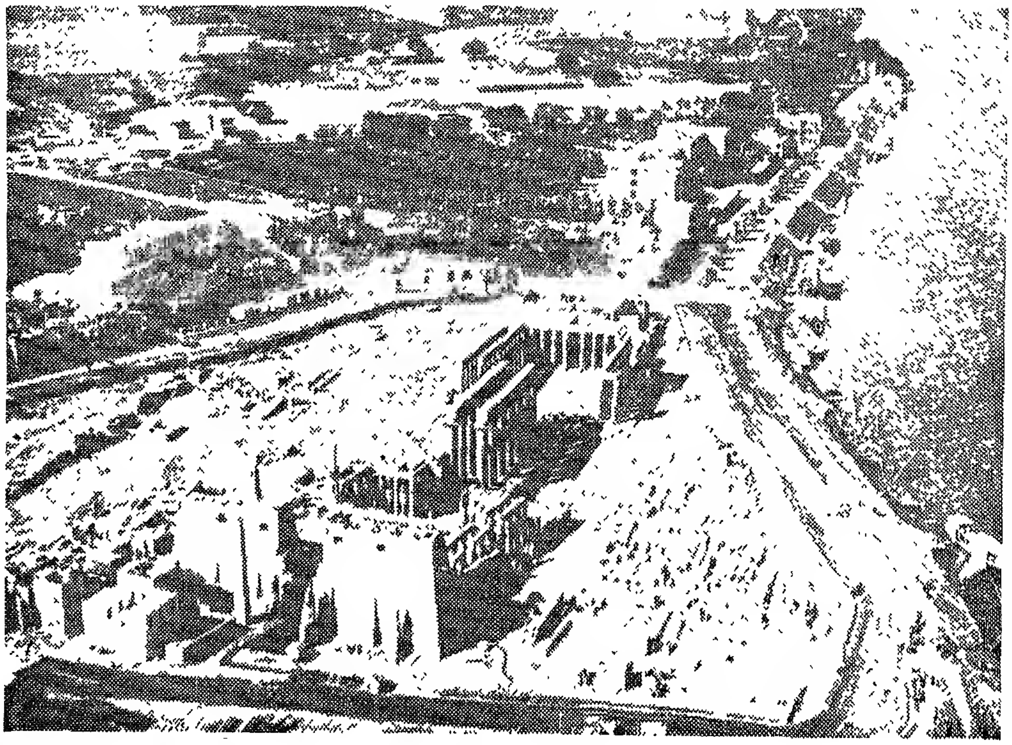

الاقصر ... منظر عام

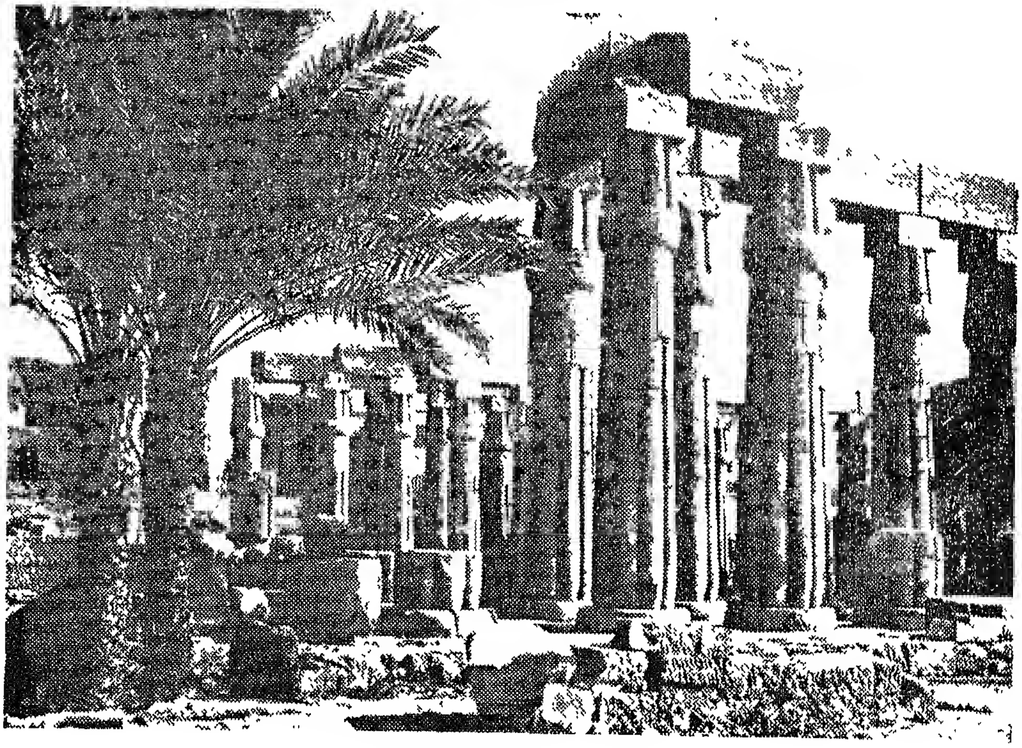

الاقصر ... أعمدة معبد أمنحتب الثالث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر وكتبوا عنها ، فيما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد ، شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها ، فالبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، لأنهم لم يفهموا ماشاهدوه ، أو لأنهم يريدون ان يثيروا دهشة قرائهم بما يقصونه عليهم من المبالغات والعجائب . يضاف إلى ذلك ان المصريين انفسهم كانوا ، حينما زارهم اولئك الكتاب ، قد سقطوا فى هوة الضعف والجهل ، فصاروا ينظرون إلى اجدادهم السالفين نظارهم إلى حلم بعيد غريب ، وصار من اسهل الأشياء لديهم أن ينسجوا حول هذا الحلم نسيجا من الأوهام والخرافات . وهؤلاء المصريون هم الذين أصغى إليهم أولئك الكتاب ، ونقلوا أحاديثهم عن عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، اى عن عصور كان قد مضى على الأولى منها ٣٥٠٠ سنة او أكثر ، وعلى الثانية منها ٢٥٠٠ سنة أو اكثر ، وعلى الثالثة منها ١٥٠٠ سنة أو اكثر ، فكان من الطبيعى ان يختلط بهذه الأحاديث كثير من الأغلاط والخرافات .

وهذه الكتابات التى كتبها الكتاب اليونانيون والرومانيون أمثال : هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليمان الاسكندرى وبلوترك — كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى ان كشفه شامبوليون الشاب ، اى مدى اربعة عشر قرنا (١) . فلم يكن العالم يعرف مصر القديمة فى مدى هذه المدة الطويلة إلا من خلال ما تركه اولئك الكتاب . وهكذا علقت بها عنده الخرافات المعزوة إليها ، ثم اضاف الخيال إليها خرافات أخرى ، فصارت صورة مصر لا تخطر على البال إلا خطرت معها مجموعة كبيرة من الخرافات.

ولم يزل الأمر كذلك حتى كشف شامبوليون اللغة المصرية ، واخذ العلماء يقراون ما على الآثار فى مصر من النقوش وما فى أوراق البردى من الكتابات ، فيجدون فيها مصرا تختلف عن مصر التى ألف العالم صورتها المشوهة ، أربعة عشر قرنا . وقد قضت بحوث هؤلاء العلماء على جانب من هذه الصورة المشوهة وما زالت فى سبيل القضاء على جانب آخر منها .

وحينما اقول إن بحوث العلماء قضت على جانب من الصور المشوهة ، اريد صورة مصر عند الأجانب ، لأن هؤلاء الأجانب قراوا ويقرأون ما كتبه علماء المصرولوجيا الالمانيون والانجليز والأمريكيون والفرنسيون والايطاليون والبلجيكيون . اما مصر عند المصريين فلا تزال صورتها المشوهة على ما هى عليه ، ولابد أن يمضى وقت قبل ان تزول . ومتى زالت فسيعرف المصريون ان المدنية المصرية التى يجعلها كثير من الباحثين أولى المدنيات جميعا ، والتى عاشت اربعين قرنا او تزيد ، لم تقم على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة ، بل قامت على أساس علمى وخلقى هو الذى اقتبسته منها المدنيات الأخرى بعد ذلك ، واخذت تسير فى نوره وتزيد عليه .

وسأعرض لهذا الأساس العلمى والخلقى فى بعض بحوث هذا الكتاب . وسأعرض ايضا لبعض ما يدعى على مصر ظلما من الخرافات والعقائد الفاسدة . ولكنى أقول هنا إن المدنية التى بنت الأهرام ، وشيدت معابد الكرنك والأقصر والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وإدفو ، ونحتت مقابر سقارة ووادى الملوك ، وخلفت تماثيل من كل نوع ما زالت تعتبر آية فى النحت والتصوير ، وصنعت الزجاج ، وصاغت الذهب والفضة والنحاس ، ووضعت أول أساس علمى للكيمياء (٢) والطب ، وكان

---

(١) من سنة ٣٩١ بعد الميلاد ، وهى السنة التى اصدر فيها الامبراطور الرومانى تيودوز الاول امره باقفال المعابد الوثنية المصرية ومطاردة الكهنة المصريين واللغة المصرية ، الى سنة ١٨٢٢ وهى السنة التى كشف فيها شامبوليون الشاب سر اللغة المصرية.

(٢) اكثر العلماء على ان المصريين هم أول من عرف علم الكيمياء ويرون ان كلمة « كيمياء » مشتقة من الكلمة المصرية « كيمى » التى كان المصريون يطلقونها على مصر والتى معناها الأرض السوداء . والمقصود بالأرض السوداء هنا الارض التى انتزعها النيل من ارض الصحراء الرملية وجعلها بطمية سوداء صالحة للزراعة .

وفى هذا يقول (A. Moret) فى كتابه :

(Le Nil et la Civilisation)

فى صفحة ٥٢٧ مايأتى :

« ان علم العقاقير يقودنا الى اعمال التحضير فى المعامل الكيماوية ، وهنا نجد انفسنا فى ميدان مصرى محض حتى أن الكيمياء مدينة باسمها لاشتقاقه من كلمه « كيمى » التى معناها الأرض السوداء » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

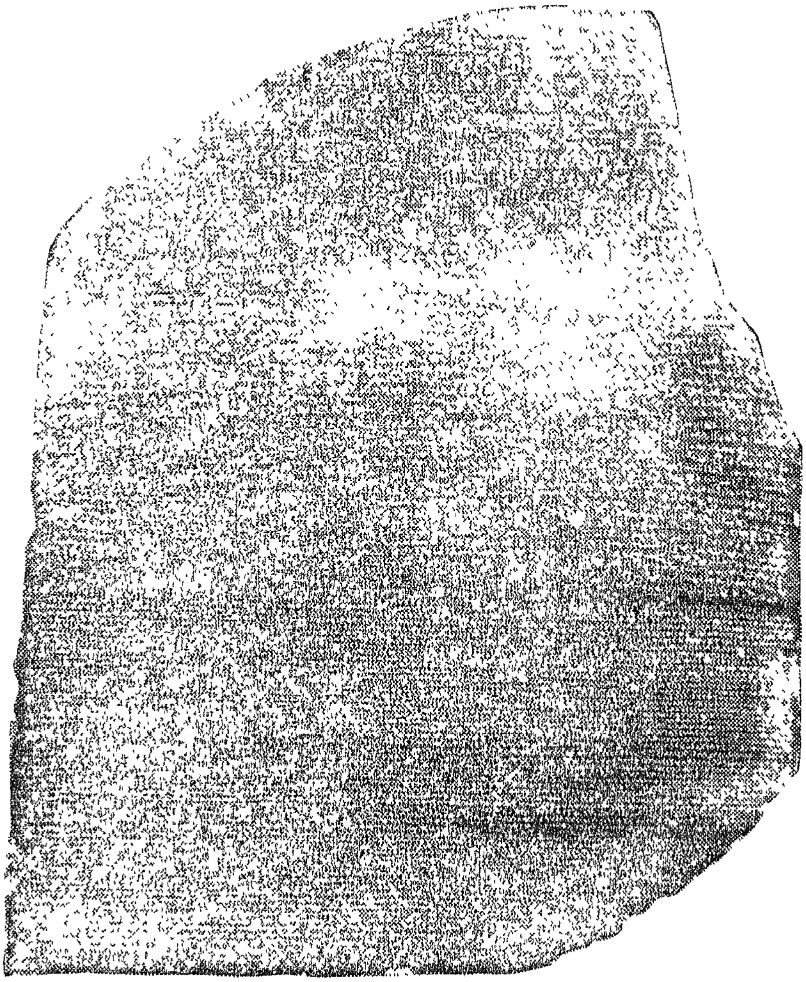

حجر رشيد

عثر الضابط الفرنسي بوسارد (Boussard) على حجر رشيد عام ١٧٩٩ ، إبان حملة نابليون على مصر ، على بعد أربعة أميال شمالي مدينة رشيد . وقد توفر شامبليون على دراسته لحل لغز الكتابة المصرية القديمة .

وهو من البازلت ، ورقمت عليه النقوش باللغة المصرية القديمة : بالخط الهيروغليفي (الجزء الأعلى) ، والديموطيقي (الجزء الأوسط) . أما الجزء الأسفل فقد دونت عليه الترجمة اليونانية للنص نفسه .

وعندما تم جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية عام ١٨٠١ اغتصبه الانجليز ونقلوه إلى المتحف البريطاني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها بشهادة هيرودوت أطباء متخصصون فى كل نوع من انواع الأمراض (١) ، ووضعت التقويم الشمسى ، وكانت أول مدنية عرفت علم الهندسة وبرعت فيه(٢) ، وأول مدنيـــة اهتـــدت إلى الكتابة ، وأول مدنيـــة صنعت الورق وكتبت عليه ــ أقول إن هذه المدنية التى عرفت كل هذا ، وعرفت الله والآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار ، لم يكن لها ان توجد ولا أن تعيش أكثر من اربعين قرنا ، وهى قائمة على أساس من الخرافات ، بل وجدت وعاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمى وخلقى صحيح .

* * *

ويحسن أن أسارع هنا إلى كلمة فى شأن الخرافات والعقائد الفاسدة . فلست أنكر أن هناك آراء وعقائد كان المصريون القدماء يظنونها صـــحيحة ، والآن ــ اى بعد بضـــعة آلاف من السنين تقدمت فيها خبرة الانسان بالحياة وتقدمت العلوم ــ يتضح لنا أنها غير صحيحة . لا أنكر هـــذا ، وهو لا يعيب مصر القديمة ، وقد وجـــد أكثر منه فى المدنيات التى عاصرتها ، بل فى المدنيات التى تلتها ، ولا يزال بعضه موجودا إلى اليوم . والأمة التى تنشىء أول حضارة فى العالم هى أمة يبدو العقل فيها فى حالة الطفولة ثم يتدرج فى النمو خطوة فخطوة . فليس يغض من مصر القديمة أنها مرت بحالة الطفولة ، وإنما يرفعها أنها لم تجمد عليها ولم تقف فيها طويلا ، بل خرجت منها قبل غيرها ، وكانت خطواتها فى هذا الخروج جبارة ، فكانت لذلك هى التى ظهرت فيها التباشير الأولى لتفتح العقل الانسانى ، وكانت هى التى نمـــا فيها هذا العقل بعد ذلك نموا قويا حتى استطاعت المدنيات التالية أن تأخذ منه وتزيد فى خطواته .

فلمصر القديمة آراء وعقائد يتضح لنا الآن أنها غير صحيحة ، هذا لاشك فيه (٣) . ولكن مما لاشك فيه

---

(١) نذكر هنا ما كتبه هيرودوت فى هذا . قال :

« الطب عند المصريين مقسم كما يأتى : كل طبيب يعالج مرضا واحدا لا جملة أمراض ، والأطبـــاء يملأون كل مكان . فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض التى لا يعرف لها مكان معين » .

وقد نقلنا هذا النص من كتاب هيرودوت من مصر ، وهو الجزء الثانى من التاريخ العام الذى وضعه . والترجمة التى اعتمـــدنا عليها هنا ، والتى سنعتمد عليها فى كل ما سننقله عن هيرودوت فى كتابنا هذا ، هى الترجمة الفرنسية التى أصدرها فى سنة ١٩٣٦ الأستاذ (Ph. E. Legrand) بجامعة ليون بفرنسا . وهى آخر الترجمات . وقد طبعها صاحبها وطبع الأصل اليونانى معها صفحة فصفحة ليمكن الذين يعرفون اللغة اليونانية القديمة من مقابلة احداهما بالأخرى .

والفقرة التى عربناها هنا هى الفقرة ٨٤ ص ١٢٠ .

ويجب أن نقول هنا ان ما سبيرو عرض لهذا الموضوع فى كتابه : (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient) ، فأظهر شكه فى أن يكون الطب قد تقدم عند المصريين الى هذا الحد ، ولكنه لم يقدم دليلا ينقض به هذه الرواية التى روى بها هيرودوت ما شاهده بعينه . ولعل ماسبيرو بنى شكه هذا على أوراق البردى التى كانت معروفة ومترجمة قبل وفاته ، والتى كانت منها أوراق خاصـــة بالطب والسحر والتعزيم ، ولم تكن منهـــا الورقة التى سميت « ورقة نيويورك » أو «ورقة ادوين سميث» . ولو أن ماسبيرو عاش حتى اطلع على ترجمة هذه الورقة لاعترف بتقدم الطب عند المصريين ، وبأنه تقدم على أساس علمى كمـــا أثبت ذلك برستيد الذى ترجم تلك الورقة ودرسها درســـــا مستفيضا بعد وفاة ماسبيرو ببضع سنين .

(٢) تكلم هيرودوت فى الفقرة ١٠٩ من الجزء الثانى من تاريخه العام عن انشاء الترع والقنوات فى مصر وتقسيم الأراضى الزراعية فيها ثم قال :

« وهذا فى رأيى هو السبب فى اختراع علم الهندسة الذى نقله اليونانيون الى بلادهم » . ويؤيد مورى هذا الرأى فى كتـــابه (Le Nil et la Civilisation) ص ٥١٩ ثم يقول :

« يؤخذ من كلام هيرودوت أن علم الهندسة نشأ فى مصر من الضرورة التى قضت بتقسيم الأراضى الزراعية فى مصر تقسيما منظما . وعلى كل حال ان النظام الاجتماعى فى وادى النيل قضى منذ العصور الأولى بايجاد قواعد ثابتة تكون دعامة للمقاسات » .

ومن هذا الرأى أيضا العالم الانجليزى (Griffith) فى بحث قدمه فى سنة ١٨٩٢ للجمعية الأثرية فى لندن .

ومن هذا الرأى أيضا العالم الألمـــانى (Brugsh) فى كتابه «المصرولوجية» ص ٣٧٠ ، وعلماء آخرون .

(٣) أكثر ماتظهر فيه هذه الآراء الفاسدة عقائدهم الدينية . ولكن عذرهم فيها أنهم كانوا فى دور الطفولة كما قلنا . وقـــد اتجهت عقولهم الى البحث فى الكون وخلقه وخالقه فـــكان من الضرورى أن يخطئوا فى خلال تلمسهم الحقيقة . وتاريخ الانسان فى بحثه عن الحقائق العلمية يدل على أنه قلما اهتدى الى واحدة منها دفعة واحدة . وانما هو يبدأ فيسير فى طريق مظلم فيضـل يمينا وشمالا . وقد يعثر فى خلال ضـــلاله هـــذا على أطراف من الحقيقة التى يطلبها ثم لا يزال يواصل البحث الى أن يستقيم له الطريق ويبين النور فيصل الى غرضه . وكلما كان هذا الغرض عظيما كان الطريق اليه شاقا وطويلا .

وقد جرت هذه السنة على المصريين فى بحثهم فى الكون وخلقه وخالقه . وكان الطريق أمامهم شديد الظلمة ، وكانت عقولهم لاتزال فى بداية التفتح للبحث العلمى والفلسفى ، فأخطأوا تارة يمينا وتارة شمالا ، ولكنهم اهتدوا فى خلال خطئهم هذا الى حقائق لاينكرها عليهم منكر . منها أن روح الانسان باقية بعد الموت =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

، هذه الآراء والعقائد شيء وما يدعى عليها من
ت والأوهام شيء آخر . وبحسبي أن أذكر
ى الأمثلة بايجاز ، وسأعالج أمثلة أخرى في
التالية .

* * *

هيرودوت عن موظف مصرى فى معبد المعبودة « فى صا الحجر أن النيل يولد بين « سيين »

ــسمه هو الذى يفنى . وقد رتبوا على ذلك أنه يبعث بعدا
ـاسب على ماقدم في دنياه من خير أو شر ، فيجزى على
ثواب وعلى الشر بالعقاب . وبرغم تعدد معبوداتهم ،
الأصنام ، وتقديسهم بعض الحيوانات ، وجدت عندهم
حدانية . وفى النظرية الدينية التى شرعتها مدرسة
ـ أو هليوبوليس مايكن أن يكون صورة من صور هذه
وعبادة أتون التى دعا اليها الملك امينوفيس الرابع أو
(أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) هى أيضا صورة من
، الفكرة .

ـرأ نظرية مدرسة هليوبوليس (وكانت تسمى باللغة
ت) فى كيفية خلق الكون لا يسعه الا أن يجد شبها فير
ـا وبين ماق الاصحاحين الاول والثانى من سفر التكوين
لعهد المديم المسمى بالتوراة .

ـسألة الوحدانية يقول احمد كمال باشا فى كتابه « الحضارة
، ص ١١٠ :

... قد اجتهدوا فحولوا التسبيع الأصلى الى تثليث
ـب الاشموبين بأن ضموا الأب الى ابنه وبالعكس ، أو
الى الزوجة فصارا ذاتا واحدة . وبذلك ادخلوا
ـ كل تثليث فى بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا فى ثلاثة
ـ أرادوا رياسته على التسبيع ... وكما حدث فى ادخال
ـ التسبيع حدث فى نفس التثليث بأن ضموا المعبودات
ضها لبعض فصارت معبودا واحدا . وبذلك أوجدوا
. وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم
الوحدانية المقدسة ... ... ومما تقدم يظهر أن علماء
ـسلوا من قديم الزمان بحصر صفات البارى فى معبود
ـ أن فرقت أسلافهم بينها » .

هذا القول قاله ماسبيرو أيضا وقاله كثير من العلماء .
نرى من ذلك أن علماء اللاهوت المصريين قالوا فى عقيدة
ـما يقرب مما يقوله فيها الآن علماء اللاهوت المسيحيون .
العلماء المصريين لم يجعلوا الوحدانية لاله واحد اعترفوا
، بل جعلها كل فريق منهم لمعبوده الذى كان يطلق عليه
ـقب . فهليوبوليس جعلته لاتوم رع ، ومنفيس جعلته
هرموبوليس جعلته لتوت ، وطيبة جعلته لآمون ، وهكذا .
ـناتون فنادى بالوحدانية لمعبوده آتون . وكان المصريون
كما نعتقد نحن الآن أن طريقة الخلق هى أن يقول الله
فيكون .

ـ ، فيما يلى من صفحات ، حين ذكر لشيد النيل ، بيان
الذى أشير اليه هنا ـ

و « ايلفنتين » (١) وأن شطرا من مائة يجرى إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة (٢) . وقد أخذ بعض المؤرخين هذا القول قضية مسلما بها ، وزعموا أنه كان بعض ما يعتقده المصريون فى منابع النيل . ومن الواضح مع ذلك أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يعنى بها هيرودوت ويثبتها فى كتابه ، وخاصة بعد أن قال هو نفسه « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هذا القول كان يمزح » . إذ المصريون الذين كانت سيين وايلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لايجرى شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتى من النوبة جاريا إلى مصر . وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة ، وإلى ما وراء النوبة ، منذ الدولة القديمة ، ووصلت فتوحاتهم فى عهد الدولة الحديثة إلى ما وراء الشلال الرابع . ولا تزال آثارهم فى هذه المنطقة قائمة يكشف عنها العلماء ويدرسونها . فهم إذن ركبوا النيل إلى ماوراء الشلال الرابع . فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند اسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصرى ، هو اعتماد على سند ساقط .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يتأولوا هذا الذى رواه هيرودوت فقالوا إن ولادة النيل عند ايلفنتين كانت

---

(١) سيين كانت ضاحية من ضواحى ايلفنتين . وايلفنتين مدينة قديمة كانت بجانب المكان الذى تقوم فيه الآن مدينة أسوان ، وكانت عاصمة لاقليم يسمى باسمها .

(٢) هذا تعريب ما كتبه هيرودوت فى ذلك نقلا عن موظف مصرى قال انه كاتب بمعبد « أتينا » فى صا الحجر . وأتينا هو الاسم الذى يطلقه اليونانيون على المعبودة « نيت » التى كانت تعبد فى صا الحجر وفى اسنا . قال هيرودوت فى الفقرة ٢٨ من كتابه :

« يقال ان بين سيين ، وهى احدى المدن التابعة لقسم طيبة ، وبين ايلفنتين ، جبلين لكل منهما قمة قائمة كالسن . وأحد هذين الجبلين يسمى كرونى والثانى يسمى سوفى . وهما اللذان يقال ان النيل ينبع من هاويات واقعة بينهما . وشطر من الماء يجرى نحو مصر وريح الشمال بينما الشطر الآخر يجرى نحو اثيوبيا وريح الجنوب » .

« ومما قاله لى ذلك الموظف أن الملك بساماتيك أراد أن يعرف عمق هذه الهاويات فصنع حبلا طوله عدة ألوف من الأورييى ثم دلاه فيها فلم يصل الى قاعها » .

والاوريبى مقياس يونانى قديم يعادل مترا و٨٥ سنتيمترا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعتقادا للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ويركبوا النيلَ إلى ما وراء الشلال الرابع . ولكن هذا التأويل لا يستقيم ، لأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر فى مفتتح الحضارة المصرية ، بل قدم إليها فى مختتمها ، اى بعد ان كان المصريون قد فتحوا النوبة فى عصر الدولة القديمة ، ووصلوا إلى ما وراء الشلال الرابع فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة . فالموظف الذى نقل عنه هيرودوت ما نقله لا يمكن ان يكون إلا جاهلا أو مخرفا ، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط كل ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص (١) .

وكل الذى نجح فيــــه هيرودوت باثباته هذه الخرافة ، هو انه كذب نفسه بنفسه فى غير هذا المكان من كتابه ، إذ قال إنه وصل فى تجواله فى مصر إلى ايلفنتين (٢) ، لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عنـــــدها لعلم أنه ليس له مجريان

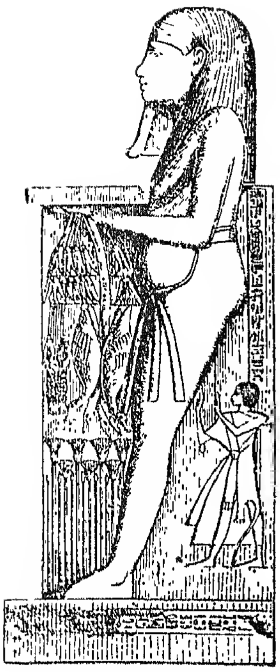

المعبود النيل

فى هذه الصورة كانوا يتمثلون المعبود النيل . وهى صورة رجل ممتلىء الجسم تظهر عليه سيما النبل والعنى . وثدياه كبيران كانهما ثديا امراة . وفى بعض الأحيان كانوا يرسمون المـــاء خارجا منهما . وامامه مائده للقرابين علقت فيها انواع مختلفة من الزهور والاسماك والطيور . ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة

متعارضان ، أحدهمـــا يتجـــه إلى مصر والثانى إلى النوبة ، وإذن لمـــا عنى بأن يسجل تلك الخرافة التى يعزوها إلى المصريين (٣) .

على اننا نحب أن نكشف هنا عن المصدر الذى نرجح أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت منه ، فقد ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط الاهرام اناشيد موجهة إلى النيل ومنها نشيد يذكر قدوم فيضانه إلى مصر فيقول :

« إن ماء الحياة الذى فى السماء يأتى . إن ماء الحيـــاة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبـــرق) من أجلك (يخاطب النيل) . والأرض تزلزل من أجل ولادتك .

---

(١) تدل الآثار على أن المصريين بداوا يغزون النوبة فى عهد الملك زوسر احد ملوك الاسرة الثالثة (فى نحو سنة ٢٨٩٠ ق.م) . ثم غزوها مرة ثانية فى عهد الملك سنفرو احد ملوك الاسرة الرابعة وعادوا منها ب‍ ٧٠٠٠ اسير و ٢٠٠٠٠ راس من الحيوانات . ثم غزاها الملك اوناس أحـــد ملوك الاسرة الخامســـة مرة ثالثة . ثم صارت فى عهـــد الملك بيبى الاول احـــد ملوك الاسرة السادســـة مستعمرة مصرية تصل حدودها الى ناباتا والى مروى بعـــد الشلال الرابع . فهذه هى فتوحاتهم النوبة فى عهد الدولة القديمة . اما فى عهد الدولة الوسطى فقد توالت فتوحاتهم لها فى زمن الأسرة الثانية عشرة والاسر التالية لها . وانتقلت اليها الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة حتى كان أمون يعبد فى عاصمتها ناباتا كما كان يعبد فى طيبة . ويقول احمد كمال باشا ان المصريين وصلوا الى الخرطوم (ص ٣٣٧ من كتابه الحضارة القديمة) والى ماوراء الخرطوم فى عهد الاسرتين الحادية عشرة والثانيـــة عشرة وكونوا عند مجمع النيل الابيض والنيل الأزرق مملكة مصرية . ولكنى لم أجد ســـندا لاكثر من وصولهم الى ما وراء الشلال الرابع بقليل ، اى الى قريب مما يسمى الآن بلدة ابى حماد .

وكانت تلى ذلك الى الجنوب منطقة لم تحتلها الجيوش المصرية ، ولكن النفوذ المصرى كان سائدا فيها .

وفى عهد الأسرة الثالثة والعشرين (حوالى سنة ٧٣٠ ق . م) كانت مصر قد ضعفت وكانت ناباتا قد صارت مملكة مستقلة قوية فغزت مصر وحكمتها مدة من الزمن .

(٢) قال هيرودوت فى الفقرة ٢٩ من كتابه :

« وصلت فى تجوالى الى مدينة ايلفنتين ، فما أكتبه وصفا لمصر ، الى هذه المدينة ، رايته بعينى . اما ما أكتبه وصفا لمـــا وراء ايلفنتين فهو مبنى على السماع وعلى ماوصل الى من الاخبار » .

(٣) يرى هـــذا الراى أيضـــا ليجران (Ph. E. Legrand) الاستاذ بجامعة ليون ص ٢٥ و٢٦ من المقدمة التى وضعها للكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

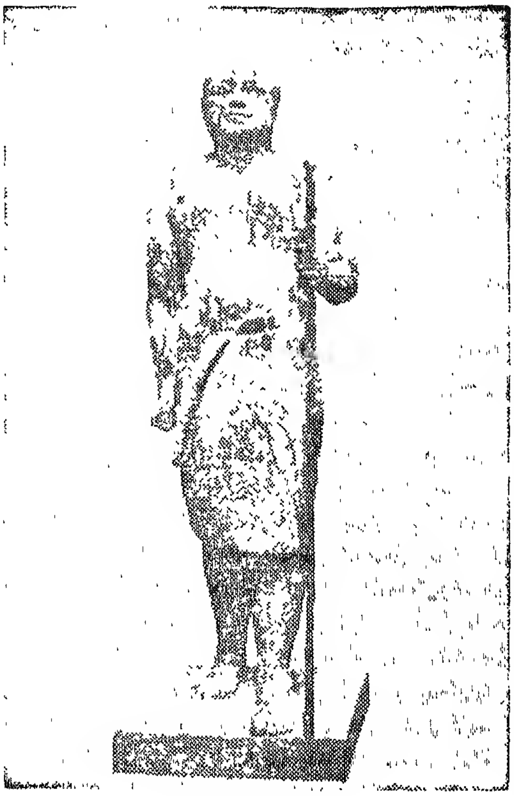

تمثال شيخ البلد

قال عنه ماسبيرو : «لو أن معرضا اقيم فى أى مكان لتعرض فيه روائع الفن فى العالم كله ، لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التى أقدمها اليه تمجيدا للفن المصرى » .

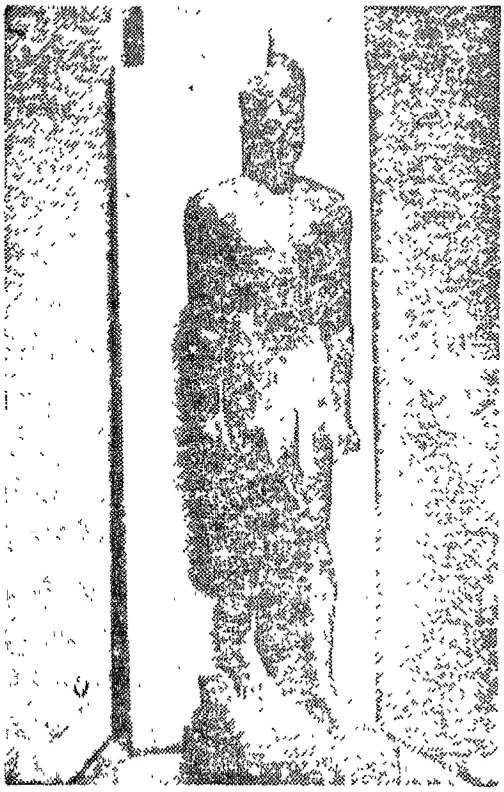

تمثال تحوتمس الثالث

وهو مصنوع من حجر الشيست . وتحوتمس الثالث من ملوك الأسرة الثامنه عشرة التى اتسعت فى عهدها الامبراطورية المصريه ، حتى لقد سمى تحوتمس الثالث « نابليون مصر »

هرم سقارة الذى بناه زوسر من ملوك الأسرة الثالثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقـد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود . إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » .

فالصخرتان اللتان يقال هنا إنهما انفتحتا وظهر المعبود من بينهما قائمتان عند ايلفنتين . وأغلب الظن أن مراد الشاعر الذى وضع هذا النشيد أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها . وهذا تعبير شعرى جائز . والذين قرأوا كتابات المصريين فى ذلك العهد وما بعده يعرفون أنهم كانوا مشغوفين بالمعانى المجازية . فليس يبعد أن يكون ما كتبه الشاعر هنا جاريا هذا المجرى، والجملة التى نقلناها عنه هنا تدل كل كلمة منها على إمعانه فى هذا الضرب من النخيل .

اما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازيا ، وانما اراد معنى حقيقيا كان المصريون يعتقدونه ، فنلاحظ أولا أن الشاعر اكتفى بأن يقول إن النيل يظهر من بين صخرتين عند ايلفنتين ، ولم يقل شيئا من السخافة التى نقلها هيرودوت ، وهى أن شطرا منه يجرى إلى مصر وشطرا يجرى إلى النوبة ، ونلاحظ ثانيا أن جميع علماء الآثار المصرية متفقون على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ ، أى حينما كانت المدنية المصرية تحبو كما يحبو الطفل . أما ماذكره هيرودوت فقد نقله عن موظف وقت زيارته مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد . فبين أسطورة الأهرام ورواية هيرودوت خمسة آلاف سنة على الأقل ، وهذه مدة من الزمن تتبدل فيها أعظم الأساطير وتتغير أقوى الآراء والمعتقدات .

* * *

ولما زار هيرودوت مصر وطاف فى مدنها كان مما لفت نظره أن للمرأة المصرية من المقام فى الأسرة ، والاحترام فى المجتمع ، والحقـوق فى المعاملات ، والحرية فى غشيان الأسواق وفى البيع والشراء ، ما لا مثيل له فى بلاده ، فكتب يقول إن الرجل فى مصر يباشر شئون البيت والمرأة تباشر الشئون خارج البيت (١) . ولم يكن هيرودوت صادقا فى هذا ولكنه رأى شيئا لم يألفه فأخطأ فى فهمه وتفسيره .

---

(١) اليك ما كتبه فى ذلك هيرودوت فى الفقرة ٣٥ من كتابه . قال :

« ان المصريين الذين يعيشون فى مناخ لا نظير له ، وحول نهر تخلف طبيعته عن طبيعة الأنهار الأخرى ، جروا فى كل شىء تقريبا على أخلاق وعادات تخالف أخلاق غيرهم من الناس وعاداتهم . فالمرأة لديهم هى التى تذهب الى السوق وتشترى الأشياء بينما الرجل يقعد فى البيت وينسج » .

وقد خلط هيرودوت بعد ذلك أشياء صحيحة بأشياء غير صحيحة فقال :

« وفى البلاد الأخرى يضمون الشبكة الى أعلى لينسجوا ، أما فى مصر فانهم يجعلونها الى أسفل . والرجال فى مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم بينما النساء يحملنها على أكتافهن . والمرأة تبول واقفة . والرجل يبول قاعدا القرفصاء . وهم يتبرزون فى البيوت ويأكلون فى الشوارع . والعلة عندهم فى ذلك أن الاعمال الضرورية التى تخدش الآداب ينبغى أن تعمل سرا ، أما الأعمال التى لا تخدش الآداب فينبغى أن تعمل جهرا . ولا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة ، وانما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا . وليس الابن ملزما بأن يعول أبويه ، فله أن يفعل والا يفعل ، أما البنت فملزمة ولو لم ترد . والكهان فى البلاد الاخرى يرسلون شعورهم ، ولكنهم فى مصر يحلقونها . ومن عادات الشعوب الأخرى فى الحداد أن يحلق أهل الميت شعور رؤوسهم أما المصريون فيرسلونها بعد أن كانت محلوقة . وغير المصريين يقيمون بعيدين عن الحيوانات والمصريون يقيمون معها . وغيرهم يعيشون على القمح والشعير وهم يجعلون طعامهم من نبات « الأوليرا » وبعضهم يسميه « ظيا » — (لم يعرف العلماء هذا النوع من النبات وقد ذهب بعضهم الى أن المقصود به الذرة) — والمصريون يعجنون الخبز بأرجلهم ويعجنون الطين (الذى تصنع منه الأوانى) بأيديهم . وهم يجمعون روث البهائم . والرجال فى جميع الشعوب يتركون أعضاءهم التناسلية على حالتها الطبيعية الا المصريين والذين تعلموا منهم فانهم يختتنون . والرجل فى مصر يلبس ثوبين والمرأة تلبس ثوبا واحدا . والعادة عند جميع الامم أن تثبت الحلقات والحبال التى لطلوع المراكب فى الظاهر من افريز المركب ، الا فى مصر فانها تثبت فى باطن الافريز . والاغريق يكتبون ويرصون الحصى الذى يستعملونه فى الحساب من الشمال الى اليمين بينما المصريون يكتبون ويحسبون من اليمين الى الشمال . وهم يقولون انهم أصحاب اليمين وغيرهم أصحاب الشمال . ولهم نوعان من الكتابة احدهما مقدس والثانى شعبى » .

انتهى ما كتبه هيرودوت فى هذا . وكل الذين درسوا التاريخ المصرى القديم ، كما دلت عليه النقوش وأوراق البردى ، لا كما دلت عليه كتب هيرودوت وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ، يعرفون الى أى حد خلط هيرودوت فى أقواله هذه فمزج حقائق قليلة بأخطاء كثيرة . ويكاد هيرودوت لم يقع على حقائق الا فى قوله أن المصريين يختتنون وأنهم هم الذين علموا غيرهم الاختتان ، ثم فى قوله ان كهنتهم يحلقون شعورهم ، ثم فى قوله انهم يرسلون شعورهم فى الحداد ، أما فيما عدا ذلك فليس الا الخطأ الظاهر والخلط البين . ولهذا ولأشياء أخرى قال الذين بحثوا مزاعم =

من آيات الصانع المصري

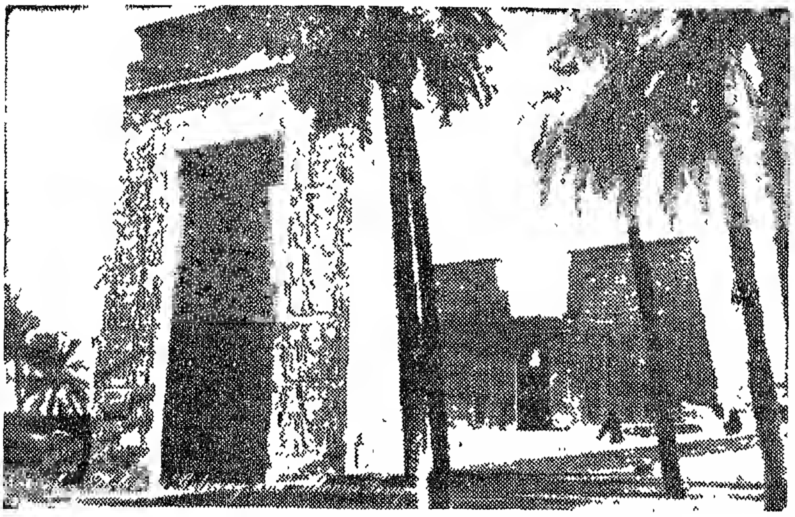

بوابة البطالسة
ومعبد خنسو
(الكرنك)

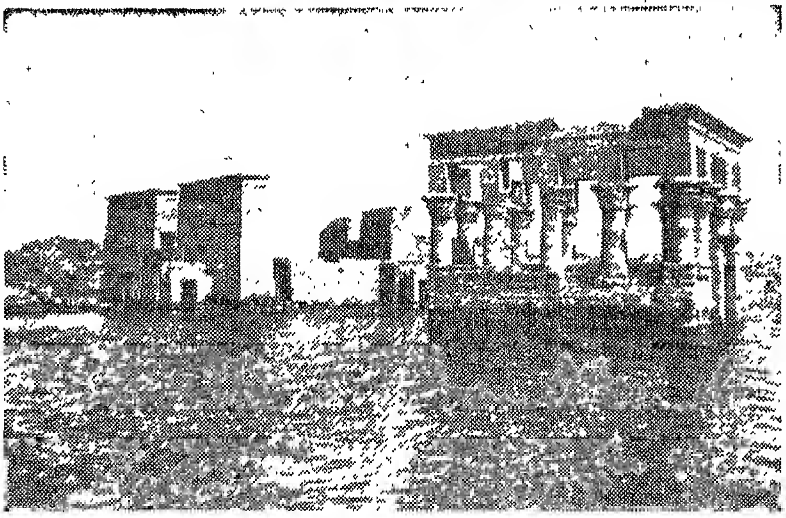

معبد ايزيس
(جزيرة فيلى أو «ايلفنتين»)

طريق الكباش
(الكرنك)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعثر العلماء منذ سنين على ورقة بردى يظن أنها كتبت فى عهد رمسيس الثانى وفيها أن بعض الأيام والساعات ميمون وبعضها الآخر مشـــئوم . فيوم ٤ طوبة طيب طيب طيب ، وكل شيء نظرته فيه يكون ميمونا ، وكل من ولد فيه يموت شيخا كبيرا . ويوم ٥ طوبة شؤم شؤم شؤم ، فلا يجتمع فيه بامرأة وقت ظهور القمر ، واحترس فيه من وقوعك فى النار التى توقد فى دارك . ويوم ٨ طوبة طيب طيب طيب ، كل ما نظرته فيه عيناك تعطيك إياه المعبودات ، وفيه يشفى المرضى . ومن يولد يوم ٤ أو ٥ او ٦ بابه

= هيرودوت هذه انه لم يدرس ما شاهده فى مصر درسا يمكن الركون اليه . والتمس له بعضهم عذرا فقالوا انه لم يختلط بالمجتمع المصرى بل رأى بعض السوقة فى الطرق فشاهد من افراد منهم مناظر شاذة فحكم بها على المجموع . مثله فى ذلك كمثل كثير من السياح الذين يفدون الى مصر فى هذه الايام .

وما دمنا قد ذكرنا هذا ، يحسن ان نذكر كيف تظهـــر حالة المجتمع المصرى على ضوء الآثار التى خلفها المصريون ، لا على ضوء ماكتبه هيرودوت أو غيره ممن لم يفهموهم . ونستند فى هذا الى شهادة عالم انجليزى هو الاستاذ ارثر ويجل (Arthur Weigall) أحد كبار الموظفين السابقين فى مصلحة الآثار المصرية ، فقد لخص فى كتابه الذى ترجم الى الفرنسيه تحت عنوان :

(Histoire de l'Ancienne Egypte.)

وطبـع بباريس فى سـنة ١٩٣٥ ص ١٥٧ ما دلت عليـه الآثار من مظاهر الحيـاة الاجتماعية المصريه فى عهـد الأسرة الثامنة عشرة والأسر التى تلتها فقال :

« كانت الحياة فى ذلك العهد ناعمة بالغة حدا بعيدا من التأنق ، حتى ليدهشنا ما نراه فيها من اوجه الشبه بالحياة فى عصرنا هذا الحاضر . فقد كان اهل الطبقات العليا ينامون على اسرة ذات اغطية ووسائد محشوة بالريش تشبه أغطيتنا ووسائدنا فى هذا العصر شبها كبيرا . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسى محشوة بالشعر . وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية ، تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف . وكان النساء يضعن الدهان الأحمر فى شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالـكحل الاسود ويصبغن شعورهن . أما الرجال فكانوا يحلقون شعورهم بأمواس من المعدن . وكان من المألوف ان يعنى الرجال عناية خاصة بتنظيف أظافر أيديهم واقدامهم ثم بتسويتها . وكان الاطفال يلعبون بالعرائس من القماش ، وبالاطواق من المعدن ، وبالكرات المختلفة ، كما كانوا يلعبون ببهلوانات ذات خيوط تتحرك بهـا اجزاؤها . وفى المدرسة كان هؤلاء الاطفال يتعلمون كما يتعـلم اطفالنا الآن القراءة والكتابة والحساب .

« وكان الرجال يلبسـون قفازات حين يخرجون من بيوتهم ، وكانوا اذا شعروا بالظمأ فى وقت الحر تناولوا مرطبات بواسطة قصبة فارغة الجوف كقصبة القش التى نشرب بها نحن الآن . وكانوا اذا عادوا الى بيوتهم غسلوا ايديهم فى أحواض وبأباريق كالتى نستعملها فى عصرنا هذا .

« وفى الحفلات كان نافخون ينفخون فى نفر طويلة من الفضة . أما المدعوون فكانوا يتمتعون بمشـــاهدة الرقص وسماع الغناء والاصغاء الى موسيقى مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وصاجات وطبول . وكانت لهم ألعاب يتسلى بها الرجال والنساء فى البيوت منها الضامة والزهر وألعاب أخرى من ألعاب الاجتماعات الخاصة .

« تلك أمثلة قليلة ذكرناها هنا اتفاقا ، ومن غير ان نفرد للموضوع بحثا خاصا ، وهى تكفى لاظهار أن المصريين فى ذلك العصر لم يكونوا على الطباع الغريبة التى نسبها اليهم بعض الكتاب . نعم انهم بما كانوا يضعونه على رؤوسهم من الشعور المستعارة ، وبما كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، ثم بما كانوا يأخذون به انفسهم من الآداب والتقاليد الجمة ... بهذا كله يظهرون امام أعيننا عند النظرة الأولى غرباء عنا ، كأنهم صينيون او يابانيون من اهل الجيـل الغابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقلنا الغربى ، وان افكارهم متصلة بأفكارنا الى حد بعيد فى بعض الأحيان » .

هذه هى شهادة الحق التى كتبها أرثر ويجل ، وهى ترسم صورة للمصريين غير الصورة المزيفة التى رسمها هيرودوت . وقد طعن نفس مترجم هيرودوت من اليونانية الى الفرنسـية (Ph. E. Legrand) فى الصورة التى رسمها هيرودوت للمصريين وحكم منها بانه لم يختلط بالمجتمع المصرى (ص ٣٠ و ٣٥ من مقدمة كتاب هيرودوت) .

وقد ذكر هيرودوت فيما نقلناه عنه أنه « لا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبـود او معبـوده وانما الرجال هم الـكهان للمعبودات جميعا » . وهـذا خطأ ، فقد دلت الآثار عـلى ان النساء كن يكهن للمعبودتين « نيت » و « هاتور » ولمعبودات أخرى . كما دلت الآثار على أنه كانت توجد فى معبد امون فى طيبة طوائف من النسـاء ملحقـات به . فبعضهن للرقص امـام المعبود فى مواكبه وحفلاته ، وبعضهن للغناء ، وبعضهن للضرب على آلات موسيقية ، وبعضهن للكهانة . وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالرئيسـة العليـا لسيدات امون او بزوجة امون ، وهى فى الغالب الملكة او بنت الملك او زوجة الكاهن الأعلى أو ارملته . وفى عهد الأسرة الثانية والعشرين صارت زوجة امون حاكمة لطيبة فصارت ذات سلطة ادارية واسعة . واستمر هذا التقليد الى ان دخل الفرس مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م وكانت زوجة أمون حينذاك بنت بساماتيك الثالث .

على ان من الانصاف لهيرودوت ان نذكر انه عاد بعـد كلامه الذى اوردناه فقال فى وصف المصريين :

« ان القوم الذين هم اشد الناس استمساكا بالعقائد الدينية (يريد المصريين) يتبعون القواعد الآتية :

« فهم جميعا ، لا فريق منهم دون فريق ، يشربون فى اوان من البرنز ينظفونها كل يوم تنظيفا دقيقا . وهم يلبسـون ملابس من الكتان يعتنون دائما بغسلها اعتناء كبيرا . وهم يختتنون رغبة فى النظافة لأنهم يرون أن النظافة خير للجسم . وكهنتهـم يحلقون اجسامهم مرة كل يومين حتى لا تعلق بهم اية حشرة وهم يخدمون معبوداتهم . ولا يلبس هؤلاء الكهنة غير لباس من الكتان واحذية مصنوعة من نبات البردى . ومن المحظور عليهم أن يلبسوا ملابس من قماش آخر واحذية من نوع آخر . وهم يغتسلون بالمـاء البارد مرتين بالنهار ومرتين بالليل » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحة محفوظة فى القسم المصرى من متحف برلين وهى تمثل جنديا سوريا اراد ان يشرب شرابا فاعطاه الخادم المصرى غابة يشرب بها

يموت بالحمى الأجامية أو بسبب العشق أو بسبب السكر . ومن يولد فى ٢٣ كيهك يلدغه ثعبان فيقتله . ومن يولد فى ١٩ أو ٢٩ كيهك يعيش طويلا ويمضى حياته فى لذة وسرور واحترام ... الخ (١) .

ولا أمضى إلى أكثر من هذا فى اقتباس ما فى ورقة البردى هذه لأنى لا أفتح هنا باب بحث خاص فيها ، ولكنى أقول إن كثيرا من الباحثين لم يكادوا يقفون على هذه « التوقيعات » حتى ذهبوا من التخصيص إلى التعميم وحكموا بما فيها على المصريين . وحينئذ لم تبق هذه الخرافات معزوة إلى كاتبها ، بل صارت عقائد كان المصريون يعتقدونها أجمعين . بهذا قال علماء من أمثال ماسبيرو(٢) واحمد كمال باشا(٣) وغيرهما ممن لا ينكر أحد فضلهم فى خدمة التاريخ المصرى وإظهار فضائله . وأنا أخالف أصحاب هذا القول وأرى انه يكون عجيبا إلى أقصى حدود العجب ان

(١) ورقة البردى هذه موجودة فى القسم المصرى من المتحف البريطانى وتسمى ورقه ساليير (Sallier) رقم ٤ . واول من ترجمها العالم شاباس (Chabas)

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) من ص١٤٩ الى ص١٥٨

(٣) كتاب الحضارة القديمة جزء اول من ص ١١٦ الى ص ١١٨

تستمر المدنية المصرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ثم يبقى المصريون على اعتقادهم ان من يولد فى يوم ٤ طوبة يموت شيخا ، ومن يولد فى يوم ٢٣ كيهك يموت بأنياب تمساح ، ومن يولد فى يوم ٢٧ كيهك يموت بلدغة ثعبان ، وغير ذلك من التقديرات التى تتناول اكثر أيام السنة ، كأنما ثلاثة آلاف سنة لم تكف لاقناعهم بأن هذه التقديرات حساب غير صحيح .

والأمر فى هذه التقديرات بعد ذلك هين ، فمثلها موجود بيننا فى مصر ، وموجود فى أوربا ، إلى اليوم . وهأنذا افتح تقويم « طوالع الملوك » لسنة ١٩٣٦ فأجد فيه مايأتى :

الثلاثاء	٥ مايو	يوم جيد لمقابلة الحكام .
الخميس	١١ يونية	يوم جيد لتجار البحر
الثلاثاء	٢٣ يونية	يوم يخاف فيه من لبس الجديد .
الأربعاء	٢٤ يونية	يوم سعيد لرفع البناء
الثلاثاء	٣٠ يونية	يوم سعيد لمقابلة الملوك .
الثلاثاء	٧ يولية	ظهور الحق لذى عينين .
الأحد	١٩ يولية	يستحب دخول الحمام .
الثلاثاء	١١ اغسطس	تموت الحية الرقطاء تحت حكم السلاح .
الاثنين	٣١ اغسطس	يوم سعيد لقضاء الحوائج .
السبت	٣١ اكتوبر	يجتنب الفصد والحجامة .
السبت	١٤ نوفمبر	يوم سعيد لحفر الآبار .
الاثنين	١٦ نوفمبر	أوان ظهور الملاحم الدموية .

والتقويم مشحون بكثير من أمثال هذه « التوقيعات » . ومثله « تقويم الأسيوطى » لسنة ١٩٣٦ ، وفى أوربا تقاويم من هذا النوع . فهل الذى يقرأ هذه التقاويم يسوغ له أن يحكم بأن المصريين والأوربيين يعتقدون ما فيها ؟ وهل إذا اتفق أن عثر الباحثون بعد ثلاثة آلاف عام على تقويم من هذه التقاويم يسوغ لهم أن يعزوا ما فيه من الخرافات إلى جميع اهل الزمن الذى عاش صاحبه فيه ؟

ولاحظ فوق هذا أن الذين يعزون إلى المصريين ما فى ورقة ساليير من الخرافات لايعزونه إلى المصريين الذين عاصروا كاتبها فحسب ، بل إلى المصريين فى جميع العصور ، أى فى ثلاثة آلاف من السنين !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فورقة سالير لا تزيد قيمتها عندى على قيمة « طوالع الملوك » أو « تقويم الأسيوطى » ، والخرافات التى فيها لا تتعدى صاحبها وجماعة من الجهلة يوجدون فى كل عصر وكل بلد ، فلا يحكم بهم على البلد الذى هم فيه .

* * *

ومثل آخر من امثلة الخرافات المكذوبة على المصريين :

زعم المؤرخون العرب أن للنيل عروسا كان المصريون يقدمونها له كل سنة فلم يبطلها إلا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« قال ابن الحكم : لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى اهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من اشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم القيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام وإن الاسلام يهدم ماقبله . فاقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت . إن الاسلام يهدم ماكان قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فالقها فى النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك» . فالقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل . وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر » .

تلك هى القصة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن الرسول الذى حمل البطاقة كان يسمى جاحل الصدفى . فالذى يقرأ هذه البيانات المفصلة يظن أول وهلة انها نقلت من سجلات حكومة المدينة أو سجلات حكومة مصر فى عهد عمر وعمرو . وقد شاعت هذه القصة وتناقلها الكتاب أكثر من الف سنة ، وهى لا تزيد فى حقيقتها على أن تكون اكذوبة من الأكاذيب المدعاة على المصريين .

نعم هى أكذوبة على الرغم من التفصيلات التى ساقها ابن عبد الحكم ، فقد صار تاريخ مصر القديمة معروفا ، وأنت تقرأه كله فلا تجد فيه أثرا لهذه القصة . وقد دون المصريون ، فيما دونوه عن النيل ، أنهم رفعوه إلى صف المعبودات ، وعنوا بفيضانه فجعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة كما نقيسه الآن . وكانوا يسجلون فى سجلات خاصة درجات

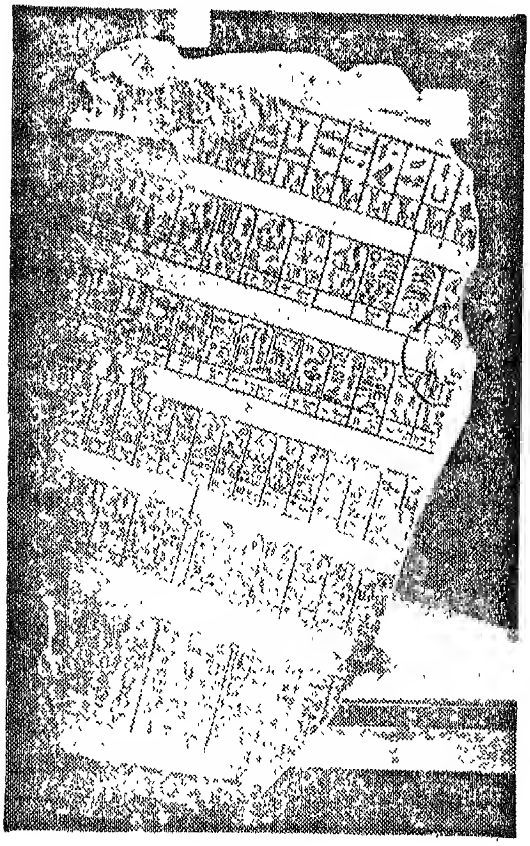

حجر بالرم

قطعة من حجر بالرم الذى نقشت عليه أسماء الملوك فى عصر ماقبل الأسر ، ثم فى عصر الأسر الى منتصف الأسرة الخامسة . وقد نقشت عليه ايضا مقاييس النيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علوه وانخفاضه فى أوقات معينة من كل سنة كما نسجلها الآن . وقد سجلوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد . ولا يزال حجر « بالرم » واعمدة الكرنك وصخور اسوان والنوبة شاهدة بذلك (١) . فلو انهم كانوا يلقون فيه عروسا كل سنة لكى يفيض لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته .

أضف إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرا لسنى جدب ومجاعة رزئت بها مصر بسبب انخفاض الفيضان ، وهم لم يذكروا فى ذلك عروسا قدمت أو كانت تقدم ، ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر فى خلال ذكرهم تلك السنين (٢) .

ثم إن فيما تركه لنا المصريون من الآثار وصفا لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى به فيها المغنون ، وهذه الاحتفالات والقصائد والأغانى خالية كلها من اية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس كانت صحيحة لما خلت منها .

---

(١) حجر بالرم هو حجر يظن انه بقية من بقايا معبد هليوبوليس . وقد نقش عليه تاريخ ملوك مصر فى العصر السابق على عصر الأسر ثم تاريخ الأسر الخمس الأولى بأن قسم الى خانات متوالية خصصت كل خانة منها لذكر اهم ما وقع فى كل سنة واقصى الدرجات التى وصل اليها ارتفاع النيل فى تلك السنة . ولم يوجد من هذا الحجر الا جزء يظن انه عشره . وهو موجود الآن فى متحف بالرم فى جزيرة صقلية ولذلك يسمى حجر بالرم .

وفى متحف القاهرة أجزاء صغيرة يظن انها من حجر آخر كان نسخة ثانية لحجر بالرم .

(٢) كان النيل يسمى حابى . وقد وجد منقوشا على لوحة تذكاريه من الحجر تعرف عند علماء الآثار باسم « لوحة المجاعة » أن النيل جاء منخفضا سبع سنوات متواليات فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة فقال هذا الملك :

« اننى حزين لان النيل لم يفض فى عهدى سبع سنوات ، فقلت الغلال ، وجفت الحقول ، وهلك كل مايصلح أن يكون طعاما . وصار الرجل اذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لانجاده . وصار الطفل يبكى ، والشاب يذبل ، والشيخ يغمى عليه . وصارت سيقانهم جميعا لا تحملهم فهم مطروحون على الارض وقد القوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم » .

ومع أن هذه الاقوال معزوة الى الملك زوسر فقد عرف ان اللوحة نقشت فى عهد البطالسة ، وان كهنة المعبود خنومو (معبود ايلفنتين) هم الذين نقشوها ثم أضافوا اليها أن الملك زوسر استغاث اذ ذاك بالمعبود خنومو فأغاثه واجرى النيل . وبهذه القصة حصل كهنة خنومو على امتيازات كان المعبد الذى يخدمون فيه قد حرم منها .

ومن هذا يتضح ان القصة مطعون فى صحتها ، ولكن هذا الطعن لا ينقص من قيمتها فيما نحن بسبيله . اذ من الجلى انه لو كانت عروس تلقى فى النيل كل سنة ، لاشير اليها ولو مرة واحدة على الاقل فى هذه السنوات السبع التى جاء النيل فيها منخفضا ، ثم لقيل ان النيل بقى مع ذلك منخفضا حتى أجراه خنومو ، فيكون ذلك ادل على قدرته وفضله . فخلو القصة من اية اشارة الى =

= العروس لم يكن الا لانه لم تكن هناك عروس . وهذه اللوحة وجدت فى احدى الجزر بالقرب من اسوان .

* * *

وانخفض النيل فى عهد الملك سنخاورع منتوحتب أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة فنشبت مجاعة شملت مصر كلها ، ووصل الينا خبرها فى كتب كتبها بعضهم اذ ذاك . ومن هذه الكتب كتاب كتبه احد كبار الملاك فى ذلك العهد الى أمه ، وكان يقيم فى الوجه البحرى وكانت أمه تقيم فى الوجه القبلى ، فقال فيه :

« كيف انت ؟ لا تقلقى على فانى حى وفى صحة جيدة ، ولكن البلد يموت جوعا . لقد حصلت لك على كل ما استطعت الحصول عليه من الغذاء .

« ألا يزال النيل شديد الانخفاض ؟ ... ... لا تستائى لقلة ما أبعث به اليك فان نصف الموت خير من الموت » .

ومن تلك الكتب أيضا كتاب كتبه هذا الرجل نفسه الى ولده يقول فيه :

« عليك أن تغذى رجالى حينما يكونون فى العمل . تذكر ذلك ولا تغفل عنه . وليكن وكدك أن تجعل انتاج أرضى أقصى مايمكن . احرث الارض وانصرف الى العمل بكل ما فيك من قوة . جد واجتهد واذكر أنك تأكل من عيشى ، وأن من حسن حظك أنى مستطيع أن أقوم بحاجاتك . واذا عاف أحد من رجالى المأكولات التى تقدمها لهم فابعث به الى ليقيم معى ويعيش كما أعيش . وذلك ما لا يفعله احد غيرى » .

وفى هذه الكلمات ما ينم عن شعور انسانى وعن اخلاق كريمة تستحق أن يقف الباحث عندها .

(كتاب (Histoire de l'Egypte Ancienne) تأليف (Arthur Weigall) ص ٧١ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى باريس فى سنة ١٩٣٥) .

* * *

وقد توفى الملك سنخارع منتوحتب فخلفه الملك نبتاوى رع منتوحتب ، وفى عهده أيضا جاء النيل منخفضا فى بعض السنين فاشتدت المجاعة وأدت الى ثورة فقد فيها الملك عرشه وخلفه عليه وزيره امنمحت . وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة وابتدأت الأسرة الثانية عشرة .

* * *

وفى كل هذه المجاعات والثورات الناشئة من انخفاض النيل ، وفى كل الكتب التى بقيت لنا من مخلفات تلك العصور ، لم يرد ذكر لشىء يسمى عروس النيل .

نشيد النيل

وننشر هنا نشيد النيل نقلا من ماسبيرو الذى ترجمه من النص المصرى فى كتابه :
Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique
ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من الجزء الأول . ويجب أن نقول هنا ان لماسبيرو موجزا وضعه هو بنفسه لكتابه هذا المؤلف من ثلاثة أجزاء كبيرة ، وهذا الموجز يقع فى جزء واحد ، وقد أثبت فيه هذا النشيد نفسه بعد حذف بعض أجزائه ومع تغيير طفيف جدا فى كلمات قليلة منه . وقد اعتمدنا نحن فى الترجمة العربية التى نثبتها هنا على الترجمة الأولى لأنها أوسع وأوفى . وهذا هو النشيد :

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك (١) . إنك اللجة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع . إنك تعطى الحياة جميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء (٢) . ومتى هبطت فان جب إله الأرض ينعف بالخبز على اختلاف انواعه ، ونابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، وبتاح ينشر الرخاء فى دار صناعته (٣) .

« أنت سيد الأسماك ، متى جزت الشلال (٤) . لم تعد الطيور ترتمى مترديه على الحقول . أنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد .

« أنت من إذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من الناس فى البؤس . وإذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من فى الأرض كبيرا او صغيرا يعانى العذاب .

« اما إذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل، وصار لهم خنومو (٥) . فان الارض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطع .

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الخير من المأكولات . هو موجد جميع الأشياء الطيبة . هو سيد جميع النطف والجرائم . هو حلو للذين يصطفيهم . هو موجد العلف للمواشى ، والقرابين لجميع الآلهة . والبخور الذى يأتى منه اجود من كل بخور غيره . وانه ليفيض على البلدين (٦) . فتمتلىء مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء .

« إنه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير ان ينقص شيئا منها . وهو منشىء السفن . وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة او أن تنحت له تماثيل يوضع له التاجان عليها (٧) . وهو لا يراه الرائون ، ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ، ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية ، ولا يعرفون مكانه ، ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدسة .

« وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابى ، ولا من إنسان يدخل قلبك . وأبناؤك

---

(١) يرى ماسبيرو ان فى قوله « تخفى فى الظلمات مجيئك » اشارة الى أسطورة كانت تقول ان النيل ينبع من نيل فى السماء ، ويجرى فى الظلمات الى أن يكون النيل الذى على الأرض والذى يروى مصر .

(٢) كان من الأساطير المعروفة عند المصريين ، من قبل عصر الأسر ، ان النيل مظهر من مظاهر المعبود أوزيريس اله الخير والخصب ، وان الصحراء مظهر من مظاهر سيت اله الشر والجدب . وكان هذان المعبودان أخوين واخر سيت قتل أوزيريس فانتقم له حوريس ابنه من ايزيس وحارب سيت حتى انتصر عليه . فقول الشاعر هنا ان النيل يرفض أن يروى الصحراء معناه أنه يرفض ان يروى ظمأ اله الشر فى حين أنه « يعطى الحياة جميع الظمآنين » .

(٣) كان المعبود بتاح يلقب فى مبدأ أمره برئيس الصناع ورجال النحت والتصوير . وكان يعبد فى منفيس على هذا المعنى . وحينئذ كانت مصر توصف عند عابديه بأنها دار صناعته . ثم تطور الامر فصار بتاح معبودا عاما وخالقا للكون مثل رع فى بين شمس وامون فى طيبة .

(٤) يريد الشلال الاول لأن النيل يدخل مصر باجتيازه .

(٥) قوله « صار لهم خنومو » معناه انه صار الاله الذى يصنع بيده من الماء والطمى الخير للناس . وخنومو هو معبود ايلفنتين ، وكان يقال انه هو الذى صنع بيده الكون ويصنع بيده الناس حين يولدون ويصنع جميع الأشياء .

(٦) المراد بالبلدين الوجه القبلي والوجه البحرى من مصر .

(٧) التاجان هما تاجا الوجه القبلي والوجه البحرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

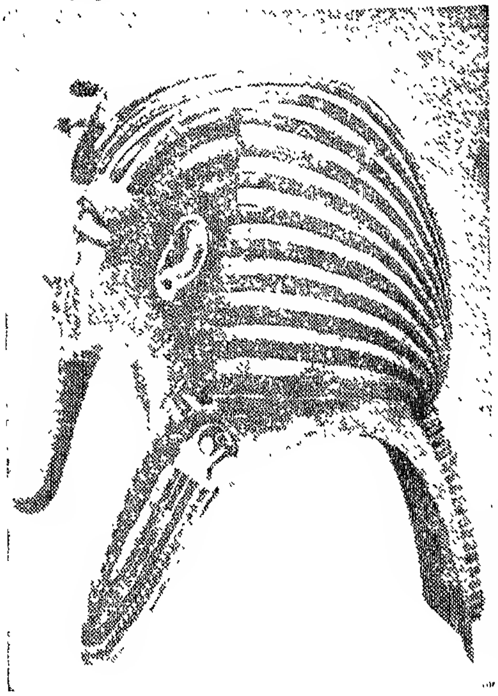

قناع مومياء توت عنخ آمون

وهو من الذهب الخالص . وهو يمثل صورة بالغة الدقة للملك . وقد كان هذا القناع يغطى رأس المومياء .

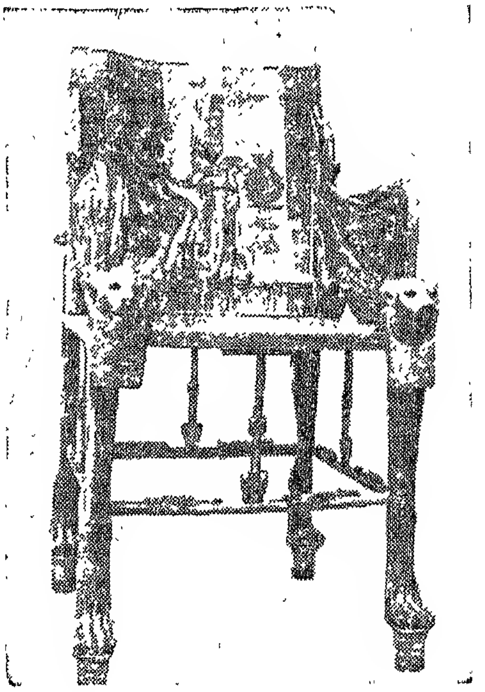

عرش توت عنخ آمون

وهو مصنوع من الخشب المحفور المكفت بالذهب ، وقد رصع بالاحجار الكريمة والفضه ، وصنعت الأرجل على صورة أرجل السنور .

تماثيل لرأس توت عنخ آمون

وهى مصنوعة من الجص فى مهارة فائقة . واتخذت أغطية لصندوق حفظ أحشاء الملك المحنطه .

وذراريهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها (١) ، ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء ، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب .

« وأينما يوجد الألم فأنت تحوله إلى فرح . وحينئذ يبتهج كل قلب ، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت (٢) من الطرب لأن التتسيع الالهى(٣) الذىيرافقك ينظمكل شىء . فالفيضان الكافى يروىالحقول ويبعث النشاط فىالرجال ، وإذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه الى القضاء (٤) .

« وإذا كنت تدخل فىخلال الأغانى . وتخرج فى خلال الابتهاج(٥) ، ثم اذا كانالناسيرقصون طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تثاقلك اضمحلال وفساد . وإذ ذاك يجتمع للابتهال إليك والحصول على مائك السنوى ، أهل طيبة جنبا إلى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس ملابس الأعياد التى كان قد تعودها . وابناء توت ، إله الغنى ، لا يتجملون بالحلى . ومثلهم التتسيع الالهى . والليل عام شامل (٦) . ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا .

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه إليه رغبة الخلق ، ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب (٧) ، ان انت أجبت واعطيت أمواج الاقيانوس السماوى ، فان نابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل .

« لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة .

« لقد بدأوا يشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذرارى ابنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الثناء عليك . ولا عجب فان إله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ، ويحب أن يتكاثر عدد القطعان .

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الفنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بزهور اللوتس ، وصار كل شىء تابتا ومن صنف جيد .

---

(١) المراد بالأرض كلها مصر بقسميها .

(٢) نيت هذه (Nit) غير نيت (Neith) معبودة صالحجر . وتقول الاساطر أنها عجلة ولدت فى المساء الاول الذى خلق منه الكون ، ولها طفلان هما تمساحان .

(٣) التتسيع الالهى موجود فى نظرية هليوبوليس عن كيفية خلق العالم . فقد كانت هذه النظرية تقول ان الخالق الأول هو أتوم رع ، وقد بدأ فخلق من نفسه شو (أى القضاء) وزوجته تفنيت . ثم جب (أى الأرض) ونويت (أى السماء) . ثم أوزريس (اله الخير والخصب) وزوجته ايزيس (وهى أخت أوزريس) وسيت (اله الشر والجدب) وزوجته نفتيس . فالمجموع تسعة آلهة . وقد اقتبست المدن الكبيرة هذا التتسيع نفسه بعد أن حولته الى معبودها الأكبر . فمدينة منفيس أخذته ولكنها وضعت معبودها بتاح بدل أتوم رع . ومدينة طيبة وضعت معبودها أمون مكان اتوم رع . ولكن لما كان أمون فى أول نشأته معبودا خامل الذكر فقد ضمت طيبة اليه رع فسمتهأمون رع ليفيد من هذهالاضافة . على أنها لم يفتها حينئذ أن تقرر أنه ملك الآلهة وأن تصفه بجميع الأوصاف التى كانت هليوبوليس تصف بها اتوم رع . ومدينة هرموبوليس (الأشمونين) كان لها تتسيع آخر قمرى رئيسه توت.

(٤) يرى ماسبيرو أن فى هذه الجملة اشارة الى المنازعات والقضايا التى كانت تنشأ من توزيع المياه على الحقول حينما يكون النيل واطئا والفيضان قليلا ، أما حينما يكون الفيضان كافيا فلا يبقى محل لمنازعات ولا لقضايا .

(٥) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال ان النص المصرى فيها مضطرب غير واضح ، وانه جعلها فى هذه الصيغة قياسا علىكتابات من هذا النوع موجودة فى متحف اللوفر كان يقال فيها ان فلانا صاحب المقام الكبير يمثل أمام الملك بين كلمات الثناء ويخرج بين الأغانى . وذلك أنه كانت توجد فى البلاط الفرعونى كما كانت توجد فى بلاط بيزانس صيغ مختلفة الدرجات من الأغانى والكلمات لمقابلاتالكبراء للملوك . فكأن النيلواحد من هؤلاء الكبراءيستقبل بالغناء ويودع بالابتهاج .

(٦) يصف الشاعر هنا ماذا يفعل أهل مصر حينما يكون النيل متثاقلا أى قليل الفيضان . فيلاحظ أنه ليس فى هذا الوصف أية اشارة لفتاة تلقى فى النيل .

(٧) كان من الأساطير الفاشية اذ ذاك أن الآلهة يمكن التسلط عليها بالوعود المزوقة ولو كانت مما لا يمكن تحقيقه ، وأن الآلهة تنخدع بهذه الوعود فتجيب صاحبها الى ما يطلبه منها . فالمراد بقوله « ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب » أن الشاعر يزف الى النيل كلمات مزوقة لكى يفيض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

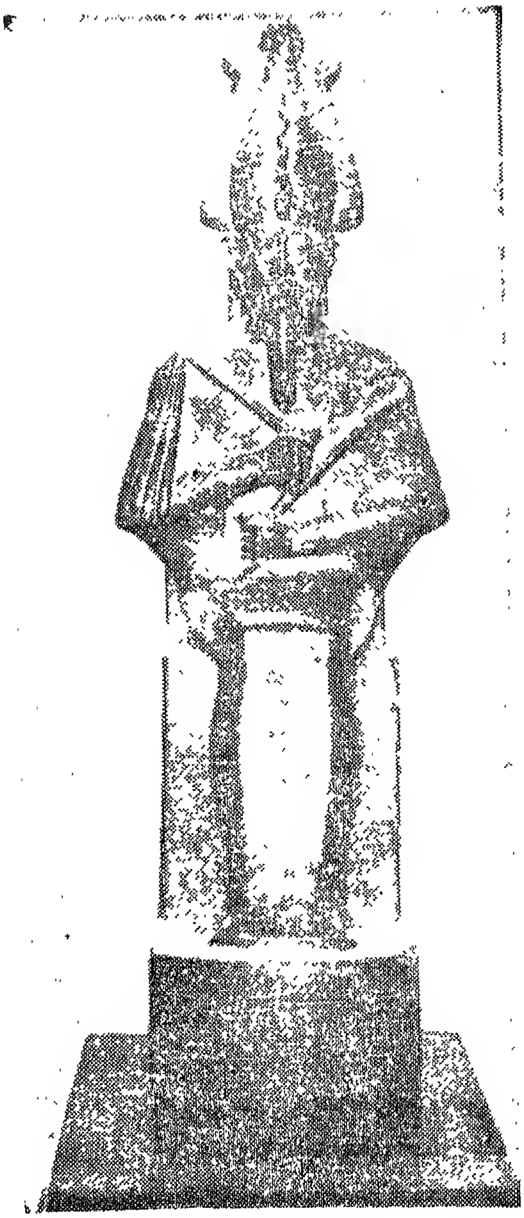

تمثال أوزريس
اله الخير والخصب

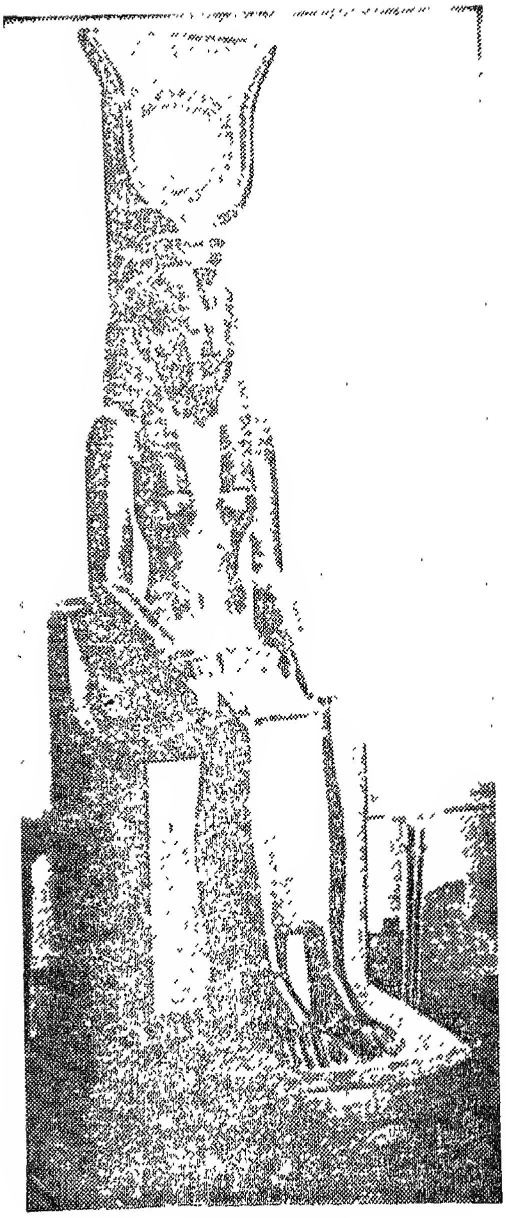

تمثال ايزيس
أخت أوزريس وزوجه

« إنه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال » .

وقد عرضنا هنا للحفلات الدينية التي كانت تقام للنيل ، فنذكر واحدة منها تمس موضوعنا هذا ، وهي التي كانت تقام كل سنة في موعد معين لأجل دعوة النيل إلى الفيضان .

كانت هذه الحفلة تقام في منطقة جبل السلسلة (بين الأقصر وأسوان) . وكان يحضرها الملك في كثير من الأحيان ، فاذا لم يستطع حضرها مندوب عنه . وقد وجدت ثلاث لوحات واحدة لرمسيس الثاني ، والثانية لمرنفتاح ، والثالثة لرمسيس الثالث . وفي كل واحدة وصف واسع لهذه الحفلة ، وأن الملك حضرها بنفسه . وفي هذا الوصف انه كان يذبح على سبيل القربان للنيل عجل أبيض وأوز وطيور أخرى ثم كان يلقى فيه قرطاس من البردي يدعى فيه النيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى أن يفيض . وهذا القرطاس هو كل ما كان يلقى فيه . وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التى فيه قوة سحرية .

فهذه كما رأيت ثلاث لوحات مختلفة ، لثلاثة ملوك مختلفين ، فى عصور مختلفة ، وصفت كل منها الحفلة التى كانت تقام لدعوة النيل إلى الفيضان . وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب ان تقدم فى هذه الحفلة . ولكن واحدة من اللوحات الثلاث لم تشر إلى شىء يسمى عروسا تلقى أو لاتلقى، وإنما أشارت إلى القرطاس من البردى . ومن البديهى ان إلقاء عروس اهم بكثير من ذبح عجل وأوز وإلقاء قرطاس ، فاشارة اللوحات إلى هذه الأشياء وسكوتها عن شىء يسمى عروسا قاطع فى الدلالة على انه لم تكن هناك عروس .

على ان كلمة « عروس النيل » ليست اختراعا محضا ، بل هى كلما كان المصريون يقولونها ويريدون منها « أرض مصر » ، وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه . ولا يبعد أن يكون هذا المعنى المجازى هو الذى ادى مع الزمن إلى توهم ان هناك عروسا كانت تلقى .

هذا هو التمحيص التاريخى يثبت أن لا وجود لعروس كانت تلقى فى النيل ، فاذا نحن تركنا هذا التمحيص جانبا ، وانتقلنا إلى التمحيص العقلى وجدناه يدل على أن رواية ابن عبد الحكم لا تستقيم ولا يمكن أن تقبل . أفلا تراه يقول إن النيل بقى « لا يجرى قليلا ولا كثيرا ثلاثة اشهر هى بؤنة وأبيب ومسرى » فهل يمكن ان يبقى فى مصر أثر الحياة إذا جف ماء النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة اشهر متوالية ؟ وهل من المعقول ان يجرى النيل بعد ذلك دفعة واحدة ، وفى ليلة واحدة ، على أثر إلقاء البطاقة ، ستة عشر ذراعا بعد أن كان جافا لا يجرى قليلا ولا كثيرا ؟

وقد فات ابن عبد الحكم أنه جعل قصته هذه فى عهد عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وان مصر فى ذلك العهد كانت مسيحية ولم يكن قد بقى فيها شىء من الوثنية ، بل لقد كان الرومان طاردوا الوثنية وكهنتها وانصارها حتى انقرضت اللغة المصرية . وكان قد مضى على هذا كله بضع مئات من السنين . وقد تحمس المصريون للمسيحية حينما اعتنقوها حتى كان منهم « الشهداء » الذين يعرفهم التاريخ . فاذا قيل — والقول غير صحيح — إن العقيدة الوثنية كانت تبيح تقديم عروس للنيل ، فكيف يمكن أن يقال إن العقيدة المسيحية والحكومة المسيحية أقرتا تقديم هذه العروس ؟

لا شك فى ان القصة مخترعة وان ابن عبد الحكم لم يزنها حينما رواها .

* * *

فانت ترى مما تقدم ان الخرافات المختلقة على مصر القديمة كثيرة ، وان الأسباب التى دعت إلى اختلاقها كثيرة ايضا ، وإذن لم تقم المدنية المصرية على هذه الخرافات التى لم يكن لها وجود ، كلا ، ولم تقم على الآراء التى كان المصريون يعتقدونها والتى يظهر لنا الآن أنها فاسدة ، وإنما قامت على أسس علمية وخلقية سليمة ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وان تخطو بالانسان إلى الأمام .

فاذا تيسر لكتابى هذا ان يساهم ، ولو بنصيب ضئيل ، فى جلاء هذه الحقيقة ، فذلك ما اغتبط به ، وهو كل ما أبغى .

مارس سنة ١٩٤٠

عبد القادر حمزة

المدنية المصرية
هل نبتت في مصر؟ أو طرأت عليها من الكلدان؟

كان الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م أن المدنية المصرية تبتدىء فجأة بالأسرة الأولى التى أسسها الملك منا ، أو قبلها بقليل . وكانوا يقولون إن هذه المدنية بدات فجأة لأنها لم تترب فى مصر بل طرات عليها مع وافدين غزوها غزوا حربيا أو سلميا ، فعلموها الكتابة وصناعة المعادن وتشييد المبانى وادخلوا إليها دياناتهم ، وكانوا هم الذين اقاموا فيها نظام الحكم على النحو الذى عرف عن الفراعنة . ومن نسل هؤلاء الغزاة كان الملك منا وخلفاؤه (١) .

وتساءل العلماء : من تكون هؤلاء الغزاة ؟ فلم يختلفوا كثيرا ، بل قالوا إنهم من الجنس السامى ، ومن أمة الكلدان .

وتساءل العلماء بعد ذلك : أى طريق سلك هؤلاء الغزاة ؟ فاختلفوا لأن جماعة منهم قالوا : إن الطريق بلاد اليمن فالبحر الأحمر فالصومال فالنوبة فمصر العليا ، بينما جماعة آخرون قالوا : إن الطريق فلسطين فصحراء سيناء فدلتا مصر . فالأولون رأوا أن مصر غزيت من الجنوب إلى الشمال ، والآخرون رأوا انها غزيت من الشمال إلى الجنوب . ولكل من الفريقين ادلة لاندخل هنا فيها .

ولكننا إذ ندع هذه الأدلة على غزو مصر من الشمال أو غزوها من الجنوب لا يسعنا إلا ان نشير بايجاز إلى أهم الأدلة التى كان العلماء يستندون اليها ، والتى مازال بعضهم يستند اليها ، ليقولوا إن غزاة من الكلدان غزوا مصر فكانوا هم الذين جلبوا لها المدنية واسسوا فيها الأسرة الأولى .

فالدليل الاول استعمال معدن النحاس فى صناعة السكاكين والدبابيس والمسامير ورؤوس الحراب ، واستعمال الذهب فى الأسلحة والحلى وغيرها . وقد قال أصحاب هذا الدليل إن النحاس والذهب لم يستعملا فى مصر إلا فى عصر ما قبل الأسر بقليل ، وكان استعمالهما فيها فجأة ، وهذا يفسر انتقال المصريين فجأة من حالة إلى حالة . ولم يذكر أصحاب هذا الرأى الحديد لأنه دخل مصر فى عصر الأسر .

والدليل الثانى استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على نحو شبيه بالذى تستخدم به فى اللغات السامية، ثم شيوع كتابة أسماء الرؤساء والملوك داخل إطارات مستطيلة ، تسمى الآن « خراطيش » ، قبيل عصر الأسر ثم فى عصر الأسر . وهذه العادة كانت توجد عند الكلدان فى ذلك الوقت نفسه .

والدليل الثالث أن المبانى التى وجدت لملوك الأسر الأولى فى نقادة ، وبخاصة للملك « عحا » ذات واجهات مزينة بأشكال مخروطية خارجة وداخلة . وهذا النوع من البناء له شبيه فى مبانى الملوك فى الكلدان .

والدليل الرابع أنه وجدت على بعض الأوانى المخلفة عن عصرما قبل الأسر رسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة (انظر الوجه الثانى من لوحة نعرمر) . وقد وجد مثل هذا النوع من الزخرفة على بعض الأوانى فى الكلدان .

والدليل الخامس وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون .

تلك هى الأدلة ، وقد ذكرناها لأننا سنعود إليها

---

(١) لولا أن جماعة من كبار العلماء هم الذين رفعوا ومازالوا يرفعون الى اليوم راية هذا الرأى لما عنينا هنا عناية خاصة بشرحه وتفنيده . فمن العلماء السابقين الذين قالوا به ماريت باشا وماسبيرو ولبسيوس ونافيل وشوينفورت ومورجان . ومن العلماء الذين ما زالوا يقولون به فلندرز بيترى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيما بعد لتثبت أنهـا واهية لايمكن أن يبنى عليهـا افتراض حادث تاريخى جسيم ، كغزو الكلدانيين مصر ونقلهم المدنية إليها .

***

كان هذا إذن هو الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م ، وكانوا لهذا يقولون إن مصر لم تعرف العصر الحجرى (١) بالترتيب الذى عرفته به امم أوربا ، بل كانوا يقولون إن من العبث البحث فيها عن عصـور ما قبـل التاريخ . ففى تلك السنة دعـا الخديو اسماعيل ملوك أوربا وعلماءها للاحتفـال بافتتـاح قنـاة السـويس ، وكان من بينهـم العالم الجيولوجى أرسلين (٢) ، فجاب مصر صعودا وهبوطا فاستوقفت نظره أدوات من الحجارة وجدها بالقرب من منطقة الأهرام تشبه الأدوات الحجـرية التى وجدت فى أوربا ، ثم لما بحث فى الأقصر وجـد فى وادى الملوك أدوات وأسلحة حجرية مصقولة .

وبعد ذلك بسنتين وجد العالمان هامى (٣) ولينرمان (٤) فى الأقصر مجموعة اخرى من الأدوات والاسلحـة الحجرية المصقولة وغير المصقولة .

وعندئذ فتح أمـام المجمع العلمى المصرى (٥) باب البحث فى هل العصر الحجرى يوجـد فى مصر كمـا يوجد فى أوربا أو لا ، فرفض العلماء المصرولوجيون أن يقولوا بوجوده ، ومنهم ثلاثة كانوا فى ذلك الوقت من زعماء المصرولوجيا وهم ماريبت باشا (٦) ولبسيوس (٧) وشاباس (٨) فانهزم القائلون بوجود العصر الحجرى .

وكانت اعظم حجـة لهؤلاء الرافضـين أن الأدوات والأسلحة الحجرية توجد فى بعـض قبـور الدولة القديمـة ، اى فى الوقت الذى كان المصريون فيـه يصنعون المعادن صناعة راقية . فالعصر الحجرى مختلط عندهم إذن بعصر المعادن ولا يمكن فصـل احدهما من الآخر .

قالوا : وسبب هذا أن المدنية طرأت على مصر فجأة من الخارج بينما كان اهلها لايزالون فى الحالة البدائية ، وبذلك اختلطت عندهم المدنية بالبدائية ، وكان الأثر الملموس لهذا وجود الاسلحة والادوات الحجرية فى قبور الدولة القديمة ، إلى جانب الأسلحة والأدوات المعدنية .

وكانت هذه الهزيمة قاسية ولكنها لم تثن من همة الباحثين عن العصر الحجـرى فى مصر ، فتوالت بحوثهم ، وتوالت معها كشوفهم . ولا نستطيع هنا أن نخوض فى هذه وتلك لأن للخوض فيها كتبا خاصة ، فيكفينا أن نقول إن البحوث والكشوف استمرت بغير انقطاع ، وانها مازالت مستمرة الى الآن . وقد ساهم فيها كثير من كبار العلماء ، نذكر منهم ديلانو (٩) فى سنة ١٨٧٢ وكان محل بحثه إسنا واسوان ، والدكتور ريل (١٠) فى السنة نفسها وكان محل بحثـه حلوان ، والسير جون لوبوك (١١) فى سنة ١٨٧٣ ، والدكتور شوينفورت (١٢) البحالة النمساوى الذى استمر بدرس ارض مصر واعالى النيل نحو اربعين سنة ، وفلندرز بترى (١٣) وجاك دى مورجان (١٤) فى سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ وإليه وإلى مساعديه ليجرين (١٥) ودارسى (١٦) وجيكيير (١٧) الذين كانوا موظفين تحت رياسته فى مصلحة الآثار المصرية يرجع كثير من الفضل فى تأييد الراى القائل

---

(١) العصر الحجرى هو العصر الذى كانت فيه ادوات الانسان واسلحته من الحجر . وهو ينقسم الى عصرين كبيرين : احدهمـا عصر الحجر غير المصقول ، والثانى عصر الحجر المصقول . وذلك أن الانسان حينما بدأ يتخذ من الحجر ادواته واسلحته لم يكن يعرف كيف يصقلها ، ثم جاء عصر استطاع فيه صقلها ، وبعد ذلك بدأ ينتقل الى عصر استعمال المـادن . فباستعمـال المعـادن ، ولا سيما النحاس والذهب والبرنز ، يبـدأ العصر التـاريخى لان الانسان بدأ فيه يكتب ويقيم المبانى التى تحدثنا الآن آثارها الباقية بأخباره .

والعصور السابقة على استعمال المعادن تسـمى كلها عصـور ما قبل التاريخ .

(٢) (Arcelin) (٣) (Hamy)

(٤) (Lenormant) (٥) (Institut Egyptien)

(٦) (Mariette Pacha) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية .

(٧) (Lepsius) وهو من كبار المصرولوجيين الالمانيين .

(٨) (Chabas) وهو من خلفاء شامبوليون الشاب فى خدمة المصرولوجية .

(٩) (Delanoue) (١٠) (Dr. Reil)

(١١) (Sir J. Lubbock) (١٢) (Schweinfurth)

(١٣) (Flinders Petrie) وهو من المصرولوجيين الانجليز المعروفين فى العصر الحاضر (وقت ظهور الطبعة الاولى عام ١٩٤٠) .

(١٤) (J. de Morgan) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية

(١٥) (Legrain) (١٦) (Daressy) (١٧) (Jequier)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحة نعرمر (الوجه الاول)

هذه اللوحة مصنوعة من حجر الشيست . وهذا أحد وجهيها. ويرى بعض العلماء (ومنهم برستيد) أن الملك نعرمر واحد من ملوك الاسرة الاولى، ويرى الآخرون (ومنهم مورى) أنه سابق عليها.

وفى هذا الوجه من اللوحة يرى فى وسط الخانة العليا اسم الملك . وفى الخانة التى تليها يرى الملك قابضا بيده اليسرى على شعر رأس أسير جاث امامه من اهالى الاقليم السابع من اقاليم الوجه البحرى . ويحمل الملك فى يده اليمنى مضربا يهم بأن يضرب به هذا الاسير . وامامه الصقر آتيا اليه واحدى قدميه تقبض بمخلبها على رأس أسير أسيوى . ومن فوق هذا الأسير ستة سيقان من النبات كل واحدة منها تمثل ألف أسير . فالمجموع ستة آلاف أسير

وكان الصقر معبود مدينة الكاب التى كانت عاصمة للملوك الحوريين أتباع حوريس .

والملك يضع على رأسه التاج الأبيض ، تاج الوجه القبلى .

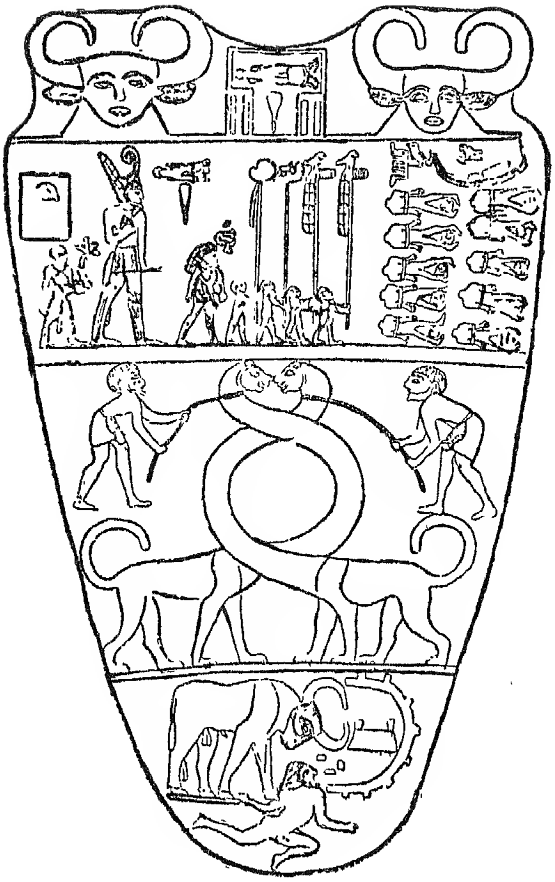

لوحة نعرمر (الوجه الثانى)

فى هذا الوجه من اللوحة يرى فى الخانة العليا اسم الملك كما هو فى الوجه الاول .

ويرى فى الخانة الثانية الملك لابسا التاج الاحمر ، تاج الوجه البحرى ، وهو يسير وأمامه رجال يحملون اربع شارات هى من شارات الحوريين . ثم عشرة أجسام قطعت رؤوسها ووضعت بين اقدامها .

فمعنى ذلك أن الملك ذاهب الى احتفال قطعت أو ستقطع فيه رؤوس الاسرى .

وفى الخانة الثالثة رسم حيوانين خرافيين لهما عنقان طويلان . وهذا النوع من الرسم هو الذى يقول بعض العلماء انه منقول من الكلدان .

وفى الخانة الرابعة ملك فى شكل ثور كبير يهدم برأسه حصنا ويدوس بقدمه أسيرا اسيويا ، اى شعبا أسيويا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوجود العصر الحجرى فى مصر (١) . ثم أميلينو (٢) سنة ١٨٩٥ وسنين تالية . ثم العالم الأمريكى برستيد (٣) الذى توفى منذ ثلاث سنوات . ثم العالم البلجيكى كابار (٤) ، وهو الآن رئيس المعهد الأثرى المصرى فى بروكسل .

ويطيب لنا هنا أن نذكر أن بعض المصريين اشتغلوا بهذا البحث وانصرفوا إليه انصرافا علميا صحيحا فحصلوا فيه على نتائج قدرها لهم العلماء . ومن هؤلاء المصريين الامير (السابق) كمال الدين حسين وكان أكثر بحوثه فى الواحات والصحراء . ثم المغفور له أمين العمرى وقد كشف منذ بضع سنوات فى شمالى حلوان عن قرية كاملة من قرى العصر الحجرى ثم توفى بعد كشفها بقليل فسماها العلماء باسمه اعترافا بفضله . ثم الأستاذ مصطفى عامر وهو يعمل الآن لحساب الجامعة المصرية فى منطقة المعادى وقد كشف هو أيضا عن قرية من قرى العصر الحجرى .

وهذه الأسماء وحدها — ونحن لم نذكر غير البارز منها — تدل على مقدار الجهود التى اتجهت إلى البحث فى عصور ماقبل التاريخ فى مصر ، وقد ادت كلها إلى نتيجة واحدة لم يبق الآن شك فيها ، وهى أن عصور ماقبل التاريخ توجد فى مصر كما توجد فى أوربا ، وبالترتيب نفسه . ففيها عصر الحجر غير المصقول بأقسامه الفرعية ، وفيها عصر الحجر المصقول بأقسامه الفرعية أيضا ، وفيها أخيرا عصر الانتقال رويدا رويدا من الحجر المصقول إلى المعدن .

ولكن هناك مع ذلك فارقا بين المصرى والأوربى فى العصر الحجرى ، أو بعبارة اصح بين المصرى وغيره من جميع أمم العالم . وهذا الفارق هو أن المصرى اجتاز عصور الحجر بسرعة بينما الأمم الأخرى تأخرت فلم تخرج منها إلا بعد المصرى بأزمنة تتفاوت بتفاوت استعداد كل منها ، فهى عند البعض مئات وعند البعض الآخر ألوف من السنين .

(١) من أعجب ما يقال هنا أن اثبات وجود العصر الحجرى فى مصر كان من الأدلة القوية التى هدمت نظرية طروء المدنية على مصر بواسطة غزاة من الكلدان ، ومع ذلك كان جاك دى مورجان من القائلين بها وقال بها أيضا فلندرز بترى .

(٢) (Amelineau) (٣) (J. H. Breasted)

(٤) (J. Capart)

والشعب الوحيد الذى يشترك مع الشعب المصرى فى هذه الميزة هو الشعب الكلدانى ، لأن الطبيعة هيأت له من الأسباب فى وادى دجلة والفرات مثل ماهيأته للشعب المصرى فى وادى النيل (٥) . وإنما الذى يجب أن نسجله هنا هو أن وجود العصور الحجرية فى مصر هدم جانبا من النظرية القائلة بأن المدنية المصرية ليس لها جذور قديمة فى مصر ، وانها طرأت على يد غزاة من الكلدان غزوا مصر غزوا حربيا أو سلميا .

* * *

إذن توجد فى أرض مصر مخلفات لعصور ماقبل التاريخ ، وإذن يستطيع العلم أن يرشد إلى الحالة التى كانت عليها مصر وكان عليها سكانها منذ اقدم هذه العصور ، فيحسن أن نقول فى هذا كلمة .

قال العلماء : إن الانسان انتشر فى عدة نقط فى اوربا وأفريقيا وآسيا فى عصر واحد تقريبا . ولكن الأرض التى كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيها إذ ذاك تجعلها أصلح للحياة من غيرها هى أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) . ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لاتزال على الحالة البدائية .

والمراد بصلاحية ارض وادى النيل وأرض مابين النهرين للحياة أكثر من غيرهما ، أن أوربا وآسيا كانتا فى ذلك الوقت تهاجمهما سيول من الثلج تلجىء الانسان فيهما إلى أن يعيش فى مغارات الجبال وتمنعه من أن يفارق الحالة الوحشية . ويقال إن عدد السيول التى هاجمت أوربا أربعة ، وإن مدتها تستغرق الوفا من السنين . وكانت الأرض الوحيدة التى انقطعت منها هذه السيول هى الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فى افريقيا وآسيا .

ولكن هذه الأرض لم تكن كلها فى مستوى واحد من حيث الصلاحية للحياة بل كانت فيها بلاد تمتاز

(٥) دلت كشوف حديثة على أن هناك واديا ثالثا اشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة وفى نتائجها ، وهذا الوادى هو وادى نهر الهندوس فى الهند . ويرى كثير من العلماء أن الكلدانيين الذين أنشأوا أول حضارة فى الكلدان كانوا من اهل هذا الوادى الهندى نزحوا الى دجلة والفرات وهم السومريون المعروفون فى تاريخ الكلدان .

على بلاد . ومن هذه البلاد الممتازة وادى النيل ووادى ما بين النهرين .

قال العلماء أيضا : وكان الوجه البحرى كله غير موجود ، وكانت مياه البحر المتوسط تضرب فى جبل المقطم حيث توجد القاهرة الآن . وكانت الأمطار غزيرة فى صحراء أفريقيا الكبرى ، فكانت تجرى فى هذه الصحراء أنهار ، وكانت أرضها تزدحم بالغابات والأشجار والحيوانات ، وحدث بعد ذلك تحول فى الأمطار فجعلت تقل شيئا فشيئا فى الصحراء وتزداد شيئا فشيئا فى وسط افريقيا ، وحينئذ بدأ نهر النيل يوجد ويشق طريقا له من أواسط افريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولما جرى النيل أخذت جموع من الانسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، ولكن من المباحث التى بحثها شوينفرت أنه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا فى بعض النقط و ٣٠ مترا فى بعضها الآخر ، فوجد أوانى من الفخار وقوالب من الطوب ، ووجد على مثل هذا العمق بالقرب من دمياط جمجمة إنسان . ولما كانت طبقة الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة معروفة على وجه التقريب ، فقد حسب برستيد فوجد أن الانسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأوانى والقوالب يرجع الى ١٦ الف سنة مضت . ولا يزال باب البحث فى هذا الموضوع مفتوحا ، ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل .

ومر إنسان وادى النيل بالعصر الحجرى ، فكانت أسلحته التى يقاتل بها ويصطاد الحيوانات ، من الحجر غير المصقول ، ثم تقدمت فصارت من الحجر المصقول . وفى هذا العصر الأخير يشهد العلماء جميعا بأن تقدم الانسان فى مصر كان سريعا ، وكان يفوق مثله فى أوربا . فآلات الانسان فى مصر وأسلحته وأدواته تشبه آلات الانسان فى أوربا وأسلحته وأدواته ، ولكنها أتقن منها صقلا وأحسن صنعا . وفى هذا الوقت عرف الانسان فى مصر كيف يصنع الفخار الأحمر والأسود ، وكيف يصنع منهما أوانى ، ثم استطاع أن يزين هذه الأوانى برسوم السفن والحيوانات والنباتات .

وفى هذا يقول مورى (١) فى صفحة ١٤٠ من كتابه (Des Clans Aux Empires)

«لم تجد الطبيعة فى ذلك الوقت على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع انسانى كما جادت على مصر . ولهذا لا توجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هى فى إتقان الصناعة التى توجد من هذا النوع فى مصر . على أنه لم يوجد فى ما بين النهرين ، ولا فى سوريا أى أثر للانسان سابق على ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ما خلا نقطا قليلة فى فلسطين لم يحدد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول . وفى هذا الوقت أى فى حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد نرى المصريين يدخلون فى العصر التاريخى من عصور المدنية » (٢) .

ويقول برستيد فى الجزء الأول من كتابه (A History of Egypt) فى الصفحة ٢٩ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى بروكسل سنة ١٩٢٦ :

« أن الأسلحة والأدوات التى وجدت فى مصر من الحجر الصوان ، أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التى وجدت من هذا النوع فى جميع بلاد العالم » .

---

(١) الاستاذ (A. Moret) كان الرئيس الشرفى لمتحف (Guimet) فى باريس ومدير مدرسة الدراسات العليا فيها . وهو من كبار المصرولوجيين فى العصر الحاضر وله فيها مؤلفات عدة . وقد توفى منذ سنتين (مفهوم أنه منذ سنتين من صدور الطبعة الأولى) .

(٢) هذا شاهد من الشواهد التى تهدم نظرية القائلين بأن المدنية طرأت على مصر فجأة على يد غزاة من الكلدان . ولهذا يستمر الاستاذ مورى فى كلمته تلك فيقول :

« يحسن اذن أن نعزو الى عبقرية سكان مصر الاولين ، والى الخصائص الاستثنائية التى توافرت فى وادى النيل ، تقدم هؤلاء المصريين المبكر . وليس هناك دليل على أن هذا التقدم راجع الى غزاة أجانب كانوا قد نالوا من المدنية أكثر مما ناله المصريون . فان وجود هؤلاء الاجانب ، أو على الاقل وجود مدنيتهم ، أمر يحتاج الى اثبات » .

ونقول بعد ذلك ان الاستاذ مورى كان من الذين جروا مع نظرية الغزاة الكلدانيين ولكنه عدل عنها فى مؤلفاته الاخيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول جوستاف جيكيير (١) :

« وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى عصر الحجر المصقول فى مصر حدا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى اى بلد آخر . وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا » .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر سكاكين ذات حدين كل منهما يماثل الاخر ، وأساور ، ورؤوس سهام ، كلها من الحجر الصوان . ويشهد مورجان أنها « ليست ادوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة ايضا ، تفوق جميع ما خلفه الانسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى » (٢) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام عليها رسوم مختلفة . ويرى مورجان(٣)أن وجود هذه الأشياء مضافا إليه الرسوم التى وجدت على الألواح العظمية يدلان على أن المصرى إذ ذاك لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل من لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر أيضا ، هو اقتناص مايمكن استخدامه منها كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار .

ووجدت مع هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح . ووجدت أسلحة محاريث مصنوعة من الحجر الصوان (٤) . فدلت هذه وتلك على أن المصرى فى عصر الحجر المصقول عرف الزراعة واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الوحشية (٥) .

وهنا لا يفوتنا أن نقول إن نباتات الشعير والذرة والقمح لم يجدها الانسان اول الامر كما هى الآن ، بل

(١) (Gustave Jequier) ص ٥٧ من كتابه :
(Histoire de la Civilisation Egyptienne)
المطبوع فى باريس فى سنة ١٩٣٠ ، والاستاذ هو الآن مدرس علم المصرولوجيا فى جامعة نوشاتل فى فرنسا .

(٢) (J. de Morgan) فى كتابه :
(L'Humanité Préhistorique)

(٣) المصدر السابق من ص ٩٦ الى ص ١٠٠

(٤) سلاح المحراث هو الجزء الامامى منه الذى يشق الأرض .

(٥) كتاب (J. de Morgan) الذى مر ذكره ــ الفصل الثانى من الجزء الثانى .

وجدها نباتات وحشية فأخذ يعالجها قرونا وقرونا حتى استخلص منها الأنواع الصالحة لغذائه . ويرى كثير من العلماء أن الأدلة كافية على أن الانسان فى مصر هو أول من استخلص ــ على الأقل ــ القمح المعروف الآن ، من القمح الوحشى .

وقد قال شوينفورت الذى تقدم ذكره : إن القمح الوحشى يوجد الآن فى بعض المناطق المرتفعة فى فلسطين وإيران . وعنده أن هذا دليل على أن المدنية المصرية دخلت مصر على يد غزاة من الكلدان كانوا هم الذين حملوا إليها نبات القمح . ولكن برستيد يخالفه فى هذا ويقول : إن نبات القمح الوحشى وجد فى وادى النيل كما وجد ولا يزال يوجد فى بلاد أخرى . فوجوده فى فلسطين وإيران ليس دليلا على أن المصريين لم يستخلصوا منه نبات القمح المعروف (٥) .

وتلا هذا أن اخترع الانسان فى مصر الكتابة(٦) وتدل إشاراتها ورموزها على أنها ولدت فى مصر خطوة فخطوة ، وترقت فيها خطوة فخطوة . فهى اختراع مصرى محض . ولم يصل هذا الاختراع إلى اللغة التى كانت معروفة فى عهد الملك « منا » إلا بعد مئات ومئات من السنين . وبالكتابة يبدأ العصر التاريخى .

* * *

وقد قلنا فيما تقدم إن النيل جمع سكان مصر الأولين حوله ، فهنا نقول إنه لم يجمعهم حوله فقط ، بل رباهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية . وذلك أن أولئك السكان رأوا النيل يفيض فى وقت معين من السنة فيغرق مساكنهم ويلجئهم إلى الهرب منه إلى مناطق بعيدة عن الغرق ، ثم ينسحب ويقل خطره فيعودون إلى حيث كانوا لأنهم لايستطيعون أن يعيشوا بعيدا عنه . فقادهم ذلك إلى إقامة حواجز بينهم وبينه ثم إلى تقوية جسوره .

وعندما ينسحب النيل يترك الأرض التى ينحسر

(٥) كتاب (The Origins of Civilisation) الماد طبعه فى سنة ١٩١٩ ص ٣١٦ .

(٦) أكثر العلماء على أن الكتابة المصرية هى التى عمد الفينيقيون اليها فاختزلوا اشاراتها واستخلصوا منها الحروف الفينيقية . ومعروف أن هذه الحروف هى الاصل فى الحروف الاوربية .

عنهامكسوة بالطمى صالحة للزراعة . ولكن الزراعة تحتاج إلى محاريث لشق الأرض ، وإلى قنوات يجرى الماء فيها ، وإلى آلات للرى ، فصنع المصرى المحاريث من الحجر الصوان وجرها بنفسه فى مبدأ الأمر ثم جرتها الحيوانات المستأنسة . وفى الوقت نفسه شقت القنوات وجرى فيها الماء .

وكان سكان مصر يعيشون قبل الزراعة على صيد الحيوانات والأسماك ، ثم على الحشائش والنباتات المتوحشة وثمار الأشجار ونباتات البردى واللوتس التى كانت تنبت فى المستنقعات . فلما عرفوا الزراعة وألفوا التغذى بمحصولاتها أدى بهم ذلك ، بعد تجارب استمرت قرونا وقرونا ، إلى استخلاص القمح والذرة والشعير من النباتات الوحشية .

وكان من الضرورى لهم فى حالتهم هذه الجديدة استخدام بعض الحيوانات فاستخدموا الحمار والخروف والثور .

وكان خطر الغرق لاينفك يهددهم كل سنة ، وكان شره لايقتصر على جماعة منهم دون جماعة ، فقادهم ذلك إلى أن يتعاونوا على دفعه وتنظيم مجرى النيل .

وابتدأ هذا التعاون أول الأمر فى حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش فى منطقة واحدة ، ثم امتد من منطقة إلى أخرى . ودعا هذا إلى أن تكون هناك سلطة تنظم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة ثم بين المناطق المتجاورة ، فوجدت الحكومات الاقليمية ، ثم الحكومة الواحدة فى بضعة أقاليم ، ثم الحكومة الواحدة فى كل من الوجه البحرى والوجه القبلى ، ثم الحكومة الواحدة فى الوجهين معا ، وصارت مصر بلادا واحدة ومملكة واحدة .

فالنيل على هذا هو الذى علم سكان مصر الأولين تكوين الجماعات ، وبث فيهم روح التعاون ، فنقلهم من حالة الرجل الهائم على وجهه العائش مع الحيوانات وبين الغابات ، إلى حالة الرجل العائش فى وسط الجماعة من أمثاله ، المتعاون معهم ، الخاضع لسلطة حاكمة منظمة .

والنيل هو الذى علم المصريين الزراعة ، حينما كان غيرهم لايزال يعيش على النباتات الوحشية ، وعلى صيد الحيوانات (١) . وهذا الانتقال من المعيشة على صيد الحيوانات وعلى النباتات الوحشية إلى المعيشة على الزراعة ، هو خطوة كبيرة فى تاريخ المدنية فى العالم . وهو الأساس الأول فى وجود المدنية المصرية .

وبهذا يعترف مورى فيقول إن المجهودات العجيبة المنظمة التى بذلها المصرى فى هاتيك القرون « هى التى هيأت للمدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الارض » (٢) .

ونحن نضيف إلى ذلك أن النيل هو الذى قاد المصرى فى مجهوداته هذه وغذاه بالعناصر الأساسية للمدنية ، فالمدنية على هذا لم تطرأ على مصر من الخارج ، بل هى بنت النيل ، بنت مصر .

* * *

والآن نظن أن الحقائق العلمية التى مرت هدمت جانبا كبيرا من الفكرة القائلة بطروء المدنية على مصر مع غزاة من الكلدان ، ودلت على أن هذه المدنية نشأت فى مصر ، وخطت فيها خطواتها واحدة بعد أخرى ، من العصر الحجرى إلى عصر التاريخ . وظاهر أن على الذين يقولون بالغزو أن يقدموا دليلا تاريخيا ، وإلا كانوا يبنون قولهم على قرائن هى أدخل فى باب الأمور الفرضية منها فى باب الحقائق العلمية . والدليل التاريخى الوحيد الذى يلجأون إليه هو — كما تقدم — وجود قصة منقوشة على معبد ادفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بأن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون . هذا هو دليلهم التاريخى الوحيد ، ومن الذين يقيمون له وزنا كبيرا ماسبيرو وأحمد كمال باشا (٣) . ولكن هذا

---

(١) يرى بيرى (M. Perry) فى صفحة ٣٠ من كتابه : (The Growth of Civilization)

ان مصر هى المهد الاول للزراعة لا ، فيضان النيل وطميه المخصب كانا كافيين لانبات البذور التى تلقى على الارض من غير أى عمل يعمله الانسان .

قال : « ولقد كان يكفى حينئذ أن يوجد العبقرى الذى يشق قنوات تجرى فيها مياه النيل لكى تنتشر هذه وتنتشر معها الزراعة فى سطح أوسع » .

(٢) كتاب (Des Clans Aux Empires) ص ١٤٥ .

(٣) كتاب « الحضارة القديمة » من ص ٣٣ الى ص ٥٢ . ولكن كمال باشا يقول ان اتباع حوريس هم قوم وفدوا من جنوب بلاد العرب ولا يذكر الكلدان . ولا نعرف نحن أية مدنية كانت فى جنوب بلاد العرب فى العصر الحجرى فنقلها أصحابها الى مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدليلَ يسقط بقليل من التأمل ، لأن كل مافيه ــ إذا أخذ على علاته وسيأتى أنه معلول ــ هو أن أتباع حوريس وفدوا على مصر من جنوبها ، وجنوب مصر قد يكون بلاد النوبة ، أو قد يكون أعالى النيل ، كما قد يكون إقليما من الأقاليم المصرية الجنوبية مثل وادى حلفا او اسوان ، ولكنه لايمكن أن يكون بلاد الكلدان ولا بلاد اليمن .

ثم إن قصة اتباع حوريس مطعون فى قيمتها التاريخية لأنهالم تنقش علىمعبد إدفو فى العصر الأول من عصور المدنية المصرية ليمكن أن يقال إنها ترديد لحادث تاريخى وقع قبل عصر الأسر ، ثم لما جاء هذا العصر كان اثره لا يزال ماثلا فى الأذهان . بل نقشت القصة فى عصر البطالسة ، لأن المعبد نفسه بنى فى هذا العصر على انقاض معبد قديم ، فبين الوقت الذى نقشت فيه القصة والوقت الذى يعزى قبه إلى اتباع حوريس أنهم وفدوا على مصر اكثر من ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف على الأقل .

وقد يقال مع ذلك إن البطالسة حينما جددوا معبد إدفو نقشوا عليه تلك القصة نقلا عن المعبد القديم . وهذا غير بعيد ، ونحن لانجادل فيه ، وخاصة لأن كلمتى « اتباع حوريس » وردتا فى بعض نصوص الاهرام التى شيدت فى عهد الأسرة الخامسة . ولكن مورى (١) اثبت أن حوريس المعنى بهذه القصة ليس حوريس إدفو القديم وإنما هو حوريس بن إيزيس ، وهما معبودان مختلفان . ونصوص القصة تدل على ذلك دلالة صريحة . وهذه القصة تذكر حوريس على انه لقب ملكى ، وعلى أنه مندمج مع رع ، لا على انه معبود وكفى . وحوريس لم يصر كذلك إلا فى نهاية الأسرة الثانية . وإذن ليس المعنى بالقصة حوريس إدفو الذى لا مجال للشك فى وجوده قبل وجود الأسر ، وإنما المعنى حوريس آخر ، هو حوريس بن إيزيس الذى خرجت قصته من الوجه البحرى وسرت عبادته إلى الوجه القبلى ، ثم اندمجت فى عبادة رع ، وصار الملوك ــ منذ الأسرة الثانية ــ كلما ارتقوا العرش حملوا أسماء مشتقة من اسمه بجانب اسمائهم الأصلية .

وقال مورى إن السبب فى هذا الخطأ راجع إلى أن ماسبيرو أخطأ فى قراءته إحدى كلمات القصة،وهى كلمة (mesentiou) فذهب إلى أن المراد بها قبيلة كانت تسمى « قبيلة الحدادين » كانت تقيم فى أعالى النيل ، لأن الكلمة تؤدى هذا المعنى فى اللغة المصرية . ثم استنتج ماسبيرو منذلك أن هذه القبيلة هى التى وفدتعلى مصربقيادة حوريس . وقدارشد مورى إلى هذا الخطأ فأثبت الكلمة على صحتها وهى (mesenou) ، ومعناها « حملة الخطاطيف » ، أى أهل الاقليم السابع من أقاليم الدلتا ، وكانوا يلقبون بذلك لأنهم كانوا معروفين بصيد عجول البحر من البحيرات المجاورة لهم بالخطاطيف . ولهذا كان الخطاف رمزا قديما لاقليمهم . وإذن تكون القصة منصرفة إلى حوريس بن إيزيس ، وإلى زحفه من الوجه البحرى الذى نشأ فيه ، ثم إلى حروبه ضد سيت عدو أبيه أوزريس ، بعكس ما ذهب إليه ماسبيرو .

وغزو الوجه البحرى للوجه القبلى فى العصر الذى يسمى « عصر ماقبيل الأسر » ، وهو الذى سبق عصر الملك « منا » ببضع مئات من السنين ، صار الآن من الأمور التى يسلم بها أغلب العلماء ، ولهم على ذلك ادلة قوية لا محل هنا للافاضة فيها .

* * *

هذا هو الدليل التاريخى الوحيد ، أو الشبيه بالتاريخى ، قد انهدم من جميع نواحيه ، فبقيت الأدلة الأخرى وهى استعمال معدنى النحاس والذهب ، واستخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدمها به الشعوب السامية ، وشىء من الشبه بين المبانى فى عهد الأسرة الأولى والمبانى فى الكلدان ، وزخرفة بعض الأدوات برسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة ، واستعمال « الخرطوش » فى كتابة أسماء الملوك، فسنرد هنا على هذه الأدلة جملة وسنقف عندما يستحق الوقوف منها .

لم تكن مصر حين بدأت تباشير المدنية تظهر فيها ، منعزلة عن الأمم المجاورة لها ، بل كانت على صلات مستمرة بها ، تجارية وغير تجارية . فكانت معاملاتها لاتنقطع مع قبائل النوبة جنوبا والشعوب الليبية غربا

(١) كتاب (Le Nil et la Civilisation) ص ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و١٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبلاد الأسيوية شرقا وسكان جزائر البحر الأبيض شمالا . وكانت تأخذ من هذه الأمم المواد الأولية التى تنقصها وتعطيها مصنوعاتها ومنتجاتها . وكانت هذه الأمم نفسها نعرف أن مصر سبقتها فى الزراعة والصناعة والانساج ، وانها صارت بفضل الزراعة بلادا غنية تدر الخير على أهلها ، فكانت تلتمس عندها بعض هذا الخير من طريق المبادلات أو من طريق السطو على حدودها ونهب ماتصل اليه أيديها . ولم يحل دون هذا الاتصال ، وجود صحراء ليبيا وصحراء سيناء فى حدود مصر الغربية والشرقية ، كما لم يحل دونه وجود البحر الأبيض (١) فى حدودها الشمالية . وقد ظن بعض العلماء إلى زمن قريب ان وجود هاتين الصحراوين والبحر الأبيض جعل مصر تعيش فى عصر ما قبل الأسر منعزلة عن العالم ، كأنها فى صندوق مقفل ، إلى أن اتصلت بالأمم المجاورة لها فى عصر الأسر ، واخذت تفكر فى الغزو والفتوحات . وأصحاب هذا الرأى هم الذين يستغربون وجود شبه بين المبانى وزخرفة الأدوات فى مصر والمبانى وزخرفة الأدوات فى الكلدان . وهم كذلك الذين يستغربون استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدم به عند الشعوب السامية. ولا تفسير عندهم لهذا التشابه غير الذهاب الى بعيد ، والقول بأن قبائل كلدانية غزت مصر وعلمتها أسباب المدنية ، فى حين أن التفسير الصحيح هو اتصال مصر بجاراتها واتصال هذه الجارات بها ثم تأثر كل منهما بالأخرى . وقد أصبح هذا الاتصال الآن حقيقة مسلما بها لأن الأدلة المادية قامت عليه فلا حاجة لان نتوسع فيه .

وفى هذا الاتصال لابد أن تكون مصر قد نقلت أشياء عن الكلدان ، كما لابد ان تكون الكلدان قد نقلت أشياء عن مصر . وهذا النقل إما أن يكون بطريق مباشر ، وإما بواسطة القبائل السامية التى كانت هائمة إذ ذاك فى سوريا وفلسطين وكانت على علاقات دائمة بالبلدين معا ، أو بواسطة جزائر قبرص وورودس وكريت التى صار من الثابت الآن أنها كانت فى عصر ما قبل الأسر على صلات مستمرة بمصر من ناحية وبالكلدان من ناحية أخرى . أو ربما كان الأصح أن هذه العوامل كلها كانت تعمل معا فى سبيل النقل بين البلدين .

ولم تتصل مصر بالساميين والكلدانيين فقط ، بل اتصلت بالقبائل الأفريقية أيضا واخذت منها ، فظهر أثر لغاتها فى اللغة المصرية . وقد عرف العلماء هذا الأثر فى السنين الاخيرة (٢) حتى لقد قالوا ان صلة اللغة المصرية باللغات الأفريقية اقوى من صلتها باللغات السامية . وبذلك يسقط البرهان المأخوذ من تشابه استعمال الضمائر فى اللغة المصرية واللغات السامية .

***

والآن لم يبق من الأدلة غير استعمال معدنى النحاس والذهب . والرأى عند أصحاب هذا الدليل أن الكلدانيين عرفوا استعمال النحاس والذهب قبل المصريين ، وان الغزاة الذين غزوا مصر منهم هم الذين علموا أهلها هذا الاستعمال ، فننظر هل هذا صحيح. ويجب فى بحثنا هذا أن يكون ماثلا فى اذهاننا أن الغرض الذى دعا إلى الأخذ بهذا الدليل ، هو القول الفاسد بأن المدنية وجدت فى مصر فجأة ، وفى عصر سابق على عصر الأسر بقليل ، فهى لم تترب جذورها فيها ، وانما انتقلت اليها على يد قوم مغيرين . وقد بينا فى كل مامضى فساد هذا القول ، وابتنا ان عناصر المدنية تربت كلها فى مصر واخذت تنمو فيها شيئا فشيئا منذ العصر الحجرى ، وكان يحق لنا أن نكتفى بذلك ، لأن استعمال النحاس والذهب ليس اهم فى بناء المدنية من الزراعة ، ولا من استخلاص النباتات الصالحة لغذاء الانسان من النباتات الوحشية ، ولا أهم من التعاون على تنظيم مجرى النيل ، ولا من

(١) كان المصريون يسمونه الاخضر الكبير لان واضعى أسطورة اوزوريس قالوا : انه لما قتله اخوه سيت ثم وضعه فى صندوق والقاه فى البحر سار الصندوق الى البحر الأبيض المتوسط وعام فيه متجها الى ميناء بيلوس (وهو جبيل الآن) . وحينئذ اخضر لون الجثة ثم اسود . ومن هنا سمى هذا البحر الأحمر الكبير راجع فى ذلك ص ٩٦ من كتاب (La religion des Eg.) تأليف ادولف ارمان (Adolf Erman) الذى كان أستاذا للمصرولوجية فى جامعة برلين وتوفى منذ بضع سنين . وقد نقل كتابه هذا من اللغة الالمانية الى اللغة الفرنسية (Henri Wild) وطبعه فى باريس سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الذى تقدم ذكره .

(٢) راجع فى ذلك كتاب : (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen) تأليف Et. Drioton) مدير مصلحة الآثار المصرية (اذ ذاك) و (Jaques Vendier) ص ٤ و ٥ طبعة باريس فى سنة ١٩٣٨ .

إيجاد المناطق الاقليمية والحكومات الاقليمية ثم الحكومة الواحدة — نقول ليس استعمال النحاس والذهب بأهم فى بناء المدنية من هذه الأسس ، بل هو دونها ، ولكننا لاندع هذا الدليل من غير تفنيد ، لأنه ليس من الحق فى شىء أن يقال إن المصريين لم يعرفوا استعمال النحاس والذهب إلا على يد غزاة من الكلدانيين، وقبل عصر الأسر بقليل .

لايزال العلماء يواصلون البحث فى عصر ما قبل الأسر، فمن المجازفة أن يقول قائل ان الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه . ولكن هناك حقائق دلت عليها الحفائر فى مناطق مختلفة عرف أن بعضا منها خلفه المصرى حينما كان قريبا من الحالة الوحشية وكان يعيش على صيد الحيوانات اكثر من عيشه على الزراعة ، وبعضا آخر حينما كان عيشه على الزراعة وبدأ يستخدم الحيوانات وبعضا ثالثا حينما خطا خطوة إلى الأمام بعد ذلك ، وبعضا رابعا حينما خطا خطوة أوسع واخذ يمهد لعصر الأسر .

فالحالة الأولى تمثلها حفائر دير تاسا ، ويسمى عصرها عصر تاسا أو حضارة تاسا . والثانية تمثلها حفائر البدارى ونقادة ، وتسمى حضارة البدارى . والثالثة تمثلها حضارة العمرة. والرابعة تمثلها حضارة جرزة . وهذه المناطق كلها قائمة فى الوجه القبلى . اما فى الوجه البحرى فقد وجدت حفائر مرمدة بنى سلامة وحفائر المعادى وهما ارقى من حضارة البدارى، ولكن لم توجد حفائر يمكن ترتيبها على النحو الذى رتبت به الحفائر فى الوجه القبلى ، لسبب ظاهر هو أن الأرض فى الوجه البحرى رخوة فالنيل وطميه يجعلانها اقل من أرض الوجه القبلى احتفاظا بما فيها .

ففى حضارة البدارى ، أى عند الدرجة الثانية من درجات سلم الصعود إلى المدنية المصرية ، عرف المصريون النحاس واستعملوه . وقد وجدت أدوات منه فى قبورهم . وفى ذلك يقول جوردن شيلد (١) بعد أن تكلم عن حضارة تاسا ثم شرع يتكلم عن حضارة البدارى :

« ... وحينئذ بدأ يشتد البحث عن مواد أولية ، فأدى ذلك إلى استخدام عنصر اقتصادى جديد هو عنصر المعاملات التجارية . ومن المؤكد ان معدن الدهنج الذى كان يستعمل إذ ذاك فى تكحيل العيون كان يجلب من سيناء والنوبة . وقد وجدت فى قبور عصر البدارى قواقع كثيرة من البحر الاحمر وقطع من خشب الأرز وخشب الراتنج ، مما يفهم منه وجود علاقات بين مصريى البدارى وبين سوريا (٢) ، وفى هذا الوقت عرف البداريون خواص معدن النحاس ، فعرفوا قابليته للطرق ، ولكنهم لم يهتدوا الى قابليته للانصهار » .

ويستمر جوردن شيلد فيقول بعد ذلك بقليل :

« كان البداريون يلبسون ملابس من جلود الحيوانات ... وكانوا يكحلون عيونهم بمعدن الدهنج(٣) ،وكانوا يضعون فى أعناقهم واوساطهم عقودا أو احزمة فيها قطع من النحاس » .

أما برستيد فقد قال فى كلامه عن مصر البدائية(٤)

« كان المصريون البدائيون يصنعون ويستعملون أسلحة وأوانى من البرنز . ويمكن وضع العصر الذى كانوا يعيشون فيه إذ ذاك فى زمان الانتقال بين عصر الحجر وعصر استعمال النحاس . وكانوا يعرفون الذهب والفضة والرصاص ، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها إلا قليلا » .

وتكلم دريوتون (٥) عن حضارة البدارى فقال :

« ... وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلا فكان استعماله مقتصرا على الأدوات الصغيرة كالدبابيس التى تستخدم لتعليق الجلود أو كالابر أو أسنان الخطاطيف او المكاشط أو أزاميل النجارة . وقد عرف المصريون منذ

(١) (V. Gordon Childe) هو استاذ علم الآثار فى جامعة ادنبرة ، وقد اشتهر بحفرياته فى الهند والعراق ومصر ، ثم بمؤلفاته فى عصور ما قبل التاريخ لهذه البلاد جميعا . ويعتبر كتابه عن « الشرق فى ما قبل التاريخ » زبدة بحوثه هذه . وقد وضعه بالانجليزية ونقله (J. Lévy) الموظف بمتحف (Guimet) بباريس الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : (L' Orient Préhistorique) . وعن هذه الترجمة ص ٧١ و٧٢ و٧٣ نقلت مانقلته هنا .

(٢) قلنا فيما تقدم ان المصريين فى عصر ما قبل الاسر كانوا على اتصال بجيرانهم فى فلسطين وسوريا وجزائر البحر الأبيض وليبيا والنوبة ، فهذا هو بعينه الذى يقوله جوردن شيلد هنا .

(٣) الدهنج هو المعدن الذى يسمى باللغة الفرنسية malachite

(٤) ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية لكتابه :
(A History of Egypt) وقد سبق ذكرها .

(٥) ص ٣٧ من كتاب :
(Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

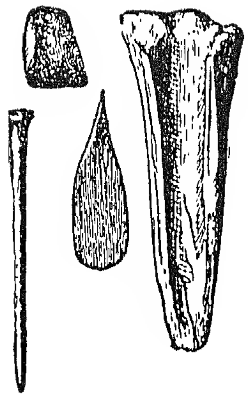

ادوات مصنوعة من عظام الحيوانات وحجمها هنا يعادل ٢/٥ من حجمها الطبيعى • وقد وجدت فى حفائر مرمدة بنى سلامة

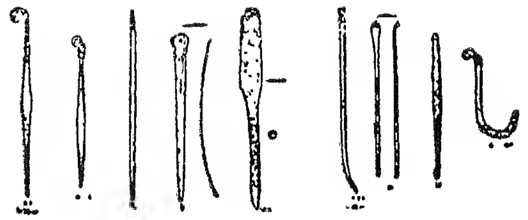

ادوات من النحاس وجدت فى مقابر نقادة وترجع الى ما قبل عصر الأسر • وهى دبابيس وابر وسنارة

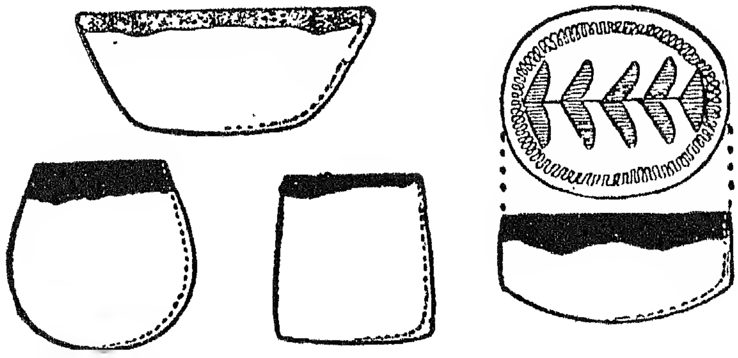

أدوات من الفخار ترجع الى حضارة البدارى • وحجمها هنا سدس حجمها الطبيعى

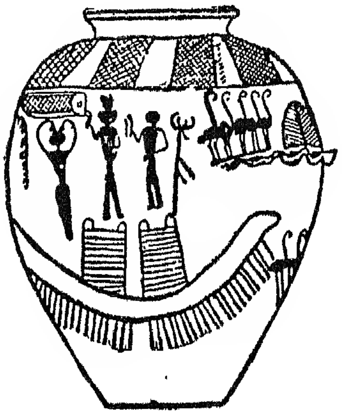

اناء من الفخار يرجع الى ما قبل عصر الأسر ، وقد زين برسوم مختلفة منها طيور واشخاص ثم سفينة تحمل شارة على ساريتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الوقت انه قابل للانثناء ، وانه قليل الصدأ ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، ولكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية وبطريقة الطرق والصقل » .

ذلك فى حضارة البدارى ، أما فى حضارة العمرة التى تلتها فقد تقدمت صناعة النحاس والذهب وجلب المصريون اللازورد من سوريا .

هؤلاء إذن هم المصريون عرفوا النحاس والذهب منذ حضارة البدارى . ولم يكونوا يجلبونهما من الكلدان ، ولا من بلاد قريبة من الكلدان ،بل كانوا يستخرجونهما من سيناء والنوبة ومن مناجم لهما فى مصر . وبين حضارة البدارى وعصر الأسر بضعة الوف من السنين عاشت فيها حضارة العمرة ثم حضارة جرزة . فعلى الذين يزعمون أن المصريين لم يعرفوا النحاس والذهب إلا بعد أن دخل بهما الكلدانيون ، أن يثبتوا أن هؤلاء الكلدانيين جلبوهما قبل عصر الأسر بألوف من السنين، وليس إلى هذا الاثبات من سبيل .

ويحسن أن ننقل هنا كلمة كتبها فى ذلك مورى ودافى (١) فقد قالا :

« حينما كان المصريون قبل الميلاد بنحو ٤٥٠٠ سنة (٢) يستخدمون النحاس ويصنعون الأدوات المعدنية ، كان غيرهم من أمم العالم لايزال يستخدم الأدوات من الحجر ، أو هذا على الأقل هو ماوصلت إليه معلوماتنا الى الآن . ولذلك تفوق سكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى ان تقاومه . وفى هذا الوقت نفسه اخذ جيران مصر يظهرون على الآثار المصرية الأولى ، وبهذه الآثار صرنا نستطيع درس العلاقات الأولى التى كانت متبادلة بين أمم الشرق القديم » .

وإليك كلمة أخرى كتبها جوردن شيلد فقال فيها إنه ان كانت توجد وجوه من الشبه بين مصر والكلدان فليس معنى ذلك أن الكلدانيين جلبوا المدنية إلى مصر، ولا أن مصر اخذت منهم ، وانما قد يكون معناه الأصح

---

(١) (A. Moret, G. Davy) فى صفحة ١٩٣ من كتابهما :
(Des Clans Aux Empires)

(٢) يلاحظ هنا ان مورى ودافى يأخذان بالتاريخ القصير الذى يجعل الملك « منا » فى نحو سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

أن الكلدان وبلادا أخرى هى التى أخذت من المدنية المصرية . قال بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفة فى عصر ما قبل الأسر (٣) :

« ... إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدم الذى تقدمته المدنية فى وادى النيل بعوامل متواصلة مستقلة عن الخارج . ومع أن هناك أكثر من عنصر عالمى كان له أثر فى هذا التقدم ، ومع أننا نستطيع تمييز حضارتين ، فان جميع الكشوف والمخترعات ذات الأهمية هى بنت حوض النيل . نعم إن حضارة جرزة تحتوى على مظاهر شبه بينها وبين آسيا ، ولكن ليس هناك مايدل على أن مصر مدينة لآسيا فى هذه المظاهر . ومن الممكن نظريا على الأقل ، تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (يريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر من مصر » .

ثم استمر جوردن شيلد فأخذ يثبت أن جميع العوامل الطبيعية كانت تجعل من وادى النيل ارضا صالحة للزراعة منذ اقدم العصور ، وأن المصريين عرفوا فى حضارة البدارى وحضارة العمرة صنع السفن قبل أن يعرفه سواهم ، وأنهم شرعوا حينذاك يعرفون مبادىء الكتابة ، وأنهم اتصلوا بالبلاد المجاورة لهم فجلبوا منها الخشب ومواد اولية اخرى . ثم قال إن المخلفات التى وجدت فى قبور المصريين فى حضارة البدارى وحضارة جرزة :

« تدل على أنهم كانت لهم علاقات تجارية تمتد الى بلاد العجم وارمينيا وسوريا الشمالية . ومن هذا الاتصال وجدت الفرصة لاحتذاء مثال الكشوف والمخترعات المصرية فى هضاب إيران ، وفى آسيا الصغرى ، وفى جزيرة كريت » .

فنظن بعد ذلك أن ماكان باقيا من نظرية جلب المدنية إلى مصر على يد الكلدانيين قد انهدم . ونظن أيضا أنه صار واضحا أن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر ، فى مصر تكونت عناصرها الأولى ، وفى مصر نمت وتطورت حتى صارت نورا يرسل أشعته إلى القريبين والبعيدين من الأمم .

---

(٣) ص ١٠٢و١٠٣و١٠٤ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها.

التقويم المصري

حينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهي أن يعتمدوا في تقسيمه على القمر ، لأنه يبدو في أول ظهوره صغيرا ، ثم ينمو ليلة فليلة حتى يصير بدرا ، ثم يتضاءل ليلة فليلة حتى يبلغ المحاق . فهو علامة بارزة كان من الضروري أن يلتفت الانسان إليها وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته في تقسيم الزمن . ومن هنا وجد الشهر القمري ووجدت الشهور القمرية .

وقد وجد التقويم القمري في مصر ، كما وجد في البلاد الأخرى ، ثم أخذ المصريون يدركون ما فيه من عيوب ، وأغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا ، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصلحها ، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية ، بل على الدورة الشمسية ، وهذا التقويم هو الذي وجده يوليوس قيصر حينما جاء مصر فحمله منها إلى روما ، وهو بعينه الذي يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجوري بعد تعديل طفيف فيه .

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسي ، فذلك أنهم لاحظوا أن الشهور القمرية التي تقع في إحدى السنين في زمن الفيضان ، أو زمن بذر الحبوب في الأرض ، أو زمن حصاد الزرع ، تقع بعد سنين قليلة في أزمنة أخرى ، فقام البرهان المادي لديهم على أن هذه الشهور لا يمكن التعويل عليها في ضبط مواسم الزراعة . وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول ، وكان ضبط أزمنتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى . ففكروا في إيجاد تقويم يضبط لهم هذه الأزمنة والمواعيد . وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يسطع في الأفق قبيل شروق الشمس في يوم معين من السنة – هو يوم ١٥ يونية في التقويم الجريجوري المستعمل الآن – ثم يمضي حول كامل حتى تعود الشعرى اليمانية إلى الظهور قبيل شروق الشمس . فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥ يوما ، فجعلوه سنتهم ، وقسموه إلى ١٢ شهرا ، كل شهر منها ٣٠ يوما . ثم أضافوا إليها خمسة أيام هي التي سميت بعد ذلك أيام النسيء (١) .

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول : هي فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد ، كل واحد منها أربعة أشهر .

وقسموا الشهر إلى ثلاثة أثلاث ، كل ثلث منها عشرة أيام . وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها لليل ونصفها للنهار .

أما الأشهر فهي بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهي توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤنه وأبيب ومسرى .

وحينما وضعوا هذا التقويم ، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفنتين في اليوم الذي ظهرت فيه الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أي أول شهر توت ، لأنه اليوم الذي اجتمعت لهم فيه ظاهرتان : ظهور الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، ووصول الفيضان إلى ايلفنتين .

وكان حسابهم هذا صحيحا ، لا يدخله غير خطأ

---

(١) صاغ المصريون حول هذه الايام الخمسة أسطورة مؤداها ان المعبود جب أي الأرض بنى بالمعبودة نويت أو نوت أي السماء على غير رغبة الاله الاعظم رع . ثم حملت نوت فصنع لهما رع طلسما يمنعهما من التناسل في أي شهر من شهور السنة . ولكن المعبود توت كان يحب نوت فلعب بالزهر مع القمر فكسب منه الجزء المتمم لكل سنين يوما من أيام السنة فتكونت من ذلك خمسة أيام زائدة على شهور السنة ، وفيها استطاعت نوت أن تضع معبودا في كل يوم . وهذه المعبودات الخمسة هي أوزريس وسيت وايزيس ونفتيس وحارويريس . وحارويريس هذا هو حوريس الكبير ، وقد سمى بذلك تمييزا له من حوريس بن ايزيس . وكان يعبد في مدينة ليتوبوليس على انه اله الحرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طفيف مقداره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة ، فى حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية بما لا يقل عن أحد عشر يوما فى السنة ، ولذلك كان اهتداؤهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعرى اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا .

وظهر فى السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور هى بعينها فى كل سنة . ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين ، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعرى يوما فى كل اربع سنوات . ثم توالت السنون فصار الفرق يزداد ، وصارت الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور غير التى قدرت لها .

ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل ادركوه وعرفوا انه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه ، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله (١) .

وبما أن السنة تنقص ربع يوم فمن البديهى أن يتوالى هذا النقص بمقدار أيام السنة مضروبة فى اربعة ، أى ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ تضاف إليها السنة التى نقصت فى هذه المدة فيكون المجموع ١٤٦١ ، ومعنى هذا انه كلما مضت ١٤٦١ سنة اعتدل الحساب من جديد ، وعادت الشعرى اليمانية تظهر قبيل شروق الشمس فى أول توت . ولكنها لاتظهر فيه إلا لمدة اربع سنوات ثم تنقص السنة يوما .

* * *

ويستطيع الفلكيون الآن أن يعرفوا دورات الشعرى اليمانية ودورات الشمس فى الماضى كما يعرفونهما فى الحاضر والمستقبل . فهم يعرفون جميع السنين التى ظهرت فيها الشعرى اليمانية فى أفق مصر قبيل شروق الشمس ، ويعرفون أيضا أنها لا تظهر كذلك إلا فى منطقة تقع فى الدرجة الـ ٣٠ من خطوط الطول ، وهذه المنطقة هى منطقة الوجه البحرى حيث كانت مدينتا منفيس وهليوبوليس . وبما أن منفيس لم تكن قد أنشئت حينما وضع التقويم المصرى ، فلا بد أن يكون أساس الحساب ظهور الشعرى اليمانية فى أفق هليوبوليس ، ويغلب على الظن أن يكون علماء هذه المدينة ، أى كهنتها ، هم الذين وضعوا التقويم . وهذا يتفق مع المعروف عن هذه المدينة ، إذ الأدلة قائمة على أنها كانت فى عصر ماقبل الأسر ذات نفوذ علمى ودينى واسع . وقد استمر نفوذها هذا فى عصور الأسر ، واستمرت عبادة معبودها رع إلى أن انتهت المدنية المصرية .

ومما اشتهرت به هليوبوليس (وتسمى فى اللغة المصرية اون) على وجه خاص ، أن كهنتها كانوا فى كل وقت يعنون برصد الشمس والنجوم . وكانوا يدونون نتائج مشاهداتهم سنة بعد أخرى ، ولهذا أطلق على رئيس كهنتها لقب « المبصر الأعظم » أو « رئيس الذين يبصرون الشمس ، والوحيد الذى يراها وجها لوجه » (٢) .

وننتقل بعد ذلك إلى ماتركه لنا المصريون من الفروق بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية .

كان المصريون يجعلون للشعرى اليمانية مقاما دينيا وكانوا يقيمون لها احتفالا حين ظهورها كل سنة ، ففى عهد تحوتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) نقشوا على أحد الصخور فى ايلفنتين أن الشعرى ظهرت قبيل شروق الشمس فى يوم ٢٨ من شهر أبيب بدل اليوم الأول من شهر توت . وهذه البيانات تكفى علماء الفلك فى وقتنا هذا لكى يعرفوا ان ذلك الفارق وقع فى المدة من سنة ١٤٧٤ إلى سنة ١٤٧١ ق م . ومن الضرورى أن نذكر هنا اربع سنوات

---

(١) من الكتابات الطريفة التى وصلت الينا خاصة باختلاف الفصول عن الشهور التى قدرت لها فى التقويم كلمات دعابة كتبها طالب علم فى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى كراسة تمرينه على الكتابة والانشاء ، هذا تعريبها :

« الى يا أمون . انقذنى من السنة المختلة . فالشمس لاتسطع ، والشتاء يأتى فى وقت الصيف . والشهور تمشى القهقرى » .

ويؤخذ من قوله « فالشمس لا تسطع » انه كتب كلماته هذه فى يوم غيم فى فصل الشتاء .

(٢) وجدت لوحة لاحد رؤساء الكهنة وصف نفسه فيها كما يأتى: « القارىء الذى يعرف وجه السماء ، والمبصر الاعظم فى قصر الامير » وقد ترك المصريون عدة خرائط محفورة على الحجر لاجزاء من السماء . منها خريطة فى معبد الرمسيوم فى الاقصر . وخريطة فى معبد دندرة . وسيأتى بحث خاص بها وبالضجة التى اثارها نقلها الى باريس . وخريطة فى مقبرة سيتى الاول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

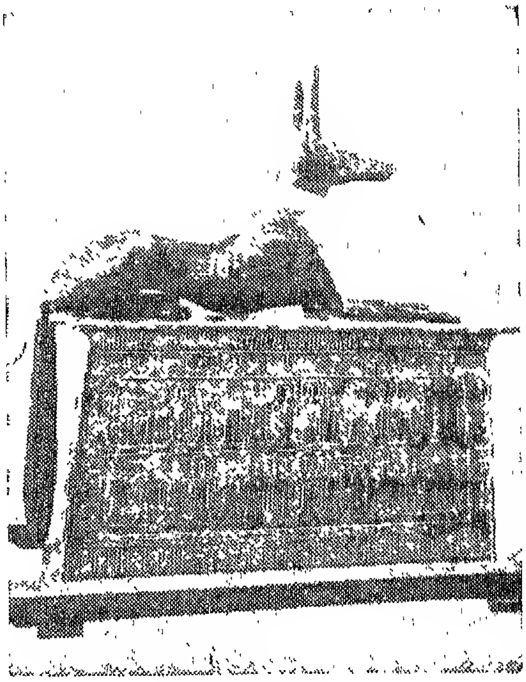

خزانة لحفظ التمائم

وهى مصنوعة من الخشب المزين بالرسوم والألوان والذهب ، وقد علا غطاءها تمثال للإله أنوبيس .

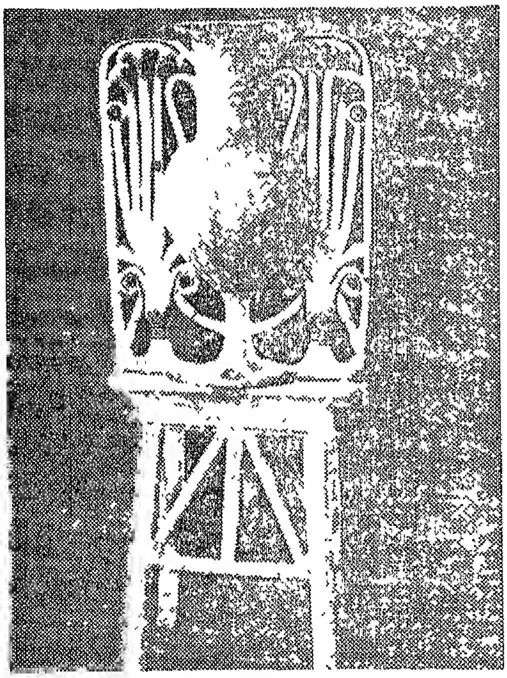

وعاء لحفظ الطيب

وقد صنع من الجص ، وكان يحفظ فيه دهان للتطرية . وله حامل ذو أربعة قوائم . وقد تداخلت فى زخرفه زهور البردى واللوتس ، التى ترمز للوجهين القبلى والبحرى .

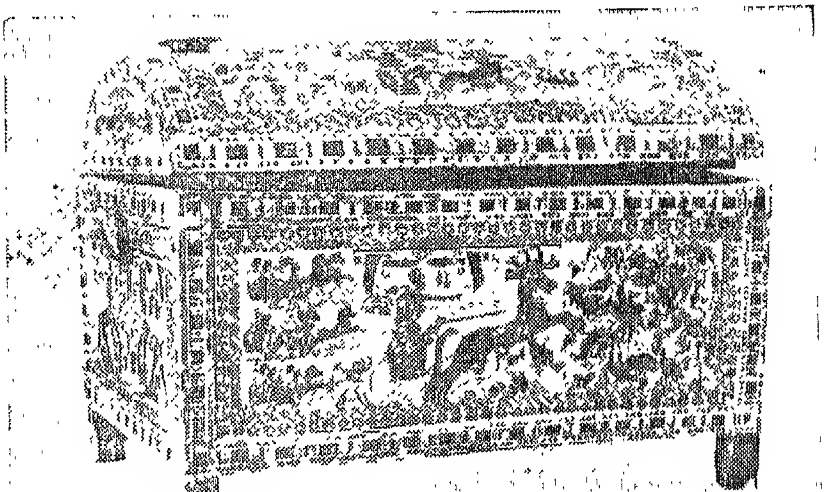

خزانة لحفظ المجوهرات

وهى من أفخر ما أخرجت يدا الصانع المصرى من الآثار الفنية المصنوعة من الخشب وهى محلاة بالمنمنمات التى تسمى الآن (Miniature) . وفى وسطها صورة للملك توت عنخ آمون فى عجلته يصيد وحش الصحراء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن الفرق فى السنة الواحدة ربع يوم كما تقدم ، فلابد أن تكون الشعرى قد ظهرت فى يوم ٢٨ أبيب أربع سنوات متواليات . وليس من المعروف أى يوم من هذه الأيام الأربعة هو الذى أريد بما نقش على صخرة ايلفنتين فى عهد تحوتمس الثالث . وإذن تبين ان تحوتمس الثالث كان جالسا على عرش مصر فى الوقت الذى سلفت الاشارة إليه .

وجاء فى ورقة من أوراق البردى الطبية تسمى « ورقة إيبرس » (١) أنه فى السنة التاسعة من حكم الملك امينوفيس الأول (ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة) ظهرت الشعرى قبيل شروق الشمس فى يوم ٩ أبيب . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث لابد ان يكون قد وقع فى المدة من سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٤٧ ق م . ومن هنا يمكن أن يقال إن الأسرة الثامنة عشرة جلست على العرش فى نحو سنة ١٥٨٠ ق م .

وفى ورقة من البردى تعرف باسم ورقة اللاهون انه فى عهد الملك سنوسريت الثالث (احد ملوك الأسرة الثانية عشرة) ، وفى السنة السابعة من حكمه ،ظهرت الشعرى فى ١٦ برمودة بدلا من أول توت . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث وقع فى المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٧٩ ق م . ومن هذا يؤخذ ان ابتداء جلوس الأسرة الثانية عشرة على العرش يقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م (٢) .

* * *

وهنا سؤال لابد منه ، وهو : هل ترشدنا هذه البيانات إلى الوقت الذى وضع المصريون فيه تقويمهم هذا ؟

فعلى هذا السؤال يجيب علماء الفلك فيقولون إن التقويم ابتدأ فى يوم ظهرت فيه الشعرى فى أول توت، والحساب الفلكى يدل على ان هذا الحادث وقع قبل سنة ٢٠٠٠ (التى تقدم أن الأسرة الثانية عشرة جلست فيها على العرش) فى المدة من سنة ٢٧٨١ إلى سنة ٢٧٧٨ ، ثم قبل ذلك بـ ١٤٦١ سنة أى فى المدة من ٤٢٤١ إلى ٤٢٣٨ . فالتقويم لابد أن يكون قد وضع فى إحدى هاتين المدتين او قبلهما . فأما المدة الأولى فيجب طرحها جانبا ، لأن نقوش اهرام سقارة تذكر ، فيما تذكره ، الأيام الخمسة التى تضاف إلى الشهور الاثنى عشر لتكملة السنة ، فمعنى ذلك أن التقويم كان مستعملا فى وقت بناء الاهرام ، ومعناه أيضا أن الفرق بين ابتداء الأسرة الثانية عشرة وهذه المدة ، وهو نحو ٧٨١ سنة ، لايمكن ان يكون كافيا للأسر التى حكمت مصر من وقت بناء اهرام سقارة إلى وقت ارتقاء الأسرة الثانية عشرة إلى عرش الحكم .

وإذن لابد من الرجوع الى المدة الثانية ، وهى كما قلنا من سنة ٤٢٤١ الى سنة ٤٢٣٨ . وإذن تكون هذه المدة أقرب زمن يمكن أن يقال إن التقويم كان موجودا فيه . اما وضع التقويم فلا يعرف زمنه . ومن المرجح أن يكون قبل هذه المدة .

فاذا نحن اخذنا بالتاريخ القصير الذى يقول إن الملك «منا» حكم فى نحو سنة ٣٢٠٠ ق م . فالتقويم المصرى كان موجودا قبل هذا الملك بأكثر من الف سنة . ومن البديهى أن المدنية المصرية لم تستطع وضع هذا التقويم إلا بعد أن كانت قد وصلت الى درجة من الحضارة مكنتها من رصد دورة الشمس ودورة الشعرى اليمانية وجعلهما أساسا للسنة .

ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر أن برستيد كان من المعجبين بقدرة المصريين على وضع هذا التقويم فى ذلك الزمن القديم فقال : (٣) .

(١) (Georg Ebers) هو عالم المانى ولد فى سنة ١٨٣٧ وتوفى فى سنه ١٨٩٨ ، وقد شغف بعلم الآثار المصرية ، فانصرف اليها اغلب أيام حياته وزار مصر عدة مرات واشترى فيها ورقة من أوراق البردى وترجمها فاتضح أنها تبحث فى الطب عند المصريين ، فذاعت شهرتها عند علماء الآثار المصرية . ووضع ايبرس كتبا عدة من مصر بعضها بحوث علمية وبعضها الاخر روايات تحيلها وجعل موضوعاتها تدور حول مصر القديمة .

(٢) يرى بعض العلماء فى الكرونولوجيا ان هذا الحساب ينقص دورة كاملة من الدورات التى يعدل بها التقويم . وعلى هذا فالأسرة الثانية عشرة عندهم تبتدىء فى سنة ٣٥٧٩ ق م . والأسرة الاولى تبتدىء فى سنه ٥٥٤٦ ق م . وهذا هو ما يسمى عند العلماء بالتاريخ الطويل . اما التاريخ القصير الذى يأخذ به اغلب العلماء فى الوقت الحاضر فانه يجعل ابتداء الأسرة الثانية عشرة فى سنة ٢٠٠٠ ق م . وابتداء الأسرة الأولى ، نحو سنة ٣٢٠٠ أو ٣٤٠٠ ق م .

(٣) ص ٣٥ من الترجمة الفرنسية لكتابه من تاريخ مصر ، وقد مرت الاشارة اليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إن هذا التقويم العظيم الذى كان يستعمل فى عصر بعيد، هو بعينه الذى يستعمل فى أيامنا هذه . فقد حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما فاستعمل فيها على أنه أفضل تقويم . ثم ورثناه نحن عنها . وبذلك يكون قد استعمل بغير انقطاع أكثر من ستة آلاف سنة . وقد كان المصريون من أهل الوجه البحرى ، الذين عاشوا فى نحو القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، هم أصحاب الفضل علينا فيه . ومن المهم أن نلاحظ أنه خرج من أيدى واضعيه الأولين ، بشهوره الاثنى عشر ، والتى كان كل شهر منها ثلاثين يوما ، أفضل مما صار إليه بعد أن عدله الرومانيون » .

وقد كان الذى فعله يوليوس قيصر أنه لما جاء إلى الاسكندرية وجد فيها التقويم المصرى ، وكانت روما لاتزال تستعمل التقويم القمرى ، فلما عاد إليها حمله معه ، فأخذه الرومانيون وأضافوا إليه يوما كل أربع سنوات ،فتكون كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ٣٦٥ يوما ثم تكون السنة الرابعة ٣٦٦ يوما، وسموا الثلاث السنوات الأولى بسيطة والسنة الرابعة كبيسة .

وفى سنة ١٥٨٢ قرر مجمع الكرادلة برياسة البابا جريجوار الثالث عشر إدخال تعديل طفيف على التقويم الرومانى ، فسمى تقويمه التقويم الجريجورى ، وهو الذى يستعمله العالم الآن ، وهو التقويم المصرى معدلا تعديلا طفيفا .

* * *

ونضيف هنا إلى ذلك أن عالما اسمه ويل (R. Weill) استطاع أن يجمع أخيرا من أوراق البردى وجدران المعابد نصوصا تثبت أن الكهنة ورجال الحكومة المصريين كانوا يصلحون التقويم بما يزيل منه ذلك الفرق القليل ويجعله ثابتا غير متغير .

وهذه النصوص التى جمعها ويل فى كتابه :

Bases, Méthodes et Résultats
de la Chronologie Egyptienne

تشتمل على أيام محددة لحفلات موسمية زراعية طبقا للتقويم ، وأمام كل واحد منها اليوم المقابل له طبقا لدورة الشعرى اليمانية . وقد دل البحث على أن الحساب فى هذه الأيام الأخيرة صحيح ، ومنه يستنتج أنهم كانوا يعدلون التقويم بما يزيل النقص منه .

وقد كتب فى ذلك مورى فى كتابه :

(Histoire de l'Orient)

فى ص ١١٠ و١١١ فذكر أن الاعتقاد كان سائدا « بأن المصريين سكتوا على هذا الاختلاف المكدر بين السنة فى تقويمهم والسنة الفلكية » . ثم أشار مورى الى النصوص التى جمعها ويل ، وقال :

« فبين أيدينا ، منذ العهد الذى كانت فيه طيبة قاعدة للملك ، جداول بأعياد دينية مكتوبة على البردى أو منقوشة على المعابد ، وقد عينت فيها الأيام طبقا للتقويم الناقص وعين أمام كل واحد من هذه الأيام اليوم المقابل له تعيينا صحيحا ، بحسب دورة الشعرى اليمانية . فالكهنة ورجال الحكومة كانوا اذن يستعملون تقويما ثابتا قائما على هذه الدورة التى مدتها ٣٦٥ يوما وربع يوم . وفى هذا التقويم الثابت كانت حفلات المواسم الزراعية تقع فى أيام ثابتة بالنسبة لفصول السنة الطبيعية ولنظام العالم . فكيف يمكن حساب هذا التقويم إلا باضافة يوم سادس الى الأيام الاضافية الخمسة كل أربع سنوات » .

ومما يستحق الذكر هنا ــ وقد ذكره مورى ــ أن العالم ميير (١) عرض للتقويم المصرى فى كتاب له عن « تاريخ مصر » ، فذهب الى أن من المستبعد أن يكون المصريون قد أغفلوا الفرق الذى بينه وبين دورة الشعرى اليمانية . ولكنه لم يستطع أن يقدم برهانا على قوله هذا . وجاراه فى ذلك العالم سيت (٢) ، وتوسع فيه ولكنه لم يقدم ، هو أيضا ، برهانا حاسما. فما كان يفترضه ميير افتراضا ويؤيده فيه سيت ، صار الآن أمرا صحيحا تثبته النصوص .

---

(١) (Ed. Meyer) عالم ألمانى من كبار المصرولوجيين ، وهو القائل بالتاريخ القصير ، وقد أخذه عنه فريق كبير من العلماء .

(٢) (K. Sethe) هو عالم ألمانى أيضا من كبار المصرولوجيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٢٣٨ ق . م أصدر بطليموس الثالث المسمى « ايفرجيت » أمرا يعرف عند العلماء « بالأمر الكانوبى » بتعديل التقويم . ويقضى هذا الأمر « باضافة يوم كل اربع سنوات الى الأيام الخمسة الاضافية ، لكى تجرى فصول السنة على قاعدة لاتتحول ولا تختلف بالنسبة لنظام العالم ، فيمتنع بذلك ان تجىء فى فصل الصيف مواعيد حفلات يجب ان تقام فى الشتاء بسبب تقدم كوكب الشعرى اليمانية فى دورته يوما فى كل اربع سنوات ، ويمتنع ايضا ان تجىء فى الشتاء مواعيد حفلات يجب أن تقام فى الصيف . وهذا ماحدث من قبل ولا بد ان يحدث اذا بقيت السنة مكونة من ٣٦٠ يوما وخمسة أ اضافية » .

فهذا الأمر الذى اصدره بطليموس الثالث هـ تعديل للتقويم ، ولكنه ليس جديدا ، بل هو تنف لعرف قديم كان جاريا منذ العهد الطيبى ، و الكهنة ورجال الحكومة يدونونه فى سجلاتهم ينقشونه على جدران المعابد . ومن هذا كله يتض أن يوليوس قيصر لما جاء الى مصر وحمل التقو منها الى روما ، لم تفعل فيه روما غير ما كانت مـ نفسها قد فعلته من قبلها باكثر من الف سنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معركة
بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوربا فى هذه المدة الطويلة . وكان منشؤها أن الكنيسة وقسسها وقعوا فى خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من انكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان كثير من البحث العلمى فى ذلك الوقت واقعا فى أيدى القسس ، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهى عنده من الحقائق الثابتة التى لايرقى الشك إليها .

وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية ، فثار بهبوبه غبار ، ثم اشتد هذا الغبار فتحول إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسسها فى جانب ، وتقف الآثار المصرية فى جانب آخر ، إلى ان انهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة . وحينئذ أفاقت الكنيسة وأفاق قسسها فاعترفوا جميعا بأنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .

وموضوع هذا الخطأ أن فى التوراة ، أو « كتاب العهد القديم » ، نصوصا عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم (عليه السلام) إلى نوح (عليه السلام) . وقد ذكرت التوراة فى هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحدا بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذى مضى على خلق الانسان . ونذكر هنا شيئا من نصوص التوراة على سبيل المثال .

ففى « الاصحاح الخامس » من « سفر التكوين » مانصه :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الانسان على شبه الله ، عمله ذكرا وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانمائة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات .

« وعاش شيث مائة وخمس سنين وولد أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانمائة وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسعمائة واثنتى عشرة سنة ومات . . الخ . . الخ » .

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل إلى نوح ثم إلى ابراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الانسان على الأرض . ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعا لذلك تاريخ خلق الانسان . وذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحدة منها اعتبرتها الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية . ففى الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفى الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة . وفى الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدة من إبراهيم إلى عيسى (عليه السلام) فهى ٢٢٠٠ سنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الانسان إلى رسالة عيسى هى ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلما بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت فى المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التى ألفها القسوس . وهذا هو الخطأ الذى أخذ العلم المصرى يصدمه منذ سنة ١٧٩٣ ، فثارت الكنيسة وثار معها انصارها فى أوربا كلها على مصر والعلم الذى يأتى منها ، فتغلبوا فى بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فكان العلم المصرى ينهض يوما ويكبو يوما ، وبلغ من حمو المعركة أن اشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين ، واشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

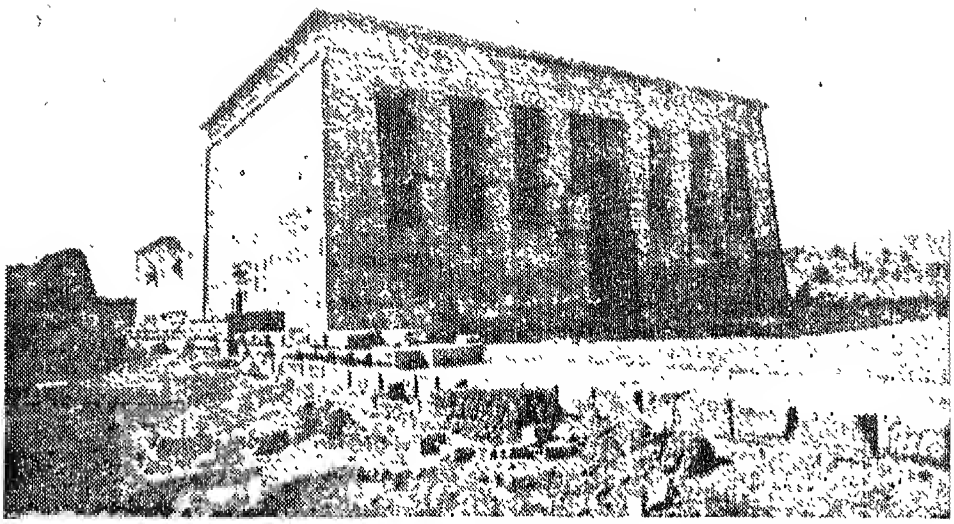

معبد دندرة

لا بل اشتغل بها البابا ليون الثانى عشر نفسه . واخيرا انتصر العلم المصرى فقضى على الخطأ واعترف بانتصاره الذين حاربوه .

والآن فلنخض ميدان المعركة ولنتتبع اطوارها واحدا بعد واحد .

* * *

فى سنة ١٧٩٢ كان عالم فرنسى يسمى ديپوى (Dupuis) قد درس البروج (١) التى وجدت فى بعض المعابد المصرية ، فالف كتابا استنتج فيه من علامات فى هذه البروج ومن حساب حسبه أولا أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج ، وثانيا أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ الف سنة قبل ميلاد المسيح . ثم قال : « وبما أن شعبا من الشعوب لايستطيع أن يخترع هذه البروج فى مستهل حضارته فالحضارة المصرية ترجع إلى ابعد من ١٥ الف سنة » .

وكان ديبوى ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم ، ورأى كل واحد منهم فيها تحديا لنصوص التوراة والانجيل التى قدستها الكنيسة ، ولكنهم تركوها تمر كما تمر الأشياء التى تستحق الاهمال .

(١) هذه البروج هى رسوم مستديرة على المبانى تمثل مناطق من السماء والكواكب والبروج الفلكية .

وبعد ذلك ببضع سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٨ ، غزا نابليون بونابرت مصر ، وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فشاهدوا برجين فى سقوف معبد دندرة وبرجين آخرين فى معبدين بالقرب من إسنا ، ولاحظوا أن قواعد التقسيم فى هذه البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة . ففى إسنا تبتدىء البروج بالعذراء وفى دندرة تبتدىء بالأسد ، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو الدلالة على الوقت الذى بنيت المعابد فيه ، وان معبدى إسنا بنيا حينما كانت الشمس فى فلك العذراء ، وان معبد دندرة بنى حينما كانت الشمس فى فلك الأسد . وهذا معناه أن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة وأن معبد دندرة يرجع إلى ٤ آلاف سنة .

ونشرت جريدة المونيتور (Moniteur) التى كانت الحملة الفرنسية تصدرها فى القاهرة هذا الخبر فى عددها الصادر فى ١٨ اغسطس سنة ١٨٠٠ ، وقالت إن معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية . ووصل هذا الخبر ، ووصلت جريدة المونيتور ، إلى دوائر أوربا الدينية والعلمية ، فأحدثا فيها رجة ، واخذ المتسائلون يتساءلون : ماذا ؟ ٤ آلاف سنة و٧ آلاف سنة ؟ ! ومعابد إسنا أحدث المعابد ؟ ! والبلاد التى تعرف بروجا كهذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البروج وترسمها بهذه الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك الوفا اخرى من السنين ؟ ! ... فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا ، وكم من الزمن قطعوا حتى خرجوا من الهمجية إلى المدنية ؟ ! ... وهل يصح حينئذ قول ديبوى إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ الف سنة ... ؟! وأى شيء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية فى هذا القدم ؟! ... ولكن لا ، ثم لا ، فان التوراة مقدسة ، فهى صادقة ، أما مصر وآثارها والريح التى جاءت تهب من ناحيتها ، فهى كلها زور وخداع .

تلك هى الضجة التى ثارت فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ذيوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة. وحينئذ انقسم العلماء فريقين : فريقا يقول إن الآثار المصرية تثبت ان خلق الانسان أقدم من الزمن الذى حددته له التوراة ، وفريقا يتمسك بالتوراة ويدافع عنها . فمن الفريق الأول ديبوى الذى مر ذكره ، وبورخارت (Bourckhardt) وريمى ريج (Remi Raige) وفوريى (Forrier) وجولوا (Jollois) وديفلبرز (Devilliers) . أما الفريق الثانى فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيستا (Testa) سكرتير البابا فى روما ويعاونه فيسكونتى (Visconti) والأب جريبو (Greppo) والقسيس هالما (Halma) وليترون (Letronne) وغيرهم .

وحميت المعركة بين هذين الفريقين من العلماء ، وكانت نظرية الفريق الثانى ان البروج التى وجدت فى إسنا ودندرة لاترجع إلى أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وأنها لذلك لاتقدح فى التوراة. وإنما نادى الفريق الثانى بهذه النظرية لأنه راى ان التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن فى قدم البروج المصرية لايفيد .

واستمرت المعركة على هذا المنوال ٢٥ سنة اخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية .

* * *

وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول : إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا ، فسرى الخبر مسرى البرق ، ووقع فى النفوس كما تقع الأعجوبة . وكان الخبر صحيحا ، وكانت جليته أن ابن احد اعضاء مجلس النواب فى فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشبة حول البروج المصرية ، فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء . فلما وصل البرج إلى مرسيليا فى يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق فى أوربا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله . وكانت الذى جلبه ـ وهو يسمى ليلورين ـ ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية فى أن يدقوا حول البرج طبولا ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يتمثلون حول البرج المصرى ، والحضارة المصرية ، والعلوم المصرية ، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع .

ولحظ رجال الكنيسة هذا الأثر فى الناس فانزعجوا ، ولحظه خصومهم الذين كانوا فى ميدان المعركة فتشجعوا واغتبطوا .

ونقل البرج إلى باريس ، واخترق شوارعها فى موكب كموكب الغازى المنتصر ، وضن به اصحابه عن أن يبتذل ، فلم يعرضوه للجمهور ، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا العظماء . وكتب كاتب فرنسى هو كاميل لاجيى (Camille Lagier) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال :

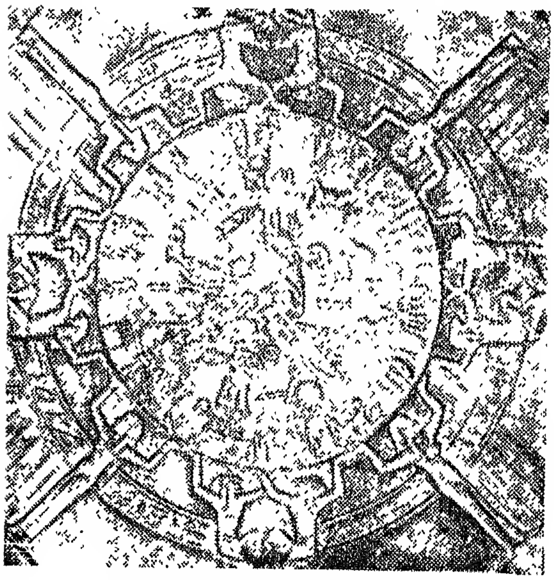

البرج الذى نزع من معبد دندرة ونقل الى باريس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إن هذا البرج الذى كان يظهر ويختفى فى آن واحد صار معبود المتحدثين فى الصالونات ، وفى اماكن الرياضة ، وفى كل مكان . فما كنت تسمع غير سيدة تقول لصاحبها : «ارأيت البرج ياعزيزتى ؟ » ، أو رجل يقول لصاحبه : « مارأيك يا أخى فى البرج ؟ » أو مايجرى هذا المجرى من الحديث » (١) .

وأذاعت الصحف على أثر ذلك أن الحكومة الفرنسية الفت لجنةمن ثلاثة من العلماء لفحص البرج، وهل هو زائف أو ذو قيمة علمية . ثم فحصته اللجنة فقررت انه غير زائف . وكان اصحابه ينتظرون هذا التقرير ، فلما قدم إلى الحكومة كتبوا إليها يطلبون أن تشتريه منهم ، ويقولون إن دولة اجنبية دفعت لهم فيه ٢٠٠ الف فرنك فرفضوا لانهم يؤثرون الا يفوت بلادهم الاحتفاظ بذخيرة مثله . واشترته حكومة لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ الف فرنك (اى نحو ستة آلاف جنيه) ووضعته فى متحف اللوفر وسمحت للجمهور بأن يراه فيه .

واشتد فى هذا الوقت حنق رجال الكنيسة ، واشتدمعه حنق المؤمنينالغيورين على نصوص التوراة فكانوا جميعا «يلعنون الحجر الأسود الحقير» (٢) بينما كان بعض اعضاء مجلس النواب فى فرنسا يشيرون الثوائر عليه لأنه « أداة لبث الالحاد وإنكار الدين » (٣) وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة وصلت فى هذا الدور إلى أقصى شدتها . وبعد ذلك يأتى الدور الثالث وفيه انقلب الأمر فانهزمت البروج وانتصرت الكنيسة .

* * *

بقى الأب تيستا يناضل نضالا عنيفا ، وجعل أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها ليهدمها . وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التى جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية ، ومنها معابد إسنا ودندرة . وكانوا قد نشروا ايضا أوصاف هذه المعابد فى مؤلفهم العلمى الذى سموه « وصف مصر » (Description de l'Egypte)، فلاحظ الأب تيستا ولاحظ معه فيسكونتى أن على معابد إسنا ودندرة كتابات يونانية ، فقالا إن هذه الكتابات سترشد على الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد والبروج التى وجدت فيها .

وتتبع ليترون هذه الفكرة ، فلاحظ أن اسمى الامبراطورين الرومانيين انطونين وادريان موجودان على معبد إسنا . وقرأ على معبد دندرة عبارة باللغة اليونانية كتبت تكريما للامبراطور تيبير ابنالامبراطور اغسطس .

وفى هذا الوقت كان شامبولبون الشاب قد فك حروف الخط الهيروغليفى فاطلع على جميع الأوصاف والرسوم الخاصة بمعابد دندرة وإسنا ، فأثبت أن جزءا من معبد دندرة بنى فى عهد كليوباطرة وابنها قيصرون ، وأن جزءا آخر منه بنى فى عهد الأمبراطور اغسطس .

أما معبدا إسنا فأثبت انهما بنيا فى عهد الامبراطور كومود .

واثبت فى الوقت نفسه أن البروج حديثة وانها صنعت فى الوقت الذى بنيت فيه المعابد اى فى حكم الرومانيين لمصر .

وبذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت الكنيسة .

* * *

انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة ، فكان معنى هذا ان عمر الانسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩سنة على اكثر تقدير قبل النبى إبراهيم ، وكان المعنى ايضا أن كل قدم تدعيه الحضارة المصرية لنفسها ابعد من هذا الحد زور وخداع . وهذه المدة التى تحددها التوراة هى المدة التى يجبأن يكون المصريون قد انتقلوا فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة المدنية ، ثم من حالة المدنية إلى الحضارة الراقية ، فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونا تعد علىالأصابع قبل النبى إبراهيم .

---

(١) صفحة ٣٠ من كتاب (Autour de la Pierre de Rosette)

(٢و٣) صفحة ٣٢ من المصدر السابق ذكره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن هذا الحساب فيه تسامح أيضا ، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على عهــــد نوح فأهلك في مصر ـ كما اهلك في غــبرها ـ كل حي ودمر كل عامر (١) ، فالمدة التي بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب . وفي النسخة السبعينية من نسخ التوراة ـ وهي النسخة التي يزيد رقمها على رقمي النسختـــين الأخرين ـ ان المدة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سنة ، ومن نوح إلى ابراهيم ١١٤٧ سنة فقط. فهذه المدة الأخيرة هي وحدها التي يجب أن تكون قاعدة الحساب وهي التي عمرت فيها مصر بالمصريين ووصل المصريون فيها الى الحضارة التي وجدهم عليها إبراهيم حينما جاء مصر . فالحضارة المصرية حديثة إذن ، وليس لها أن تتيه على حضارات الأمم الأخرى بدعوى القدم .

هذا كان مؤدى انتصـــار الكنيسة عــلى البروج المصرية . ولهذا لم يكد الانتصار يتقرر في الأذهان حتى بدأت حملة عنيفة على مصر وتاريخها ، وقاد هذه الحملة الأب جيرين دي روشي (Guérin du Rochet) وكان قد ألف قبل ذلك ببضع سنين كتابا عنوانه « التاريخ الصحيح للعصور الخرافية » ، هاجم فيه مصر وتاريخها وحضارتها ، فأعاد طبعـه وزاد عليه . وكان الأب دي روشي من العلماء الواسعي الاطلاع البارعين في صناعة القلم ، فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا في شكل يلبس فيه الحق بالباطل . فزعم أن التاريخ المصري من أوله إلى آخره ليس ســوى تخليط في الحوادث التي تسردها التوراة . فالملك (منا) الذي يذكره المؤرخ المصري مانيتون (٢) ويقول إنه اول ملك حكم مصر ليس سوى نوح . والملوك الذين يعدهم مانيتون ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء (لمنا) ليسوا سوى أولاد نوح الثلاثة . والفرعـون موريس (٣) ليس سوى مصرايم حفيد نوح . وما زال الأب دي روشي يمضي في السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التــوراة والقصص التي فيها . وعنده أن المؤرخين : مانيتون وديودور الصقلي وهيرودوت ، لــم يفعلوا غــير أن وضعوا التوراة أمامهم ، ثم جعلوا يأخذون منهــا ويخترعون .

وهذا القول يظهر لنا الآن غاية في السخف ، ولكنه راج في ذلك الوقت على أنه حقيقة تاريخية ودينية . واستقر في الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب ان يؤخذ تاريخه من التوراة . فما أثبتته فهو الحق الذي وجد ، وما لم تثبته فهو الباطل الذي لم يوجد .

ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلا لأن المعركة عادت تتجدد في شكل آخر . وعادت تتجدد في هذه المرة بشيء غير البروج ، وعلى يد عالم هــو الذي نصر الكنيسة على البروج ، وهذا العـالم هو شامبوليون الشاب الذي تقدم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هي وبروجها بنيت في عصر كليوباطرة والرومانيين .

وذلك أن شامبوليـــون كان قد كشف الخط الهــيروغليفي كما قلنا ، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموتيقي والهيراتيقي ، فصار في استطاعته أن يقرأ جميع الكتابات التي تركها المصريون على المعابد وفي اوراق البردى . فبدأت الكنيسة تحس قلقـا من هذه الناحية على الرغم من أنها كانت قد ارتاحت لعمل شامبوليون في هدم قدم البروج . وقد كانت على حق في هذا القلق ولكن شامبوليون كان سياسيا بارعا فأخذ يهدىء روعها حتى لا تحول بينه وبين بحثه العلمي . فنجح واستنامت له الكنيسة ، ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضـــال لها في المعركة لا يفيد .

(١) يقول بعض العلماء الآن أن الطوفان لم يعم الأرض كلها ، بل اقتصر عـلى بلاد الكلدان وارمينيا ، ولكن هـذا القول لم يكن شائعا في الوقت الذي نشبت فيه معركة البروج .

(٢) مانيتون (Manéthon) هو ابو التاريخ المصري بحق . وكان كاهنا مصريا من كبار العلماء ، وكان قد عاش في زمن حكم البطالسة مصر ، فطلبوا اليه ان يضع تاريخا لمصر باللغة اليونانية فوضعه وعليه اعتمد جميع المؤرخين من بعده .

(٣) الفرعون موريس هو الفرعون الذي زعم المؤرخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرخ سترابون ، انه انشا بحيرة موريس (بحيرة قارون) في الفيوم لتكون خزانا للنيل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هـذه البحيرة أنشئت في عهد أمنحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وأنه لا يوجد فرعون مصري يسمى موريس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

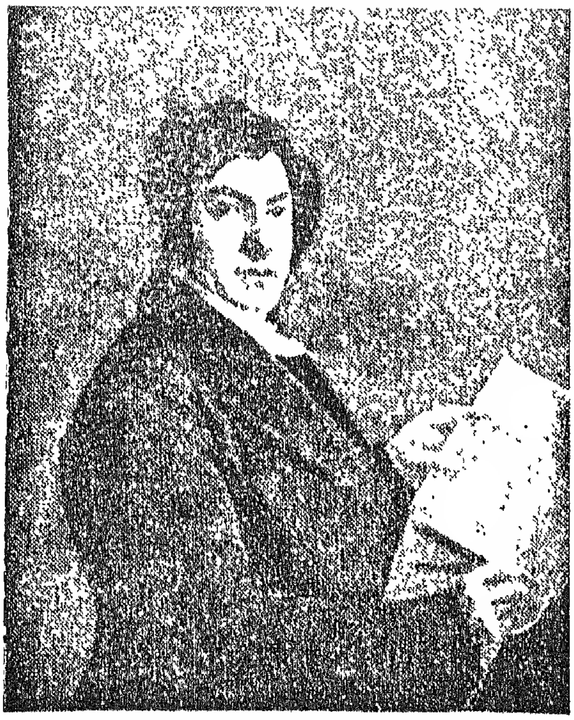

شامبوليون كاشف الحروف الهيروغليفية

وكان شامبوليون محتاجا فى أول أمره لرعاية ملك فرنســـا لويس الثـــامن عشر ، فسعى له الدوق دى بلاكاس (Duc de Blacas) حتى حصل له عليها وعلى إذن بأن يزور متحف تورين والمتاحف الايطالية الأخرى ليـــدرس مجموعات الآثار وأوراق البردى المصرية فيها . وكان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبى شامبوليون معا . فلما حصل شامبوليون على الاذن بدراسة الآثار المصرية فى متاحف إيطاليا اعتراه الخوف من أن يكون فى هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية ، فخلا به ورجا منه الا ينشر شيئا يخالفهما اذا اتفق له أن عثر على شىء مخالف. ففعل شامبوليون وأعطى على نفسه عهدا بالذى يطلبه منه الدوق .

وهنا يقول المدافعون عن شامبوليون إنه أعطى هذا العهد لا لأنه كان بذوى العنى ، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق العريقة فى القدم دمرت بفعل الزمن أو بفعل المفســـرين الذين أغاروا على مصر . ولكننا نحن نرى أن شـــامبوليون فى غنى عن هذا الدفاع ، وأن ليس عليه من حرج فى إعطائه ذلك العهد لأنه لم يؤذ به أحدا ولم يفعل غير أن فتح به الطريق أمامه للبحث العلمى ولتبـــديد الخرافات من الأذهان .

وسافر شامبوليون إلى تورين ، وقرأ فيها كثيرا من الكتابات المصرية ، ولا سيما سلسلة الملوك الذين حكموا مصر . ثم انتقل إلى روما ، وفيها قابله الأب تيستا الذى تقدم ذكره فى معركة البروج فرحب به ترحيبا وصفه شامبوليون نفسه فى أحد كتبه فقال :

« استقبلنى باسطا ذراعيه وهنأنى بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج » .

ثم قابل شامبوليون البـــابا ليون الثـــانى عشر ، ووصف هذه المقابلة فى أحد كتبه أيضا فقال :

« تكرم قداسته بمقابلتى على الرغم من أنه مريض . وكان فى حديثـــه ظاهـــر العطف والملاطفة . وقد قال لى بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إننى أديت بكشوفى خدمة جميلة ، وكبيرة ، وطيبة ، للديانة » .

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقا بأن تخلصوا من كابوس البروج المصرية . ويرى منه أيضا أن شامبوليون نجح إلى الغاية القصـــوى فى طمأنتهم من ناحيته .

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا ، جعل أعيان روما يتسابقون لمعـــرفة شامبوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية ، واقترحوا عليه إلقاء محاضرات فألقاها ، وصارت للحديث عن مصر فى صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة. وأطلق على شامبوليون لقب « المصرى » ، وتنافس الناس فى تلقيب علماء آخرين فى فرنسا وإيطاليـــا وألمانيا وانجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار « المصرى بمعنى الكلمة » ، ولقب العالم الانجليزى ينج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(Young) (١) « المصرى بالتراكم » ، ولقب العالم جوليونوف « المصرى بالالهام » ، ولقب العالم الألمانى سيفارت « المتشبه بالمصرى » .

***

وبينما شامبوليون يتمتع بكل هذا المجد المصرى فى روما ، وبينما الكنيسة مطمئنة إليه ، إذا بصيحة خطرة ترتفع آتية من مدينة تورين . وكان هذا الصائح أمين المتحف فيها . وكانت صيحته أن :

دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة ، وتدمر سلطان التوراة » .

وفى الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسى فى روما ينذر بأن العلم المصرى الذى يعلمه شامبوليون للناس يخالف التوراة خاصة ،وتعاليم الكنيسة على العموم . وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية ، وعين استاذا لهما فى إحدى كليات روما ، فأثرت صيحته بعض التأثير . وتشجع لانسى بذلك فجعل يطبع كراسات يلعن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوربا فى حرب فكرية كانت فى غنى عنها ، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ، ووصف الطريقة التى وضعها شامبوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

ولكن شامبوليون كان ماهرا ، وكان حريصا على الا يفقد ثقة البابا به وبالعلوم المصرية . وكان البابا لا يستطيع ان ينسى انه هو الذى هدم البروج ، فأقنعه شامبوليون بأن صيحة الأب لانسى ناشئة من حسد فى نفسه لكاشف الحروف الهيروغليفية التى أدى كشفها إلى هدم البروج . وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسى من منصبه ، فتقدم إليه شامبوليون يطلب العفو عنه ورده إلى منصبه ، فأجابه البابا إلى طلبه .

وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا فى روما إلى وزير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذى فازه شامبوليون فقال :

« لقد شافهنى البابا بأنه يشكر لشامبوليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية .

ومن قوله لى فى ذلك إن شامبوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التى كانت تزعم أنها عثرت فى برج دندرة على تاريخ لخلق الانسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة » .

ثم استمر السفير فقال :

« وقد استدعى البابا الأب تيستا وعرف منه جميع البراهين التى يثبت بها شامبوليون أولا أن برج دندرة صنع فى عهد الامبراطور كلود والامبراطور نيرون .

« وثانيا أنه لا يوجد أى أثر مصرى يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أى قبل عصر إبراهيم . وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شىء عنها إلا من الكتب المقدسة » .

ومن هذا يستطيع القارىء أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن النجدة التى انجدها بها شامبوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة . ويستطيع القارىء أن يعرف أيضا أن مما كانت تحرص الكنيسة عليه الا يوجد أثر من الآثار المصرية يرجع إلى ابعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح ، لأن هذه هى المدة التى كانت تقدر للزمن الذى بين المسيح وإبراهيم .

***

ورحل شامبوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينيه مافيها من الآثار ويقرأ ما على هذه الآثار من الكتابات .

وقبل أن نخوض فى هذه الرحلة يحسن أن نعرف ماذا كان رأيه الداخلى فى اعتقادات الكنيسة . ويكفى بيانا لهذا أن نقول إنه لما قرا فى متحف تورين بعض الأوراق البردية ، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر ، وعرف من هذه السلسلة أن عدد

---

(١) العالم الانجليزى ينح عالج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامبوليون بسنوات قليلة فنجح فى أربعة حروف او خمسة ، وأخفق فى الباقى . وقد قام فى ذلك جدال بينه وبين شامبوليون. والانجليز يتعصبون له . وقد احتفلوا فى لندن سنة ١٩٣٢ بمرور مائة سنة على وفاته ، ووصفوه حينئذ بأنه كاشف الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح الا فى أربعة حروف او خمسة كما تقدم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملوك الذين سبقوا الأسرة الثامنة عشرة بزيد على المائتين ، كتب فى سنة ١٨٢٥ إلى اخيه شامبوليون فيجاك (١) كتابا يقول فيه :

« ... لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا فى عصور بعيدة فى القدم يعدون أكثر من مائتى ملك حكموا بلادهم قبل ان تحكمها الأسرة الثامنة عشرة ... فهذا هو الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » (٢) .

فهو إذن لم يكن يقول فى سريرته بقول الكنيسة . وإنما كان يسالمها حتى لا تضع العقبات فى سبيله . وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته الكنيسة من التوراة ، هو :

« الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قفاز ملون بلون خاص » .

ومن الطف ما يذكر من مصانعة شامبوليون للكنيسة انه لما كان على وشك الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس ان تؤدى رحلته هذه إلى ما ينافى عقيدة الكنيسة ، فكتب إليه فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه مازالوا يدعون ان العلوم المصرية تهدم الديانة . قال الدوق :

« حينما ابلغنى الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشانك لم يخف عنى المعارضة التى كان عليه أن يقاومها لكى يحصل لك على هذا القرار . فسيكون عليك أنت ان تكذب ، بالأدلة المادية لا بالأقوال ، ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عملك من ناحية ، والمبادىء السياسية التى تدين بها من ناحية أخرى » .

فرد عليه شامبوليون فى ٢٥ يوليه من السنة نفسها بكتاب قال فيه :

« اسمح لى ياسيدى الدوق أن أقول لك إننى سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التى ستعرض لى ، لكى اهدم ماحاول ذوو

(١) (Champollion Figeac)

(٢) ص ١٢٨ من كتاب :

(Autour de la Pierre de Rosette)

النيات السيئة أن يذيعوه لغرض لا أريد أن أبحث فيه ، حول النتائج التى يؤدى اليها كشفى للحروف الهيروغليفية بازاء الديانة ، ثم حول مبادئى السياسية . فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخى محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الدينى . وأما مبادئى السياسية فقد ارشدتنى من تلقاء نفسها إلى مايجب على احترامه وتأييده ، حتى من قبل أن يقوم فى نفسى شعور الاعتراف بالجميل لمسديه فيجعل ذلك الواجب اعظم قوة واشد تقديسا . فسأكون دائما عندما يمليه هذا الشعور بلا أدنى تحفظ » (٣) .

* * *

وتعود بعد ذلك إلى رحلة شامبوليون الى مصر (٤) ، فنقول إنه طاف فيها ، وقرأ الكتابات التى على آثارها ، ولا يهمنا هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هى التى تمس الكنيسة وعقيدتها فى عمر الانسان . فنقول إنه لما طالت

(٣) هذان الكتابان المتبادلان بين الدوق دي بلاكاس وشامبوليون فى ص ١٢٦ و١٢٧ من المصدر السابق .

(٤) لما جاء شامبوليون الى مصر كان من الضرورى له أن يستأذن والى مصر اذ ذاك محمد على باشا الكبر فى زيارة آثارها القديمة ، فسعى حتى قابله واخذ منه الاذن الذى يريده . وقد كتب بعد ذلك الى اخيه شامبوليون فيجاك يصف هذه المقابلة فقال :

« نزلنا فى الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها ادخلنا القاعة التى كان صاحب السمو (يريد محمد على باشا) فيها . وكان جالسا فى احدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفى ملابس بسيطة ، وفى يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لى قامته عادية ، وبدا لى فى مجموع مظهره ما يبعث انشراحا يدعو الى القرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة . وعيناه تنقدان ذكاء . ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطى صدره . فبعد أن سألنا عن احوالنا بكرم فرحب بنا ، ثم سألنى عن خطتى فى رحلتى فشرحتها له بايجاز ، وطلبت الفرمانات التى لابد لى منها ، فمنحنى اياها فى التو ، واعطانى اثنين من قواصيه لمرافقتى فى كل مكان اذهب اليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربناها ، ثم استاذنا من سموه فى الانصراف ، فودعنا مسلما علينا بيده ، مظهرا لنا كثيرا من العطف » .

وطلب محمد على باشا من شامبوليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم ومن الوسيلة التى يقترحها للمحافظة على الآثار المصرية القديمة فقدمها له .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأملاته فى الآثار والكتابات التى عليها ، لم يبق لديه شك فى أنه امام مئات من البراهين كل واحد منها يهدم عقيدة الكنيسة ، ويثبت أن الحضارة المصرية أقدم من التاريخ الذى ترى الكنيسة أن التوراة حددته لخلق الانسان ، ولنوح ، ولابراهيم . ولكنه شاور نفسه فى هل يعلن هذه الحقيقة او يسكت عليها . فرأى بعد كثير من التفكير ان يطوى جوانحه على مافيها ، وحينئذ كتب إلى أخيه فى ٢٥ مارس سنة ١٨٢٩ يقول :

« أقول لك ، فيما بينى وبينك ، إننى حصلت على نتائج ، هى مربكة لى إلى الحد الأقصى من وجوه عدة ، ولهذا يجب إبقاؤها فى الكتمان. وهذه النتائج لم تخالف فى شىء ماكنت أتوقعه وما كان يتوقعه معى « فوريى » ، وقد جلت أمامى أشياء اخرى كثيرة كانت تتردد فى نفسى ترددا مبهما فصارت الآن عندى من الحقائق التى لايتطرق الشك إليها » .

ثم عاد شامبوليون إلى فرنسا ، وكان من المنتظر أن يكتب تاريخا لمصر فلم يكتبه ، وعاجله الموت فى سنة ١٨٣٢ .

***

وبعد أن مات شامبوليون مضت فترة هدوء ظن فيها كثيرون ان الأسرار التى طواها الموت بطيه لن تعرف . ولكن اسم ايمانويل دى روجى (١) ،

ايمانويل دى روجى

(١) (Emmanuel de Rougé)

سطع فى سنة ١٨٤٦ عالما كبيرا من علماء المصرولوجيا . وكانت الحقائق العلمية قد تقدمت، وكانت عقيدة الجماهير فى أرقام الكنيسة قد بدات تتزعزع ، فلم يتردد دى روجى فى أن يذيع فى سنة ١٨٦٣ ترجمة لبعض الأوراق البردية التى فى متحف برلين وأن يجعل بعض عنوانها « قصص منذ ٤ آلاف سنة » . فلماظهرت هذهالترجمةهاج قسوس الكنيسة وجعل بعضهم يكتبون إليه يتهمونه بالمروق من الدين فرد على واحد منهم فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٣ بكتاب قال فيه :

« لقد وجدت فى الانجيل اسبابا قوية للاعتقاد بتقديس المسيح، وهى فى نظرى اسباب كافية ،فلست أجد معها محلا للبحث عن اسباب اخرى . ولكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه من غير أن يمس عقيدتى المسيحية » .

وكتب أيضا فقال :

« يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء من غير أن يفهموها ، وهم لذلك يظنون انهم واجدون فيها قصصا من التوراة مشوهة تشويها مكشوفا (١) . فالنقد السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التى من هذا النوع والتى قامت على أساس الرغبة فى مسايرة الأوهام . وهناك غير هؤلاء قوم لايترددون فى أن ينكروا صراحة قواعد علمنا (٢) ، ويقولوا إنه وهم او اقل .

وبعد أن يتخلصوا بهذه الطريقة من هذا العنصر المربك لهم يؤكدون بجراة انه لايوجد فى مصر اى بناء اثرى يمكن أن يكون اقدم من سنة ١٠١٢ ق م (٤) . فعلى هؤلاء نرد بالكلمة

(٢) لعل دى روجى يشير بذلك الى الاب جيرين دى روشى الذى تقدم انه زعم ان الملك «منا» هو نوح ، وأن ملوك مصر الذين ذكرهم مانيتون هم اولاد نوح الثلاثة ، وأن الفرعون موريس هو مصرايم حفيد نوح .

(٣) يريد بقوله « علمنا » علم الآثار المصرية .

(٤) يشير بذلك الى كاتب انجليزى كان اسمه كرنوال ، وكان قد وضع كتابا فى سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب .

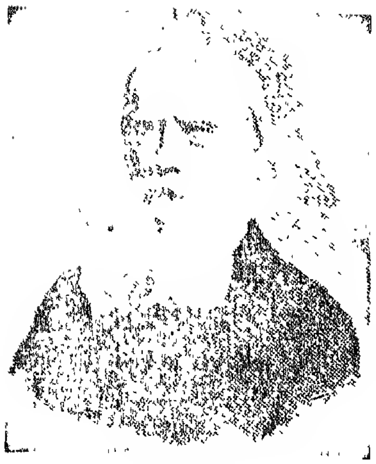

لى بيج رينوف

التى كتبهامصرولوجى انجليزى كبير (١) وهى :
« ما ابعد الجاهل عن سبيل العذر فى جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل فى متناول يده ».

ثم اشار دى روجى إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لايصح تخطيه ، ثم قال :

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها من جراء تقدم علم اياكان. ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذى تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها فى العلم الحديث ، بجانب العلم الذى يبحث فى القوانين الخاصة بسير الكواكب، وبجانب العلم الذى يبحث فى كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئا إلى الايمان المسيحى » .

وبينما كانت هذه الصيحة تدوى فى فرنسا كانت صيحةمثلها تدوى فى انجلترا على يد لى بيج رينوف ، وكان لبسيوس قد حمل علم المصرولوجية فى المانيا. ثم ظهر لينورمان فى فرنسا فى سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة . وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على الثبات فانهارت البقية الباقية منها .

* * *

ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتدت فجأة إلى أنها أخطأت فى اعتبارها تلك الأرقام التى فيها مقدسة وفى استخراجها منها الحساب الذى استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التى بنت الكنيسة عليها نظريتها فى هذا الخطأ ، فيكفى أن نذكر منها سببين :

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الاخرى فى جملتها وفى تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .

والثانى : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لايكون مرادها أن الثانى ولد للأول من غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثانى نسل للأول بحيث قد يكون حفيدا له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التى فى التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذى انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال فى النهاية ان هذا هو الزمن الذى انقضى على خلق الانسان .

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصرى . وبه ايضا اعلنت أنها كانت على خطأ فى تحديدها السنين التى كانت تحددها لخلق الانسان . وبه أخيرا اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ .

* * *

ونقول بعد ذلك إن العلم الحديث دل على أن وجود الانسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات الألوف من السنين . فبعضهم يقدر هذه المدة بنحو أربعين الف سنة ، والبعض الآخر يقدرها بنحو خمسين ألف سنة ، وهناك من يقدرها بأكثر .

(١) يريد لى بيج رينوف (Page Renouf) وسيأتى ذكره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقيدة الحساب بعد الموت

هل كان المصريون يعتقدون أن للانسان روحا ؟

وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لايموت بموت الجسم ؟

وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الانسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على اعماله فى الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

وماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب ؟ وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم فى الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ماعرفه المصريون من ذلك كله فى الوقت الذى عرفوه فيه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

هذه هى الأسئلة التى سنجعل الجواب عليها مدار البحث فى هذا الموضوع .

***

لا ريب فى أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن للانسان روحا ، وأن هذا الروح لايموت بموت الجسم ، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى . وقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول فى أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة ،وتشييد الأهرام الضخمة، وتحنيط الجثة ، والاكثار من التماثيل الحجرية مع الميت فى قبره . فقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجثة من الفناء لكى يجدها الروح كلما دخل عليها القبر ، فاذا تعفنت مع ذلك وأكلها البلى فالتمثال يقوم مقامها ، وإليه يرتاح الروح . وقد يفنى تمثال ويبقى آخر ، ولهذا استكثروا من التماثيل فى القبور، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر .

ولا نطيل فى هذا فهو معروف مشهور .

وكانوا يقولون إن لكلّ انسان شبيها به ، يولد معه ، ولا يرى ، ويسمى « كا » . ويبقى هذا الكا لابسا جسمه مادام حيا ، فاذا فارقه مات . ولم يكن الانسان وحده هو الذى له كا ، بل الآلهة أيضا. وكانوا يرمزون لهذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل فى أساطيرهم إن الاله رع حينما بدأ بخلق الالهين الأولين شو وتفنيت وضع ذراعيه خلفهما فمسهما الكا الذى فيه ، فسرت فيهما الحياة (١) .

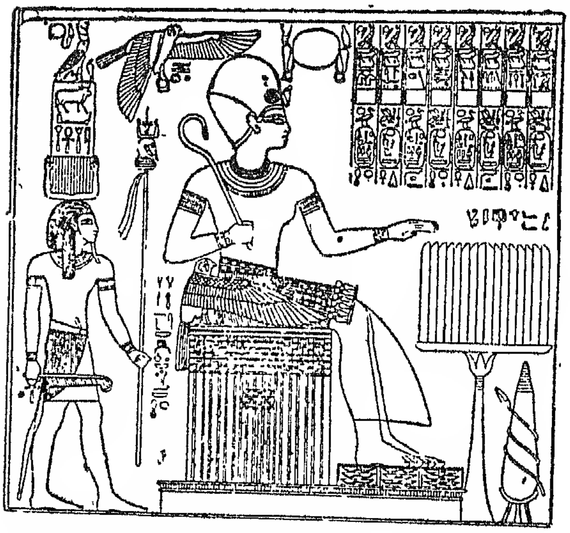

الملك سيتى الاول جالسا وأمامه مائدة القرابين ومن خلفه روحه المسمى « كا » . وقد وجدت هذه اللوحة فى أبيدوس حيث توجد الآن العرابة المدفونة

وللعلماء بحوث طويلة فى هذا الكا وطبيعته ، وهم يرون فيه معانى مختلفة عدها بعضهم أربعة عشر (٢)، ومن أبرز خصائصه أن اتصاله بالجسم يعطيه الحياة، وأن انفصاله منه يؤدى به إلى الموت ، وأنه لايموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت فى قبره .

(١) ص ٢٤٦ من كتاب (La Réligion des Eg.) لأودلف أرمان الذى مر ذكره .

(٢) ص ٢٠٩ من كتاب (Les Mystéres Egyptiens) تأليف (A. Moret) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا نوع أول من الروح . وهناك نوع ثان كانوا يسمونه « با » وكانوا يعتقدون انه هو أيضا يفارق الجسم عند الموت ، ويطير فى الجو ، ويصعد إلى السماء ، ويمكنه أن يتشكل فى أشكال مختلفة . وكانوا يجعلون له وجه صاحبه وجسم طائر . وهو أيضا لايموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت فى قبره .

فقد اعتقد المصريون إذن أن للانسان نوعين من الروح باقيين بعد موته . ولا نخوض هنا فى طبيعة كل منهما ، لأن لذلك بحثا ما زال المتخصصون يعالجونه . والذى يهمنا نحن فى بحثنا هذا هو أن المصريين لم يجعلوا الانسان يفنى بموته ، بل جعلوا له روحين باقيين . فننتقل بعد ذلك إلى البحث فى هل وقفوا عند هذا الحد أو مضوا إلى نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الانسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله فى دنياه ، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات .

* * *

فى سنة ١٩٠٠ عثر المصرولوجى الانجليزى جريفث (F. L. L. Griffith) فى المتحف البريطانى على ملف من ملفات البردى المصرية فترجمه إلى اللغة الانجليزية فاذا هو قصة طويلة تتلخص فى أن فرعونا من فراعنة مصر اسمه أوزيماريس كان له ولد يسمى ساتنى أو ساتمى تفقه فى العلوم حتى كان الملوك يوجهون إلى أبيه أسئلة يطلبون منه الجواب عليها ، فان اجاب فذاك ، وإن عجز كان عجزه دليلا على تفوق بلادهم على مصر . فكان ساتنى يجيب على هذه الأسئلة ويجعل لمصر التفوق على جميع البلاد . وتزوج ساتنى فلم يرزق ولدا فحزن وذهبت امرأته إلى المعبد فصلت ودعت الله أن يرزقها بولد ، ثم نامت ليلتها فى المعبد فرأت فى نومها أن دعوتها ستجاب ، ثم رأت فى ليلة أخرى هاتفا يخبرها بأن ابنها سيكون صاحب كرامات ويطلب منها أن تسميه سينوزيريس .

ثم جاء هذا الولد فحذق علوم الحكمة والسحر وهو لايزال صبيا . وتطلع ساتنى ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غنى تسير من ممفيس إلى الجبل فى موكب حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم ، ثم رأى فى الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج فى حصير ، ولا موكب معه ولا مشيعين ، فالتفت إلى ولده وقال إنه يرجو أن يكون له فى الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغنى لا كمصير هذا الفقير . فقال سينوزيريس إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغنى . فامتعض الوالد ، ولحظ الولد ذلك فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين . ثم قرأ صيغا سحرية وذهب بأبيه إلى مكان فى جبل ممفيس فنزل به الى الدار التى يحاسب فيها الأموات (١) ، فاذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات ، فاجتازا ثلاثا من هذه الدور ثم دخلا الرابعة ، فاذا ناس يذهبون ويجيئون بينما حمير تأكل من خلفهم ، ثم ناس غيرهم يثبون الى طعام معلق فوق رءوسهم فلا يدركونه ، فيثبون ويثبون ، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه .

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحا من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه بينما فى الباب أرواح متهمة فهى واقفة تتضرع . ثم رأيا رجلا منطرحا تحت الباب على ظهره ، ومحور هذا الباب مركز فى عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل ، وهو لاينفك يفتح ويقفل ، والرجل لاينفك يصيح من الألم .

ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات (٢) واحدة بعد أخرى ، والاله الكبير أوزريس جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذى الريشنين (٣) بينما الاله

---

(١) هذه الدار ليس لها اسم معين فى النص المنشور فى كتاب (Les contes populaires de l'ancienne Egypte) أو « القصص الشعبية لمصر القديمة » تأليف ج . ماسبيرو من ص ١٣٠ الى ص ١٣٨ من الطبعة الثالثة . ولكن هذه الدار سمى « الجحيم » فى النص الآخر المنشور فى كتاب : (Causerie d'Egypte) تأليف ج . ماسبيرو أيضا من ص ٢١٣ الى ص ٢٢١ .

(٢) هؤلاء المنادون يشبهون محضرى المحاكم الآن .

(٣) يقول ماسبيرو فى الحواشى التى وضعها لهذه القصة ان المصريين كانوا يسمون هذا التاج « يانف او يوتف » وانه مكون من قلنسوة بيضاء ومن ريشتين من ريش النعام احداهما فى الجهة اليمنى والثانية فى الجهة اليسرى » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اوزريس الاله الأكبر لمحاكمة الأموات

أنوبيس (١) واقف الى يساره والاله توت (٢) الى يمينــه والآلهة الآخرون الذين يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون يمينا ويسارا والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات . فمن رجحت سيئاته حسناته القى إلى الوحش أماييت (سيأتى تعريف هــذا الوحش) يفترسه ، ومن رجحت حسناته سيئاته قيد الى حيث الآلهة وصعدت روحه إلى السماء ، اما من تعادلت حسناته وسيئاته فلا يفترسه الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة .

ونظر ساتنى فرأى على مقربة من أوزريس رجلا حسن البزة مرفوع المنزلة . فالتفت إلى أبيه وقال : « اترى هــذا الجالس بجانب أوزريس ؟ إنه الفقير الذى شـاهدته مدرجا فى حصير وليس فى جنازته أحد من المنيبعين . لقد جىء به إلى هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانيــة الأولى . وكان الاله توت قد سجل له فى سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية ، فأمر أوزريس أن يعطى كل ماكان مجهزا به ذلك الغنى الذى رأيت جنازته مشيعة بمظاهر التكريم وأن ترفع منزلته بين الآلهة ، أما الغنى فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية فقيد إلى الجزاء ، وهو الذى رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى ، وسمعته يصيح من الألم » .

وعلى هــذه القاعدة ، قاعــدة وزن الحســنات والسيئات ، جعل الولد يفسر لأبيه كل مارأياه من المناظر ، ثم أخذ بيده وعاد به إلى وجه الأرض من حيث جاء (٣) .

* * *

وروى ديودور الصقلى فيمــا رواه عن محاكمة الأموات فى مصر ، أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت أبلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه ومعارفه ولقضاة مكلفين أن يحاكموه ، فاذا جاء يوم الدفن حملت الجثة فى قارب يجتاز بها بحيرة ، وجلس القضاة والمعارف ينتظرونها عند الشاطىء الثانى ، فاذا وصلت الى المرسى أبيــح لكل مدع على الميت أن يتقدم للقضاة بدعواه ، فاذا ثبت أن الميت أساء فى حياته حكم القضــاة بحرمان جثته من مدفنه ، أما إذا لم يتقدم أحد أو اذا ثبت أن المدعى كاذب فأهل الميت يخلعون حدادهم ويثنون على ميتهم ، فيجيب الجمهور بالتصــفيق ويتمنى للميت الخلود مع الأبرار . والعقاب الذى ينزله القضاة بكل مدع كاذب فى هذه الحالة عقاب شديد رادع .

هكذا روى ديودور ، وهو مخطىء ، وقد التبس الأمر عليه ، فأخذ ماكان المصريون يعتقدونه حسابا يؤديه الميت فى الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة ، على أنه حساب يؤديه أمام قضاة من الأحياء قبل أن يدفن . فما كتبه ديودور فى هذا يجب أن يضاف إلى الأشــياء الــكثيرة التى أخطأ المؤرخــون اليونانيون

(١) أنوبيس هو مدير دفن الأموات ودليلهم فى الدار الآخرة .

(٢) توت أو تحوت هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس . وكان المصريون يزعمون أنه هو الذى علمهم الـكتابة والقوانين والحكمة وجميــع المعارف . وهو الذى يقيد وزن قلب الميت فى محكمة أوزريس ويقدم تقارير عن أعمال الميت الى قضاة المحكمة . وهو المعبود الأكبر فى مدينة هرموبوليس أو الأشمونين .

(٣) ليس ما أبتناه هنا ترجمة للقصة بل هو تلخيص لها كما قلنا . والقصة طويلة فمن أرادها فليطلبها فى المصدرين اللذين أشرنا اليهما من قبل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والرومانيون فهموها فى ما كتبوه عن المصريين . ولكن خطأ ديودور لايمنع من أن فى روايته حقيقة بارزة هى أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته ، معاقب على الأولى ، مثاب على الثانية . وهذه العقيدة هى بعينها التى رأيناها فى قصة ساتنى وابنه سينوزيريس .

* * *

ونقول بعد ذلك إننا لم نسق هنا قصة ساتنى وولده ، ولا رواية ديودور ، لأنهما الدليل على عقيدة الحساب بعد الموت ، كلا فان الدليل على هذه العقيدة نصوص صريحة وجدت فى قبور المصريين منذ أقدم العصور . وما ذكرنا قصة ساتنى وولده(١)إلا للدلالة على أن هذه العقيدة لم تكن فلسفة يتلقاها الكهنة فى المعابد أو يطلبها طلابها فى مصادرها الخاصة ، بل كانت شائعة فى سواد الشعب تدبج حولها القصص والأحاديث .

فقد وجدت هذه العقيدة فى نصوص الاهرام (٢) التى ترجع الى الأسرتين الخامسة والسادسة (٣). وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم فى الكثير منها عن عقائد وتقاليد تذهب فى قدمها إلى أبعد من هاتين الأسرتين ، بل الى ما قبل عصر الأسر .

ففى هذه النصوص أن الملك بعد وفاته يصعد الى السماء ثم يأخذ مكانا له فى سفينة رع (٤) ليجوب السماء معه (٥) ، ولكنه لايحصل على هذه المرتبة ، ولا تنفتح أمامه أبواب السماء الا بعد أن يؤدى حسابا أمام محكمة رع عن أعماله فى الحياة الدنيا ، وبعد أن تصدر المحكمة حكمها بأنه أحسن فى أعماله هذه وصار يستحق الثواب .

وهنا يقول مورى إن نصوص الاهرام صريحة فى ذلك ، وهذه هى الفقرة ١٢٣٨ منها :

« إن أتوم يدعو الملك الى السماء ليحيا فيها ... لقد فحصت أعمال الملك فلم يوجد فيها سوء . وهذه شهادة ذات معنى كبير أمام وجهك يا رع » .

ويمضى مورى بعد ذلك فى ذكر النصوص فى هذا الموضوع ، ومؤداها ان الملك أوناس (٦) يطلب حكم الآلهة على اعماله فى الدنيا ، فتجتمع المحكمة وتصدر حكمها ، وهو يقضى ، كما تقدم ، بأن « أعمال الملك فحصت فلم يوجد فيها سوء » . وبناء على هذا صار الملك يستحق أن تفتح له أبواب السماء وأن يأخذ مكانا له فى سفينة رع .

وفى الفقرة ٣١٦ من هذه النصوص أنه لما مثل أوناس أمام الوحش الرابض فى المحكمة اعتراه الخوف ، ولكنه خرج بعد ذلك ومعه الهة الحق والعدل ، ولم يلق فى النيران . فمعنى ذلك انه لو كانت المحكمة قد حكمت ضده لكان العذاب الذى ينتظره أن يترك للوحش يفترسه أو يلقى فى النيران .

فهناك إذن ، منذ أقدم العصور ، حساب ثم ثواب أو عقاب . وهذا العقاب قد يكون فى عذاب افتراس الوحش أو عذاب النار .

وقد قال بعض الباحثين فى نصوص الأهرام هذه إنها ذكرت محاسبة الملك على أعماله فى الدنيا وصعوده الى السماء ، ولكنها لم تذكر شيئا مثل ذلك لأحد غير الملك . فكأن الملك هو وحده الذى يحاسب ويصعد الى السماء ، أما من عداه من أفراد الرعية فلا . ولكن ارمان اثبت من نصوص الأهرام نفسها أن هذا القول خطأ (٧) . لأن النصوص تذكر بالعكس فى فقرات منها

---

(١) هذه القصة وضعت فى العصور الاخيرة للمدنية المصرية فهى حديثة .

(٢) نصوص الاهرام هى التى وجدت فى أهرام الاسرتين الخامسة والسادسة . والذى وجدها هو ماسبيرو فى سنة ١٨٨١ ثم ترجمها الى الفرنسية فى سنة ١٨٨٢ . ومن بعده ترجمها الى الالمانية العالم الالمانى سيت(Sethe) فى سنة ١٩٠٨ . ثم ترجمها ايضا العالم سبلرز (L. Spleers) . وعلى هاتين الترجمتين الاخيرتين اعتمد مورى فترجم الى الفرنسية ما اقتبسه منها واعتمدت انا على ترجمة مورى .

(٣) الاسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ الى نحو سنة ٢٥٤٩ ق م (بحساب التاريخ القصير) . والاسرة السادسة حكمت من نحو سنة ٢٥٥٠ الى نحو سنة ٢٣٦٠ ق م .

(٤) سفينة رع هى السفينة التى كانت الاساطير القديمة تقول ان الاله رع (الشمس) يخترق بها السماء كل يوم .

(٥) الفقرة ١١٧١ من نصوص الاهرام فى ص ١٥٣ من الجزء الثانى من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) لمورى .

(٦) الملك أوناس هو آخر ملوك الأسرة الخامسة . وقد ذكر اسمه فى هذه النصوص لأنها منقوشة فى هرمه ، ولأنها نقشت فيه من أجله .

(٧) ص ٢٤٥ من كتاب (La Réligion des Eg.) لارمان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الميت الذي يرقد تحت الأرض والتراب والرمل» ، فميت كهذا ليس له ضريح مبنى بالطوب ولا هرم مشيد بالحجارة ، فهو ليس ملكا . وهناك فوق ذلك فقرة أخرى تذكر من مآثر هذا الميت أنه « لم يسب الملك قط » ، فبديهى أنه لا بد أن يكون شخصا غير الملك .

ولهذا يرى ارمان أن عقيدة الحساب كانت تشمل غير الملك .

على انه فى هذا الوقت نفسه كانت عبادة أوزريس قد اخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية تقبل الطبقات كلها عليها . ونقول « فى هذا الوقت نفسه » لأن نصوص الأهرام أشارت اليها ، فدلت بذلك على أن هذه العبادة كانت قد بلغت شأنا رأى معه كهنة هليوبوليس ان من الخير لهم أن يقحموها على عبادة رع وأن يمزجوهما معا .

وعبادة أوزريس ، أساسها الأول أن كل انسان ، ملكا كان أو فردا عاديا ، مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا امام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزريس نفسه ، ويساعده فيها توت وأنوبيس وحوريس ومعات واثنان واربعون قاضيا . فاذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفىء بالنعيم الخالد وصار مثل أوزريس . أما اذا حكمت المحكمة بأنه أساء فى حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقى فى النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب .

وقد راجت هذه العقيدة وراجت معها عبادة أوزريس فى زمن الدولة الوسطى ، ثم راجتا اكثر فى زمن الدولة الحديثة ، لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل اوزريس فى الحياة الأخرى . وكان أوزريس قد نشأ فى مدينة بوزريس (وهى الآن بوصير أو أبو صير بمديرية الغربية) فانتقل الى مدينة أبيدوس (وهى الآن العرابة المدفونة بمديرية جرجا) فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدسة يرغب الملوك والأمراء وقواد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة فى أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها ، فاذا لم يجدوا أرضا لهذا الغرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم فى مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التى تقام على القبور .

وفيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمى « بكتاب الموتى » حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت . وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها فى خلق الكون ، وبعضها فى بيان الأخطار التى يستهدف لها الميت بعد موته ، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون انها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار ، وبعضها — وهو مايهمنا فى موضوعنا هذا — فى محاسبة الميت على أعماله فى الدنيا أمام محكمة أوزريس .

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها فى كتاب الموتى ، وعلى التوابيت ، رسم محكمة ومحاكمة وميزان . وفى هذه المحكمة يجلس أوزريس على عرشه حاملا عصاه وكرباجه ، ومعه اثنان واربعون قاضيا من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة الى اثنين واربعين اقليما فكأن كلا من القضاة يمثل إقليما من هذه الأقاليم . فاذا جىء بالميت تسلمه انوبيس وأخذ قلبه فوضعه فى إحدى كفتى ميزان ، ووضع فى الكفة الأخرى تمثال الالهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) أوريشتها ، ثم وقف الاله توت بجانب الميزان وفى يده اليمنى قلم وفى يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان ثم يرفعها الى أوزريس . ويقف بالقرب من توت الوحش « أماميت » ، وهو وحش له رأس تمساح وجسم اسد ، متأهبا لأن يلتهم الميت الذى يصدر الحكم بالتهامه . وفى بعض الرسوم تضاف نيران الى المحكمة فى مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب فى الميزان يمثل أعمال الميت فى حياته . وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر .

* * *

وكتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التى كان الميت يحاسب عليها امام اوزريس . فقد وجد فى هذا الكتاب تضرع من الميت الى قلبه حينما يؤخذ منه ليوضع فى الميزان . وهو يقول فيه :

« أيها القلب الذى اخذته من أمى ، وولدت به ، وعشت معه على الأرض ، لا تشهد على . لا تكن خصمى أمام القوى المقدسة . لا تكن ثقيل الوزن ضدى » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم وجد فى كتاب الموتى أيضا دفاع يدافع به الميت عن نفسه حينما يأخذ انوبيس فى وزن أعماله . وهو دفاع فيه معان سامية من معانى الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت . فى هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها الى اوزريس والقضاة الذين معه (١) :

« لقد جئت إليك اجلب الحقيقة واطرد الخطيئة .

« إننى لم اقارف الشر ، ولم اعتد ، ولم اسرق ، ولم أقتل غدرا ، ولم امس القرابين ، ولم اكذب ، ولم ارسل دموع احد ، ولم اتدنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم اتلف ارضا مزروعة ، ولم اقذف ، ولم اترك الغضب يخرجنى الى غير الحق ، ولم أزن ، ولم أرفض أن اسمع كلمة العدل ، ولم أسىء الظن بالملك ولا بأبى ، ولم الوث الماء ، ولم احمل سيدا على أن يسىء الى عبده ، ولم احلف كاذبا ، ولم أغش فى الميزان ، ولم امنع اللبن عن افواه الرضع ، ولم اصد طيور الآلهة ، ولم ارد ماء حين الحاجة اليه ، ولم اسد قناة رى على غيرى ، ولم اطفىء نارا يجب ان تشغل ، ولم يخطر على بالى ان استخف بالآلهة . إننى طاهر ، طاهر » (٢) .

وهذا الدفاع يسميه شامبولبون « دفاعا انكاريا » لأن الميت يعزو فيه لنفسه الحسنات والفضائل فى صورة انكار للسيئات والرذائل .

ثم يخاطب الميت القضاة الاثنين والأربعين فيقول (٣) :

« لكم الحمد أيها القضاة . إننى أعرفكم واعرف اسماءكم . لست أسقط امام سيفكم . انكم لا تعلنون شيئا ضدى لهذا الاله الذى انتم حاشيته . لا شأن لكم بى . إنكم تقولون الحقيقة فى أمرى امام سيد كل شىء . لأننى اتبعت الحق والعدل فى مصر ، ولم أجدف فى حق الاله ، ولم يجد الملك المعاصر لى شيئا يأخذه على . لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون فى قاعة الحقيقتين (٤) والذين ليس فيهم اثر من كذب ، وهم يعيشون من الحقيقة امام حوريس المستقر فى شمسه . انقذونى من « باباى » (٥) الذى يأكل احشاء العظماء فى يوم الحساب الكبير . هاكم انظروا : أننى آت اليكم بلا خطيئة ولا سوء . وقد فعلت مابرضى الناس والآلهة . وارضيت الاله بما يحبه . وقد أعطيت خبزا للجائع ، وماء للعطشان ، وثيابا للعارى ، وزورقا لمن ليس له مركب . وقد قدمت قرابين للآلهة ، وهدايا جنائزية للممجدين (٦) .

« انقذونى واحفظونى ، انكم لا تتهموننى امام الاله العظيم . اننى رجل ذو فم طاهر ، ويدين طاهرتين ، والذين يروننى يقولون لى : مرحبا بقدومك ، مرحبا بقدومك » (٧) .

---

(١) ترجمت هذا الدفاع عن كتاب :

(Le Nil et la Civilisation Eg.)

ص ٤٦٥ لمؤلفه مورى . وقد قال مورى ان هذا النص تلخيص وليس ترجمة حرفية . ويوجد فى كتاب :

(La Réligion des Egyptiens)

ص ٢٦٤ و٢٦٥ لمؤلفه ارمان نص يماثله ولا يختلف عنه الا قليلا .

(٢) مما يستحق الملاحظة هنا أن هذه السيئات التى يتبرأ منها الميت تنقسم الى انواع . فنوع منها خاص بالآلهة وهو مس القرابين ، وذبح الحيوانات المقدسة ، وصيد طيور الآلهة ، والاستخفاف بالآلهة . ونوع خاص بالملك وبالأب وهو سوء الظن بهما . ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر ، والاعتداء ، والسرقة ، والقتل غدرا ، واسالة الدموع ، واتلاف الأرض المزروعة ، والقذف ، والزنا ، والامتناع عن سماع كلمة العدل ، وتلويث الماء ، وحمل السيد على أن يسىء الى عبده ، والغش فى الميزان ، ومنع اللبن عن افواه الرضع ، ورد الماء حين الحاجة اليه ، وسد قناة الرى على الغير ، واطفاء النار التى يجب أن تشعل . وهناك نوع ثالث خاص بتهذيب النفس قبل أن يكون خاصا بالغير وهو التدنس ، وترك الغضب يخرج الانسان الى غير الحق ، والكذب ، والحلف كذبا . ويختم الميت دفاعه بكلمة هى جماع الفضائل النفسية وهى قوله « انى طاهر ، طاهر » .

(٣) هذا الخطاب مترجم من كتاب :

(La Réligion des Eg.)

ص ٢٦٦ و ٢٦٧ لمؤلفه ارمان .

(٤) المراد بالحقيقتين حقيقة للوجه القبلى وحقيقة للوجه البحرى . وكانت محكمة أوزريس تسمى قاعة الحقيقتين .

(٥) فسر ارمان كلمة « باباى » هذه فقال . ان المراد منها رفيق لاله الشر سيت أو سيت نفسه .

(٦) الممجدون هم الأموات الذين كانوا صالحين فى الدنيا وينالون هذه المنزلة فى الآخرة .

(٧) فى هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مرت فى الدفاع الانكارى . وهذا يدل على ان هذا الدفاع الانكارى لم يجمع كل ما كان المصريون يعتبرونه فضيلة وتهذيبا نفسيا . وستأتى شواهد اخرى تؤيد هذه الحقيقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فذلك الدفاع الانكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه ، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت الى القضاة ، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب ، وفيهما الدليل القاطع على ان الميت يتقدم الى الحساب وهو ممتلىء خوفا من أن تكون أعماله فى الدنيا مؤدية به الى العقاب . ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير وتهذيب النفس والاستقامة فى معاملة الغير .

* * *

ويحسن هنا ان نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين ، فلنستعرض شيئا مما كتبوه فى ذلك ، فى قبورهم ، تعريفا بأشخاصهم وبسلوكهم فى الحياة .

ففى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة ، اى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه نصوص الأهرام ، نقش احد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسىء الى أحد فى حياتى ، لأننى أريد ان تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما أكون امام الاله الكبير » (١) .

وظاهر من رغبته فى أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما يكون أمام الاله الكبير ، انه يريد ان تجد محكمة أوزريس انه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول :

« اطعمت الجائعين وكسوت العارين ، ولم امس قط شيئا لغيرى بحيث لم يشكنى احد قط الى اله مدينتى .. ولم يحدث فى عهدى ان شكا احد الى الآلهة من اعتداء قوى عليه » (٢) .

وكتب حاكم لاقليم اسيوط يقول :

« كانت عندى غلال وافرة فلما حلت بالبلاد المجاعة ، وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل ، وسمحت لكل انسان بأن يأتى ليأخذ غلالا من عندى واعطيت الزوجة والأرملة والولد ، واعفيت الأهالى من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتى كان آبائى قد سجلوها فى دفاترهم » (٣) .

وكتب حاكم لاقليم ادفو يسمى بيبى نيفرقصة حياته فذكر ان أباه أرسله الى بلاط الملك بيبى الأول ليتربى فيه مع ابناء حكام الأقاليم ثم عينه الملك مرنرع (هو احد ملوك الأسرة السادسة) أمينا لمحصولات الوجه القبلى ثم مديرا للمعابد فى أقليم ادفو . وبعد ذلك اخذ بيبى نيفر يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الأقليم (إقليم ادفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت أقداح اللبن . ومن غلال الأوقاف الأبدية (٤) . اعطيت الجائع واصلحت شأن كل رجل وجدته عائشا من غلال غيره وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد .. وقد انقذت الفقير من يد الغنى واصلحت بين الأخوة المتنازعين » (٥) .

كل هذا فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . فنطوى الآن هذا العهد وننتقل الى عهد الأسرة الثانية عشرة (من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد) .

ففى عصر هذه الأسرة وفى عهد الملك امنمحت الأول كان حاكم الاقليم السادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا) اميرا يسمى امينى . وقد حدثنا هذا الحاكم فقال : إنه كان قائدا لجيش هذا الأقليم ، ثم قائدا لحملة حاربت فى النوبة ، ثم لما عاد عين حاكما للأقليم . وحينئذ اخذ يحدثنا بسيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الاقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدى ، لم اعتد على بنت من بنات الشعب ، ولم اضطهد ارملة ، ولم أرد زارعا ، ولم احبس راعيا ، ولم يقع قط أن اجبرت عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندى .

---

(١) ص ٦٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب برستيد : (A. History of Egypt.)

(٢) المصدر السابق جزء أول ص ٦٧ من الترجمة الفرنسية

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) الاوقاف الابدية هى الأملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغير ذلك من الاغراض الدينية

(٥) كتاب (Le Nil et la Civilisation Egyptienne) ص ٢٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لم يوجد فى زمنى بائس ولا جائع . وقد كنت فى سنى الجدب أحرث جميع أرض الاقليم الى حدوده الجنوبية والشمالية وأحرص على أن أجعل أهله يعيشون ، وأسعى فى ايجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .

« وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة . ولم أحاب كبيرا لأظلم صغيرا فى كل ما أعطيته . وفى السنين التى كان النيل يأتى فيها كبيرا (أى عالى الفيضان) فيحمل للناس المحصولات والغنى ، لم أطالب بالمتأخرات من الضرائب » (١) .

وعند هذا الحد من نقل الشواهد نقف ، لأن ما نقلناه منها يكفى للغرض الذى نرمى اليه . وبحسبنا أن نقول ان هناك عشرات من أمثال مانقلناه هنا يستطيع من يشاء أن يطلبها فى مصادرها .

* * *

لم نقصد من هذه الشواهد أن نقول ان المجتمع المصرى كان فى العصور التى كتبت فيه مجتمع فضيلة كله ، بل لم نقصد أن هذه الشواهد نفسها خالية من الرغبة فى الزهو والتمدح ــ لم نقصد هذا وليس يخطر فى بالنا إلا أن المجتمع المصرى كان كغيره من المجتمعات يعرف الفضيلة والرذيلة ، ويعرف العدل والظلم ، ويعرف البغى والتقوى . ولكن الذى نقصده ، والذى لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ، ويدين بأن من وراء هذا الحساب ثوابا وعقابا . وكان يتأثر بهذه العقيدة الى حد بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا ، وهو أول ابراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على اعمالنا فى الحياة الدنيا ... ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد

(١) المصدر السابق ص ٢٧٨ . وكتاب :
(A History of Egypt.)
لبرستيد ص ١٦٣ من الترجمة الفرنسية مع اختلاف فى كلمات قليلة .

كان البابليون والاسرائيليون (٢) فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون الى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » (٣)

* * *

وننتقل بعد ذلك الى جانب آخر من جوانب هذا البحث ، وهو مصير الميت بعد محاسبته على أعماله فى الدنيا .

لقد ظهر أن هذا المصير إما أن يكون الثواب أو العقاب . فعلى أية صورة من الصور كان المصريون يفهمون الثواب ، وعلى أية صورة أخرى كانوا يفهمون العقاب ؟

تقول نصوص الأهرام ان الثواب هو الصعود الى السماء بعد رحلة جمة المخاطر ، للاقامة فيها مع الآلهة ، أو للاقامة مع الاله رع فى سفينته . وهؤلاء الذين يثابون بالاقامة فى السماء يسمون « المجدين » أو « السعداء » . والمكان الذي يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقى أو جانبها الشرقى البحرى ، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا فى هذين الجانبين نجوما ثابتة ، فاطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون الى السماء .

ولم تكتف نصوص الأهرام بهذا الاجمال فى تصوير دار النعيم ، بل مضت الى التفصيل فذكرت أن المجدين يقيمون فى جزر فى السماء فيها حقل يسمى « حقل الطعام » . ومن هذا الحقل يتناول المجدون اطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تنفد . وهناك حقل آخر يسمى « حقل يارو » (٤) ، وشجرة جميز عالية تسمي « شجرة الحياة » يجلس اليها الآلهة ويأكلون منها ، هم والمجدون .

وليس هذا كله ما فى النعيم السماوى ، بل فيه الى جانب ذلك أن السماء (نوت) والعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد الى السماء حين وصوله اليها ،

(٢) لعله يقصد اجداد الاسرائيليين .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٦ .
(٤) يقول ارمان فى ص ٢٥١ من كتابه :
(La Réligion des Egyptiens)
ان كلمة « يارو » معناها فى اللغة المصرية نبات الخيزران .
ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى « حقل يالو » .

ثدييهما ليرضع منهما، فمتى رضع عاد صبيا .

وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر . وصحته تزداد تحسنا على مر الأيام، فهى اليوم احسن منها امس، وتكون غدا احسن منها اليوم .

هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم الذى يثاب به المحسنون فى الدنيا . أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب ان الميت يجلس فى قاعة امام أوزريس، ويخرج الى حقل يارو، ويأكل خبزا وفطائر، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة اذرع، وخدام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه . وله ان يدخل العالم السفلى ويخرج منه . وله أن يقيم فى حقل يارو أو فى حقل الطعام، وفيهما يكون ممجدا يزرع ويحصد، وتكون له نساء يتمتع بهن، ويعمل كل ماكان يعمله على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من أنواع السعادة فى الحياة الأخرى فقال احدهم، ويسمى « ناخت ــ مبن » فى لوحة محفوظة فى متحف اللوفر، إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له، وأن يطير روحه فوق الأشجار التى زرعها، وان يستنشق النسيم العليل تحت شجر الجميز الذى زرعه، وان يأكل من ثمر هذا الشجر، وأن يكون له فم يتكلم، وان يصعد إلى السماء وينزل الى الأرض من غير أن يقف فى سبيله عائق، والا تسجن روحه، وان يكون من المكرمين المدوحين، وان يحرث ارضه فى حقل يارو، وأن يصل إلى حقل الطعام، وان يأتيه الخدم بأنواع الخبز والشراب وجميع المأكولات التى يأكل منها رب الأبدية، وان يأكل من اللحم الذى على مائدة الاله العظيم .

وكتب اقارب رجل يسمى « با ــ هيرى » كان اميرا لمدينة الكاب يتمنون له فى الحياة الأخرى :

« أن تكون له يد طولى على الخبز والماء والهواء، وأن يتحول كما يريد إلى عنقاء (١) أو قطاة أو باشق أو مالك الحزين ... وأن يتكلم فمه، وتمشى قدماه، وتتحرك يداه، ... وأن يكون قلبه قريبا منه، وأن يصعد الى السماء » .

وفى تمنيات اخرى يتمنى الميت أن تكون له حقول وقطعان وعبيد من الرجال والنساء، وأن يبعث فى الحياة الأخرى شابا موفور القوة والصحة .

هذه بالاجمال هى الصورة، أو الصور، التى كان المصريون يتصورون بها دار الثواب، أى الجنة .

ويلاحظ أنها تميل فى كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التى يتمناها المصرى لنفسه فى الدنيا . فحقل الطعام ذو الأطعمة الشهية التى تتجدد ولا تنفد، وشجرة الجميز التى تسمى شجرة الحياة، والخبز، والفطائر، وحقل القمح والشعير الذى يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع، هذه كلها صور متفرعة من الحياة المصرية . ولم يكتف « ناخت ــ مبن » بهذا، فجعل يتمنى ان يجد فى الآخرة كل ماكان له فى الدنيا من شجر وثمر وبحيرة وحقل وخبز وشراب . يضاف إلى هذا كله أن تكون للميت نساء يتمتع بهن وان يبعث شابا وان يكون دائما فى صحة جيدة . ولا نحتاج أن نقول إن كثيرا من هذه الصور لايزال باقيا الى اليوم .

اما العقاب فقد تقدم أن من صوره وحشا له راس تمساح وجسم اسد يلتهم المذنب، ونارا يلقى المذنب فيها . وهناك صورة اخرى هى أن يبقى المذنب فى قبره فريسة للجوع والعطش، محروما من رؤية الشمس . وفى بعض الأحيان يكون مع القضاة الاثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزريس فى محكمته سيوف يضربون بها المذنبين (٢) .

وتدل قصة ساتنى وولده التى أشرنا اليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه ايضا للعذاب، منها تعذيب الميت تعذيبا دائما بتركيز محور باب على عينه، وهذا الباب يفتح ويقفل، والميت يصيح من الألم كلما فتح أو اقفل . ومنها تعليق

(١) المراد بالعنقاء طير خرافى كانت الأساطير تزعم أنه يعيش مئات من السنين .

(٢) سبقت الاشارة الى هذه السيوف فى خطاب الميت للقضاة فى هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طعام فوق رءوس المذبين ، وهؤلاء المذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه ، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم .

ونصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة فى أن النعيم الذى ينعم به المستحقون للثواب فى الجنة هو نعيم خالد . فلسائل أن يسأل : وهل العذاب الذى يعذب به المذنبون خالد أيضا ؟

والجواب على هذا أن قصة ساتنى وولده تقول إن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه . فمن البديهى أن استمرار الميت على الشعور بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدد بعد كل دورة للباب أو دورات .

واستمرار العذاب مفهوم بسهولة فى حالة الميت الذى يترك فريسة للجوع والعطش محروما من رؤية الشمس ، ومفهوم فى حالة الميت الذى يعلق الطعام فوق رأسه فكلما قفز ليتناوله بعد عنه . أما الحالات التى تحتاج إلى شىء من الوضوح من هذه الناحية فهى حالة الميت الذى يلتهمه الوحش ، والميت الذى يلقى فى النار ، والميت الذى يضربه القضاة بالسيوف . وعندى أن العذاب فى هذه الحالات يجب أن يكون متجددا بعد الذى رأيناه فى النص على خلود النعيم فى الجنة ثم النص على تجدد العذاب فى كثير من الحالات .

***

وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذى بذله المصريون فى القول بخلود الروح ، وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطا بالانسان خطوة واسعة فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، فى وقت كان الانسان فيه لايزال قريبا من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار ، والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرون فضل مصر فيه . ولكن هل كان ممكنا أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يمحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟ ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للانسان من غير أن يتعثر فى سبيل البحث عنها ، بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ، فقام فيهم قوم يقولون إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التى يستهدف لها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتيه الحكم بالبراءة من محكمة أوزريس مهما تكن ذنوبه ، وتستطيع أخيرا أن تعطيه النعيم الخالد ولو كان لايستحقه . وكانت الأمم كلها فى ذلك الوقت تؤمن بالسحر وتكاد تراه فى كل شىء . وكانت تجعل للساحر قدرة على تسخير الآلهة لارادته .

وكانت الصيغ السحرية التى من هذا النوع قليلة فى نصوص الاهرام ، فصارت كثيرة فى كتاب الموتى ، وصارت النسخ التى توضع مع الأموات فى هذا الكتاب كثيرة أيضا ، فدل ذلك على أن تجارة هذا النوع من السحر راجت .

ولا نزاع فى أن هذا السحر الذى يسحر الآلهة ، ويعطى الميت حكما بالبراءة لا يستحقه ، ونعيما خالدا لا يستحقه ، معطل للقوة التهذيبية التى لعقيدة الحساب بعد الموت . ولكن هل عطلها فى الواقع ، فأفسد الايمان الدينى ، وأتلف الأخلاق ، وأباح لكل أحد أن يرتكب ما استطاع من المعاصى والآثام ؟

علينا أن نسمع فى ذلك مايقوله المصريون أنفسهم ، فقولهم هو الجواب الفصل .

كان من ملوك الأسرة التاسعة ملك عاقل حكيم ، أراد أن يترك لابنه الملك « مرى — كا — رع » وصية ، فكتب فيها يقول :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لانه سيؤدى حسابا عن أعماله » .

ثم استمر فقال :

« إن القضاة المقدسين الذين يحاكمون الميت لايتسامحون فى تطبيق الشريعة ، فويل حينئذ للميت من متهميه » .

والقضاة المقدسون هنا ، هم قضاة محكمة أوزريس . والملك يقول إنهم لايتسامحون ، ثم يقول فويل حينئذ للميت من متهميه . فهذا صريح فى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضاة المقدسين لايتأثرون بالسحر ، ولا يعرفون غير الحق والعدل يقيمون عليهما الحساب .

ثم استمر الملك فقال :

« لاتغتر بامتداد السنين ، فان حياة الانسان على الأرض ليست فى نظر القضاة المقدسين سوى لحظة قصيرة . سينشر الانسان حين وصوله الى الشاطىء الثانى (١) ، وستكون أعماله مجتمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لاشك فيها . فمجنون من يحتقرها . أما الذى يأتى بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة » .

وهذا قوى الدلالة فى المعنى الذى نريده . واستمر الملك أيضا فقال :

« إن الحياة على الأرض تمضى على عجل ... وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكهم . فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى . من جاز الحساب أمام أوزريس مضى إلى الحياة الأخرى ، اما من تساهل مع نفسه فى الحياة الدنيا فلا مفر له من التدمير » (٢) .

ثم انظر ماذا قال أيضا . قال :

« إن الفضيلة التى يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له . على انه ينبغى مع ذلك للرجل أن يفعل ماينفع روحه فى الحياة الأخرى، فيقدم القرابين لله . فان الله يعرف من يفعل له شيئا » (٣) .

وفى هذا كله لايظهر أثر للسحر يمكن التعويل عليه وقت الحساب . وإنما المعول عليه هو عمل الانسان على الأرض . فالتقوى والفضيلة ينجيان الميت ، والشر والفساد يهلكانه ، وآلهة الحساب لاينخدعون ولا يظلمون .

وكتب « با ــ هيرى » أمير مدينة الكاب الذى من ذكره ، فرجا أن يصل إلى النعيم الخالد فى الحياة الأخرى ، ولكنه لم يبن رجاءه هذا على الصيغ السحرية ، بل على أعماله الطيبة وحدها ، ثم قال :

« متى وضعت فى الميزان فسأخرج منه كاملا بغير نقص .. إننى لم أكذب قط على احد. وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس (٤) . نعم عرفته وخشيته ومزت الخير من الشر » .

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كتب حكيم يسمى « بيكى » يعظ الناس فقال :

« اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات (إلهة الحق والعدل) كل يوم . إن معات لايصنع منها طعام ، ولكن الاله سيد أبيدوس (يريد أوزريس) يتغذى بها كل يوم . فان أنتم فعلتم هذا فكنتم دائما فى أعمالكم على حق وعدل فسيعود عليكم ذلك بالنفع ، فتجتازون الحياة الدنيا بقلوب راضية مغتبطة وتذهبون الى الغرب الجميل (٥) ، حيث تكون لأرواحكم الحرية فى أن تدخل أو تخرج أو تتريض مع الآلهة الخالدة » .

فهذا الحكيم لم يقل اعتمدوا على الصيغ السحرية تنالوا النعيم فى الحياة الأخرى ، بل قال اعتمدوا على أن تكون اعمالكم مطابقة للحق والعدل فى كل يوم . وظاهر أن قوله . « اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات » تعبير مجازى معناه اجعلوا مسرتكم فى ان تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل . وقوله إن سيد أبيدوس يتغذى بالالهة معات هو أيضا تعبير مجازى

(١) الشاطىء الثانى هو تعبير كان المصريون يريدون منه الحياة الأخرى .

(٢) هذا النص ، الى هنا ، مترجم من ص ٢٩٧ من كتاب مورى (Le Nil et la Civilisation Egyptienne)

(٣) هذا النص مترجم من ص ١٩٢ من كتاب ارمان (La Réligion des Egyptiens.)

(٤) قوله « عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس » يلفت النظر ، لان معناه أن الله ليس الصنم الذى يعبد فى المعابد ، وانما هو روح شائع فى قلوب الناس كما هو شائع فى كل شىء . ويرى بعض العلماء أن با ــ هيرى يريد بذلك الضمير الانسانى ، ويقولون ان هذا أول تعبير من هذا النوع . وقد يكون قولهم هذا صحيحا، ولكن قد يكون صحيحا أيضا أن با ــ هيرى يريد مايحسه الرجل الصالح فى قلبه من حب الله وتقواه والخوف من غضبه .

(٥) تقدم أن المراد بالغرب الحياة الاخرى . اما المراد بالغرب الجميل فهو نعيم الجنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معناه أن الحق والعدل عنصران من عناصر أوزوريس وان أوزوريس يطالب الناس بأن يكون هذان العنصران أساس سلوكهما فى الحياة .

وفى العصور الأخيرة للمدنية المصرية كتب واحد من الأعيان على قبره يقول :

« قلب الانسان هو إلهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى . فلأكن مثل الاله » (١) .

وقصة ساتنى وولده ليس فيها أن أحدا من الأموات حصل على الثواب بقوة الصيغ السحرية ، وإنما فيها أن كل ميت أثيب أو عوقب على حسب أعماله فى الأرض .

والكتابات التى ذكرناها فى الصفحتين ١٠٥ و١٠٦، وهى كتابات موزعة بين عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، تضاف الى الكتابات المماثلة لها هنا فتؤدى كلها معنى واحدا هو انه يكون من المجازفة أن يقال إن الصيغ السحرية عطلت القوة التهذيبية التى لعقيدة الحساب ، وربما كان الأصح أن يقال إن هذه الصيغ لم تؤثر الا فى النفوس التى يجعلها ميلها الى الشر مستعدة لهذا التأثير . وهذه النفوس موجودة فى كل زمان ومكان ، وتصديق السحر موجود فى زماننا هذا .

***

والآن نسأل ماذا عرفت المدنيات القديمة ، فى غير مصر ، من عقيدة خلود الروح والحساب بعد الموت ؟

---

(١) ص ٤٧٦ من كتاب (Le Nil et la Civ. Eg.) لورى .

وظاهر أن المراد بقوله « قلب الانسان هو الهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى » أن قلب الانسان هو قاضيه المقدس الذى يحاكمه فى الحياة الاخرى . لانه متى كان القلب محل الرضا وعدم الرضا عن الاعمال فى الحياة الدنيا ، فقوله أن هذا القلب هو اله الانسان ينصرف الى أن القلب هو القاضى الذى يتولى المحاكمة فى الاخرة .

أما قوله « فلاكن مثل الاله » فقد يكون المراد به أن أعماله الصالحة فى الحياة الدنيا تجعله يطمع فى أن يكون مثل الاله فى الحياة الاخرى عملا بالعقيدة التى كانت تقول أن الرجل الصالح الذى يصدر الحكم ببراءته أمام محكمة الحساب يصير مثل الاله اوزريس . أو قد يكون المراد أن اتصاله بالاله اتصالا صوفيا يجعله مثله . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه الحلاج فى قوله « أنا الله » يريد أنه إمتزج بالله فصار منه .

ونبدأ بالمدنية الكلدانية ثم نثنى بالمدنية اليونانية .

فأما المدنية الكلدانية فقد تقدم أن برستيد عرض لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب فقال :

« إن هذا الفهم (أى فهم مصر) لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا . وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا فى الحياة الدنيا ... ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به ، لانه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون (أى الكلدانيون) والاسرائيليون ، فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون الى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

وهذا صحيح فان الروح عند الكلدانيين كان ينتقل الى مكان مظلم يسمى « أرالو » موجود تحت الأرض فى رأى البعض منهم ، وموجود فى الجانب الشرقى من الكون فى راى البعض الآخر (٢) . وفى هذا المكان تتولى الالهة « ألات » محاكمة الأموات . وفى ذلك يقول ماسبيرو :

« لم يكن للخير أو الشر الذى فعله الميت فى حياته قيمة كبيرة فى تقدير أعماله . وإنما كان التقدير كله لما أظهره الانسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالالهة « الات » خاصة ، بتقديم قرابين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للمعابد » .

وبذلك لايكون هذا الحساب حسابا على أعمال الانسان فى الدنيا ، بل على تقديم الهدايا للمعبودات والمعابد ، أى للكهنة الذين لابد أن يكونوا هم الذين وضعوا هذه العقيدة لنفعهم .

***

وأما المدنية اليونانية فيحسن قبل الخوض فى موقفها من عقيدة الحساب الا ننسى أن بين نشوء

---

(٢) ص ٦٣٠ كتاب ماسبيرو :
Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه العقيدة فى مصر وبين نشـوء المدنية اليونانية أكثر من ألفى سنة على أساس التاريخ القصير . أما ألف السنة التى قال برستيد إن العقيدة وجـدت بعدها فى بلاد غير مصر فليس المراد بها اليونان وإنما المراد بها بلاد شرقية أخرى .

وأول مظهر من مظاهر المدنية اليونانية نلمح فيه أثر العقيدة هو أوذيسة هومير (١) ، وذلك أن عوليس ينزل الى الجحيم وحينئذ يقص فيقول :

« رأيت مينوس جالسا والصولجان الذهب فى يده ، وهـو يقضى بين الأمـوات ، وهؤلاء مجتمعون حـوله يعرضـون قضاياهم عليه جالسين أو واقفين فى دور « الهاديس » (٢) ذات الأبواب الواسعة » (٣) .

ومينوس الذى يذكره هنا هومير على لسان عوليس كان ملكا قديما من ملوك جزيرة كريت ، وكان اليونانيون يزعمون فى ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم فى الجحيم ومعه أخواه أيباك وردامانت .

---

(١) هومير من أقدم وأكبر الشعراء اليونانيين . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وتعزى اليه قصتان شعريتان احداهما تسمى الاوذيسـة والثانية تسمى الالياذة . وتعزى اليه أيضـا قصائد أخرى منها واحدة عنوانها « طيبة » ولكنها ضاعت .

وفى وجود هومر خلاف بين الباحثين فى تاريخه لان كثيرا منهم يقولون انه لم يوجد وان القصائد التى عزيت اليه هى أغان جمعت ونسبت اليه .

ويتلخص موضوع الأوذيسة فى أن عوليس ملك مقاطعة فى اليونان القديمة كانت تسمى ايتاك اشترك فى حرب طروادة ، ثم لمـا انتهت هـذه الحرب لم يعد الى مملكته بل نزل فى جزيرة كالبسو واحب المعبودة التى كانت فيها . غير أنه كان يشتاق الى مملكته ففر من الجزيرة لكى يعود اليها فألقته عاصفة على سواحل جزيرة أخرى . وبعد بضع سنين وحوادث كثيرة استطاع أن يعود الى بلده فى زى متسول .

وفى خلال ذلك كانت امرأة عوليس ، واسمها بنيلوب ، قد انتظرت عودة زوجها فلما طالت غيبته تقدم لها أربعة يطلبون يدها ويلحون عليها فى ان تختار واحدا منهم . وكان تليماك بن عوليس قد خرج يبحث عن ابيه فطاف فى جزر كثيرة ثم عاد الى ايتاك وقابل أباه وهو فى زى متسول فعرفه واتفق الاثنان على أن يبقيا متنكرين ليقفا على حقيقة مافعلته بنيلوب فى غيابهما . وأخيرا انتقم عوليس من الأربعة الذين كانوا يطلبون الزواج من بنيلوب بأن قتلهم ثم أظهر نفسه هو وتليماك فعرفتهما بنيلوب .

(٢) الهاديس هى دار الأمـوات أو دار الجحيم فى الأسـاطير اليونانية . وبعضهم يطلق هذا الاسم على ملك دار الأموات .

(٣) الجزء الحادى عشر من الأوذيسة ، والأبيـات ٥٦٧ و٥٦٨ و٥٦٩ و٥٧٠

وهنا ملاحظات :

أولها : أن عوليس ينزل الى الجحيم فى قصة هومير ، وساتنى وولده ينزلان الى الجحيم فى القصة المصرية .

وثانيها : أن مينوس يقبض بيده على صولجان من الذهب فى جحيم هومير . وأوزريس يقبض بيده على صولجان فى العقيدة المصرية .

وثالثها : أن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس فى جحيم هومير . والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزريس فى القصة المصرية .

ورابعها : أن الأموات واقفون أو جالسون فى دور الهاديس ذات الأبواب الواسعة . والأموات واقفون أو جالسون فى سبع قاعات فى القصة المصرية .

فجحيم هومير هذه هى بعينها الجحيم المصرية ، ولكن مع فارقين أحدهما فى الشكل والثانى فى الجوهر . فأما فى الشكل فالأموات فى جحيم هومير يعرضـون قضاياهم على مينوس بأنفسهم وبغير أن يكون لهذا العرض نظام . بينما الجحيم المصرية فيهـا منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى . فالأمر فى الأولى فوضى وفى الثانية منظم . وفارق آخر فى الشكل هو أن فى الجحيم المصرية ميزانا يصدر الحكم تبعا لنتيجته ، وليس فى جحيم هومير سوى مينوس يقضى بإرادته .

وأما الفارق فى الجوهر فهو أن هومير يقول : إن مينوس « يقضى بين الأموات » وإن هؤلاء الأموات « يعرضون عليه قضاياهم » . وهذا معناه فى رأى مورى (٤) — وهو مصيب فيه — أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التى تكون بين الاحياء ، وليست حسابا يؤديه الأموات عن أعمالهم فى الحياة .

إذن ليست جحيم هومير دار حساب عن أعمال الناس فى الحياة ، بل هى دار حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت . وإذن تفقد جحيم هومير كل القيمة التهذيبية التى للجحيم المصرية . وإذن يحـق لنـا أن نقرر هنا أن هومير أراد أن يقتبس قصـة سـاتنى وولده المصرية ومحكمة أوزريس المصرية ، فقصر لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

---

(٤) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٢٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن هل وقف هومير عند هذا الحد ؟

كلا ، لأنه ضمن الياذته (١) : شيئا من الفكرة المصرية ، غير انه قصر فى هذه المرة أيضا ، فأخذ بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

وذلك انه يحدثنا فى إلياذته بأن الاله ذفس (وهو كبير الآلهة عند اليونانيين) يريد أن يقضى فى مصير إحدى المعارك بين اليونانيين واهل طروادة فيضع حظ الأولين فى كفة ميزان وحظ الآخرين فى الكفة الأخرى ، ثم يأخذ الميزان من منتصفه ويرفعه فتهبط كفة اليونانيين الى الأرض وتعلو كفة الطرواديين الى السماء (٢) ، فيكون هذا قضاء للأولين بالنصر وعلى الآخرين بالهزيمة .

ثم يحدثنا هومير ايضا بأن ذفس يقضى مثل هذا القضاء نفسه وبهذه الطريقة نفسها فى معركة حاسمة بين اشيل وهكتور (٣) فتعلو كفة اشيل فينتصر على هكتور ويقتله .

فالاله اليونانى ذفس ينصب هنا ميزانا للقضاء كالميزان الذى ينصبه الاله المصرى أوزريس . ولكن هذا الشبه قائم فى الشكل فقط ، اما فى الجوهر فان أوزريس ينصب ميزانه ليزن به حسنات الميت وسيئاته فى الحياة ثم ليثيبه أو يعذبه تبعا لنتيجة الميزان ، بينما ذفس يزن بميزانه حظوظ المتعاركين فى المعارك . فالميزان المصرى له كل معناه التهذيبى ، أما الميزان اليونانى فليس فيه هذا المعنى .

وما نحب هنا أن ننتحل شيئا ليس لنا فندعى اننا أصحاب هذه المفاضلة بين الميزان المصرى والميزان اليونانى ، بل نحن بالعكس نرد الحق إلى صاحبه فنقول : إن أول من لاحظها هو العالم دى ويت (De Witte) (٤) فى سنة ١٨٤٥ ، ثم ايده فيها بعد ذلك مورى فى سنة ١٩٢٥ . وهذا نص ماقاله دى ويت :

« ليس فى إلياذة هومير شىء يدل على أن الغرض من الميزان يتعلق بالحياة الأخرى ، أى بالعقاب والثواب اللذين ينتظران الانسان فيها ... وإنما الغرض الوحيد من الميزان هو القضاء فى النهاية التى تنتهى بها معركة ... فوزن الحظوظ والأرواح لايراد منه على هذا سوى خلاف مادى ... والكفة الراجحة هى التى تعين صاحب الحظ الفائز » .

وهذا كله صحيح ، وهو يدل كما قلنا على أن هومير لما اراد ان يقتبس الميزان المصرى بعد الفى سنة أخذ الشكل وفاته الجوهر .

***

وتمضى بعد هومير عدة اجيال حتى نصل إلى الشاعر اليونانى بندار (Pindare) فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد — وهو من شعراء الطبقة الأولى — فنسمعه يقول فى قصيدته الأولمبية الثانية :

« سيجد العظماء فى الأرض قاضيا فى الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم اعمالا محرمة تحاكمهم الالهة اناتكى » .

فهنا ظهرت لأول مرة فى الآداب اليونانية فكرة محاسبة الأموات على أعمالهم فى الحياة ، ولكنها تظهر مبهمة كما يلاحظ العالم الالمانى روهل (Ruhl) لأن الشاعر بندار لا يقول لنا كيف تجرى المحاسبة ولا على اية قاعدة تجرى .

وكان من الضرورى للمدنية اليونانية ، وقد خطت هذه الخطوة فى اقتباس الفكرة المصرية ، أن تخطو

(١) الالياذة هى قصة شعرية قص فيها هومير ما وقع من الحوادث فى حرب شنها اليونانيون على مدينة طروادة . وهى مدينة قديمة كانت على سواحل آسيا الصغرى .

(٢) الالياذة — الجزء التاسع منها — الابيات من ٦٩ الى ٧٤ .

(٣) اشيل هو قائد يونانى يعتبر اعظم ابطال الالياذة . وتروى هذه الالياذة انه نازل هكتور اعظم قائد طروادى فى أثناء حصار طروادة فقتله ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه بارى رماه بسهم مسموم فاصابه فى عقب قدمه .

وهذا القضاء بين اشيل وهكتور بواسطة الميزان مذكور فى الجزء العاشر من الالياذة فى الابيات من ٢٠٩ الى ٢١٣ .

(٤) هو عالم بلجيكى اشتهر بميله الى دراسة الآثار القديمة والآثار المصرية خاصة وله فيها رسائل ومؤلفات وقد توفى سنة ١٨٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

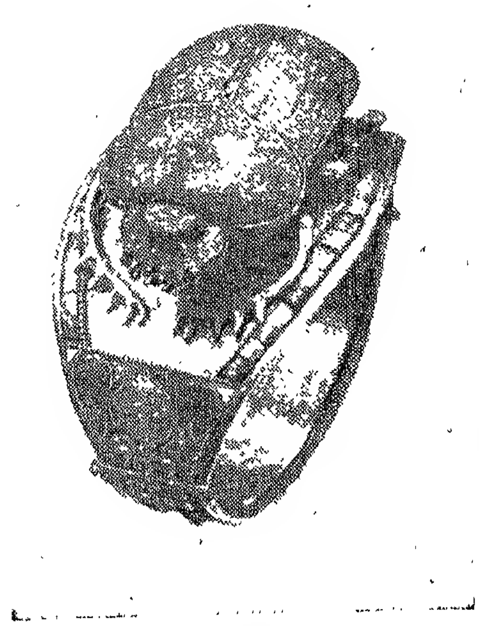

سوار من الذهب

وقد رصع بجعران من حجر اللازورد (Lapis - Lazuli)

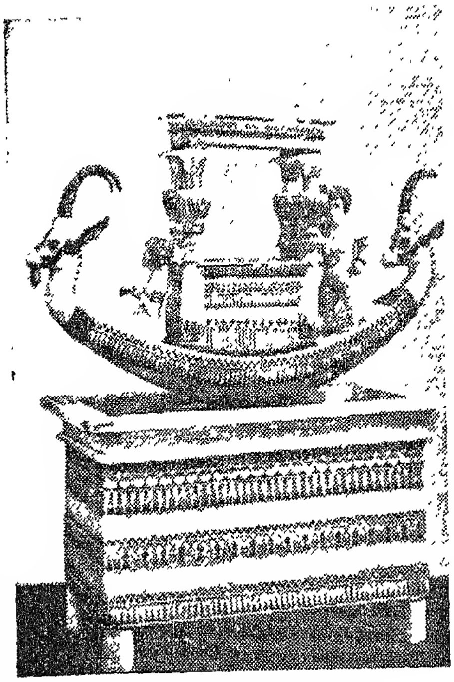

تمثال مصغر لسفينة

وقد صنع ـ هو وقاعدته ـ من الجص . أما قرون الوعل فهى قرون طبيعية . ويحرس الخزانة التى تقلها السفينة قزم يزين رأسه شعر مستعار .

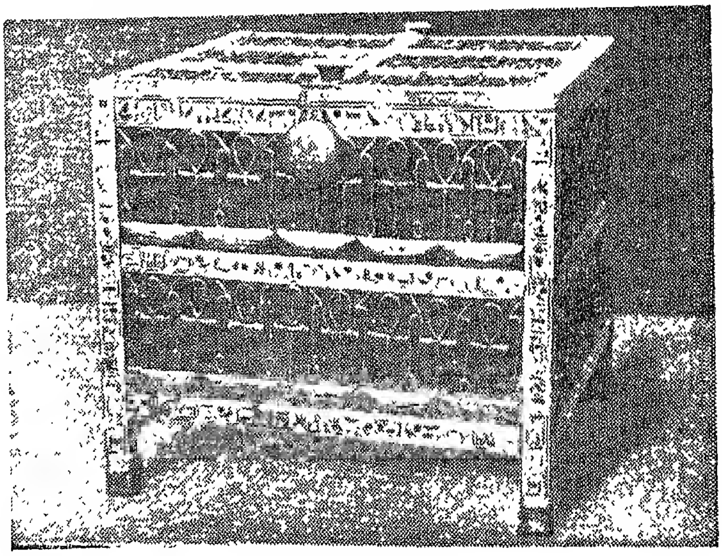

صندوق للمجوهرات

مصنوع من الخشب ومزين بالعاج . وقد قسم داخله تسعة اقسام .

الخطوة المكملة لها ، وهذا ما فعله بعد ذلك الفيلسوف افلاطون (١) .

كتب أفلاطون كتابه الذى جعل عنوانه « مدح سقراط » فذكر فيه أن فى الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم « مينوس وردامانت وإيباك وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا فى حياتهم عادلين » ، ثم عاد إلى هذه الجحيم وقضاتها فى كتابة « جورجياس » (٢) ففصلها تفصيلا ننقله هنا عن مورى (٣) .

قال افلاطون :

« حينما كان الحكم لساتورن (أى زحل) ، وفى السنين الأولى من حكم جوبتير (أى المشترى) كانت محاكمة الناس تجرى وهم احياء ، وعلى يد قضاة احياء ، فكان هؤلاء القضاة يقضون فى مصائر الناس فى اليوم الذى يموتون فيه . وكان فى هذه الأحكام كثير من الخطأ فذهب بلوتون (هو ابن ساتورن وملك الجحيم) وحكام الجزائر السعيدة (هى الجنة عند اليونانيين) إلى جوبتير وقالوا إن القضاة يبعثون إليهم برجال لايستحقون الثواب الذى يكتب لهم ولا العقاب الذى ينزل بهم » .

فقال جوبتير :

« سأمنع هذا الظلم . إن السبب فى الأخطاء التى تقع اليوم فى الأحكام هو أن محاكمتهم تتم وهم غير مجردين من ملابسهم (المراد بالملابس هنا مايلبسه الروح وفى مقدمته الجسم) لأنهم يحاكمون وهم احياء فينشأ من ذلك ان يكون كثيرون ممن فسدت ارواحهم لابسين اجساما جميلة من النبل والغنى ... ثم يتقدم جمهور من الشهود يشهد لهم فينخدع القضاة . ثم إن هؤلاء القضاة انفسهم يحكمون وهم غير مجردين من ملابسهم ، وبينما كل كتلة اجسامهم قائمة امام ارواحهم ... فمنذ اليوم اريد أن تكون محاكمة الناس وهم عرايا مجردون من كل مايحيط بهم ، ولهذا أريد أن تكون بعد موتهم . ويجب أيضا ان يكون القاضى قد ترك كل هذه العدة فى الأرض كى يكون حكمه عادلا .

« لقد جاءنى خبر هذا الظلم فامرت ثلاثة من ابنائى بأن يتولوا القضاء : اثنين منهم لآسيا وهما مينوس وردامانت ، والثالث لأوربا وهوإيباك . فمتى ماتوا فسيصدرون أحكامهم فى المرج فى المكان الذى تنتهى إليه ثلاثة طرق : احدها يؤدى إلى الجزائر السعيدة ، والثانى إلى قاع الجحيم وسيتولى ردامانت محاكمة اهل آسيا . وسيتولى إيباك محاكمة اهل أوربا . وسأجعل لمينوس سلطة الفصل نهائيا فى الحالات التى يرتبك فيها واحد منهما » .

ثم يقول أفلاطون :

« فاذا جاء الأموات أمام قاضيهم دعاهم ردامانت إلى القرب منه ، ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هى ... فاذا وجدها مملوءة فسادا وخبثا وكانت قد عاشت بعيدا عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذى تستحقه ... » .

ثم يقول أفلاطون :

« إن الذين تكون ذنوبهم مما يمكن التكفير عنه ، يكفرون عن ذنوبهم بالآلام . أما الذين ارتكبوا أعظم الجرائم فلا تطهير لهم . وحينئذ يكون عقابهم الذى لا فائدة لهم منه عبرة لغيرهم .

---

(١) من المحقق أن افلاطون زار مصر واقام فيها زمنا غير قصير كان يتردد فيه على مدارسها وكهنتها . وقد روى أن هؤلاء الكهنة قالوا من اليونانيين فى ذلك الوقت : « أيها الناس . انكم لستم سوى أطفال ، وليس بينكم شيوخ » . والتعبير هنا مجازى يعنى انكم اطفال فى المعرفة وليس بينكم شيوخ فيها .

راجع فى ذلك ص ٤٩ من مقدمة الجزء الأول من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) بقلم هانوتو احد اعضاء الأكاديمية الفرنسية . وهذا الجزء من الكتاب مطبوع فى سنة ١٩٣١ .

وسيأتى فيما بعد أن كلا من ديودور الصقلى وهيرودوت اثبتا فى كتبه وجود افلاطون فى مصر وتردده الكثير على استاذ مصرى فى معبد هليوبوليس .

(٢) كتاب « جورجياس » هو كتاب جعله أفلاطون محاورات بين باحث يونانى كان يسمى جورجياس وبين سقراط وفلاسفة آخرين .

(٣) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٢٦ ومايليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يقول :

« وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بميسم تبعا لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذى يرى انه عاش فى الطهر وفى الحقيقة فانه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة » .

ويقول أفلاطون بعد ذلك :

«إن أيباك يفعل فى الذين يحاكمهم كما يفعل ردامانت . ثم يقول إن كل قاض من هؤلاء القضاة الثلاثة يمسك فى يده صولجانا » .

* * *

بهذا صور أفلاطون عقيدة الحساب بعد الموت ، والناظر فى ماكتبه يرى أنه استبقى الآلهة الثلاثة الذين ذكرهم هومير وهم مينوس وايباك وردامانت ، ولكن هؤلاء الذين كانوا عند هومر يقضون بين الأموات فى منازعات تجد بينهم بعد الموت ، صاروا يحاسبون الأموات على أعمالهم فى الحياة كما تفعل الآلهة المصرية أوزريس وتوت وانوبيس .

ولهذا الحساب عند أفلاطون نتيجةمن نتائج ثلاث : الأولى ان يثاب الميت بارساله إلى الجزائر السعيدة ، والثانية أن يعذب فى قاع الجحيم إلى الأبد إن كانت ذنوبه كبيرة ، والثالثة أن يعذب إلى وقت ليكفر عن ذنوبه إن كانت مما يمكن التكفير عنه . وهذه النتائج الثلاث هى بعينها نتائج الحساب فى العقيدة المصرية .

والقضاة عند أفلاطون يمسك كل واحد منهم صولجانا . وأوزريس يقضى وفى يده دائما صولجان .

فعقيدة الحساب عند المصريين هى إذن عقيدة الحساب عند افلاطون . وأفلاطون يكمل بذلك مابداه هومير فقصر فيه . ولكن يلاحظ مع هذا ان افلاطون لم يذكر ميزانا ولا وزنا فى دار حسابه ، بينما الميزان والوزن عنصران بارزان فى دار الحساب المصرية . فان قلنا إن أفلاطون يكمل ما بداه هومير — وهذا هو الراجح — فالميزان والوزن مذكوران عند هومير ، وإن قلنا إنه لا يكمل فهو حينئذ يترك للالهة أن يحاسبوا الأموات تبعا لما يرونه هم عدلا لاتبعا لميزان العدل أى للعدل المطلق .

* * *

من هذا نخرج بأن فكرة المصريين فى دار الحساب وفى العقاب والثواب ، ظهرت بعد الفى سنة عند اليونانيين على يد هومير ، بيد انها ظهرت حينئذ ناقصة مقتصرة على الشكل دون الجوهر ، ثم جاء بندار فسد شيئا من هذا النقص ، ثم جاء افلاطون الذى لاشك فى انه تعلم فى مصر فسد ما كان باقيا من النقص . وكان من الضرورى أن يستبقى افلاطون الآلهة اليونانية فاستبقاها ، وكان من الضرورى ايضا أن يصبغ الفكرة بصبغة الأساطير اليونانية فصبغها بها . ولكن الفكرة بقيت مع ذلك مصرية تطل من ثنايا صبغتها اليونانية .

وما أقول هذا وحدى ، ولا أقول به من عندى ، بل بقوله معى ثلاثة من كبار العلماء الذين تفرغوا لدرس العلوم والآثار اليونانية والمصرية ، وقد ذكرت أسماءهم من قبل وهم روهل الالمانى ، ودى ويت البلجيكى ، وموري الفرنسى .

ولك أن تقول ، إن شئت ، إن المدنية اليونانية اهتدت من تلقاء نفسها إلى الفكرة كما اهتدت اليها من تلقاء نفسها المدنية المصرية ، فليس الأمر أمر نقل وإنما هو أمر اهتداء إلى فكرة سليمة يقوم عليها صلاح العالم . لك أن تقول هذا ، فان قلته فلا تنس أولا أن اليونانيين فى عهد هومير وعهد بندار وعهد افلاطون كانوا على أوثق اتصال بمصر ، ولا تنس ثانيا ان افلاطون اقام فى مصر زمنا واتصل بمدارسها ومعاهدها ثم لاتنس أخيرا أن اقتباس المدنية اليونانية من المدنية المصرية هو حقيقة يراها العلماء الآن فى جميع مابقى من آثار الفن والصناعة وهندسة البناء فى المدنيتين .

وليكن الأمر مع ذلك بعيدا عن النقل ، وليكن اهتداء إلى فكرة واحدة ، فان من الفضل لمصر انها كانت أول بلاد عرفت هذه الفكرة فى العالم كله ، وان الف سنة يجب أن تمضى على وجودها فى مصر كى يمكن أن نجد شيئا منها فى بلاد أخرى كما يقول برستيد .

ومن الفضل لمصر أيضا ان فكرتها هذه عمت كل الأمم المحيطة بها ، حتى قصة ساتنى وولده فى نزولهما إلى دار الحساب عمت أكثر الآداب ، فهى فى الآداب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليونانية يصورهاهومير فى نزول عوليس إلى الجحيم، وهى فى الآداب الرومانية يصورهاهوراس (Horace) وفرجيل (Virgile) ، وهى فى الآداب العربية يصورها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ، وهى فى الآداب الايطالية يصورها دانتى الجيبرى Danti) Alégiere) فى الكوميديا المقدسة ، وهى فى الآداب الفرنسية يصورها فنلون(Fenelon)فى قصة تليماك، وقس على هذا آداب كثير من الأمم .

ولهذا ، ولغيره ، حق للعالم الأمريكى هنرى برستيد أن يقول : « إن عقيدة الحساب تثبت أن مصر أول بلد فى العالم استيقظ فيه ضمير الانسان » .

وحق للعالم المؤرخ لافيس ، العضو فى الأكاديمية الفرنسية ، أن يمهد لتاريخ اليونان فيقول « إن اليونان التى سنعرض فى الصفحات التالية لتاريخها المجيد ، تعلمت كثيرا من مصر . إن مصر كانت المعلمة الأولى للانسانية (١) .

(١) كتاب (Histoire de France) ص ١٩ تأليف (E. Lavisse)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدنية اليونانية وأثر المدنية المصرية فيها

اقتباسات هومير من الأساطير والآداب المصرية

كتبت فى « البلاغ الأسبوعى » فى ١١ مارس سنة ١٩٢٧ الاحظ أن المدنّية العربية نقلت إلى العالم كثيرا من علوم المدنية اليونانية نقل صراحة وأمانة ، فعزت كل رأى إلى صاحبه ولم تعز لنفسها الا الذى زادته على هذه الآراء ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لاتعرف فى أوربا فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الذى يسمى فى أوربا عصر النهضة (Renaissance) إلا فى الكتب العربية ، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك . وكتب ابن رشد التى ترجم فيها ماترجمه من مؤلفات ارسطو ، هى التى حملها بعض تلاميذه إلى أوربا بعد أن نكبه المنصور ، فنقلت منها الى اللاتينية ، ومنها عرف الأوربيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه ، ثم استمروا يدرسون فيها هذه الآراء إلى أن اهتدوا بعد زمن الى كتب ارسطو فى لغته اليونانية .

ولكن المدنية اليونانية جاءت تالية للمدنية المصرية ، وانت مع ذلك تمر بكل ما الفه علماؤها فلا تجد ذكرا لعلوم أو آداب مصرية ، ولا لعلماء أو ادباء مصريين . اللهم إلا ماكتبه هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وأمثالهما من المؤرخين والسائحين الذين زاروا مصر كما زاروا غيرها من البلاد ، فكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها من الناحية الوصفية . ولسنا ننكر أن ما كتبه هؤلاء الرحالون كان ولا يزال ثمينا ، ولكنهم كتبوه كما قلنا وصفا لما شاهدوه وسمعوه ، لا نقلا لعلوم ولا ذكرا لعلماء . وكتب الرحلات والتواريخ غير كتب العلم والأدب .

كتبت ذلك فى مارس سنة ١٩٢٧ ، والآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة قرأت فيها ماقرأته من الكتب ، وتوفرت على ماتيسر لى أن أتوفر عليه من البحث ، لا أرى مايحملنى على نقض ملاحظتى هذه أو تعديلها، بل أرى بالعكس أن الأدلة كلها تنهض على صحتها .

فقارىء العلوم والآداب اليونانية لايجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر ، ولا يقف فيها على أسماء العلماء مصريين ولا على نتاج كان لهم فى علم أو فن أو أدب (١) ، مع أن قارىء العلوم والآداب العربية لا يكاد يمر بها حتى يجد أسماء صولون وسقراط وأبقراط وأفلاطون وفيثاغورس وارسطو وعشرين أو ثلاثين غيرهم — كل منهم برأيه ونتاج ذهنه ، وكثير منهم بكتبه معربة كلها أو تكاد . وقد نشأ من ذلك اعتقادان : أولهما أن المدنية المصرية لم تنتج مايستحق أن يذكر ، والثانى أن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها وكل فلسفتها ،وكل آرائها فى الحياة والاجتماع ونظام الحكم ، وأبتكرت كل دياناتها وآدابها ، حتى ليقال إن الفكر الانسانى يبدأ منها ، وإن كل ماسبقها لم يكن سوى فوضى فكرية كفوضى الطفولة يجب أن تسقط من الحساب .

والعلماء والكتاب اليونانيون انفسهم لايمارون فى هذا بل يقولونه ، وهم يسمون كل من عداهم من الشعوب « البربر » (٢) ، لايستثنون المصريين ولا الكلدانيين ولا الفنيقيين ولا الفرس ولا غيرهم من اصحاب المدنيات التى سبقتهم . ومن ألطف مايذكر هنا أن المصريين القدماء كانوا يسمون من عداهم من الشعوب « البربر » لأنهم حينما ازدهرت مدنيتهم منذ أكثر من ٥ آلاف سنة على عهد الملك منا لم يجدوا حولهم إلا شعوبا يطلق عليها هذا الاسم بحق . اما

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك كتاب واحد هو كتاب « ايزيس وأوزوريس » الذى وضعه الكاتب اليونانى بلوطرك(Plutarque) فشرح فيه عبادة ايزيس وأوزوريس لأنها كانت فى ذلك الوقت قد انتقلت الى اليونان ولبست ثوبا يونانيا . ولكن هذا الاستثناء منصب على عبادة دينية ، أما العلوم والآداب فليس فى الكتب اليونانية شىء عنها .

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو — ص ٦١ من الطبعة الرابعة .

اليونانيون فقد جاءت مدنيتهم بعد ذلك بنحو ٣ آلاف سنة كانت قد وجدت فيها مدنيات عدة .

وقد سرى الاعتقاد بأن المدنية اليونانية ابتكرت كل دياناتها وآدابها وفلسفتها ، إلى كل الذين أغرموا بدرس هذه المدنية من جميع الأمم . فصارت الكلمة المتفق عليها بين هؤلاء المغرمين أن المدنية اليونانية لم تقتبس علما ولا فنا ولا أدبا من أية مدنية سبقتها ، مع أن التاريخ الصادق يحدثنا بأن المصريين وصلوا إلى اليونان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، اى قبل نشوء المدنية اليونانية بنحو الف سنة . وهذا التاريخ نفسه يحدثنا بأن اليونانيين اتصلوا بعد ذلك بمصر وانكبوا عليها ، حتى كانت لهم فيها منطقة خاصة بهم فى شمال الدلتا عامرة بالمدن (١) ، وحتى كانوا يقولون إن هذه المنطقة امتداد لليونان ، وإن مصر الحقيقية لاتبتدىء من سواحل الدلتا ، بل من مدينة سايس (حيث توجد الآن صا الحجر بمديرية الغربية) ، وحتى كان الجيش المصرى فى زمن الفراعنة : بساماتيك الأول وابرييس وأمازيس وبساماتيك الثالث مؤلفا من فرق مصرية وفرق مستأجرة يونانية وغير يونانية ، على راس بعضها قواد يونانيون (٢) .

بهذا كله يحدثنا التاريخ الصادق ، كما يحدثنا بأن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والاكبار ، ويرون فى مدارسها ينابيع للحكمة والعرفان ، ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتهم بمعبوداتها ، وأساطيرهم بأساطيرها ، وأن يحتذوا فى هذه وتلك مثالها (٣) .

وكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها وكتابها الذين

---

(١) نذكر من هذه المدن مدينة نوكراتيس ومدينة انتيللا ومدينة اركندروبولبس . وقد ذكر هيرودوت هذه المدن الثلاث . والاولى اشهرها وكانت واقعة على الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة ، حيث توجد الآن قرية كوم جعيف جنوبى دمنهور بمديرية البحيرة . أما المدينتان الأخريان فلم يعين مكانهما بعد . وكان الفراعنة حينما ضعفت شوكتهم قد أباحوا لليونانيين سكنى هذه المنطقة وخصوهم فيها بامتيازات تجارية تجعل تجارة مصر مع جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط احتكارا لهم .

وقد قال هيرودوت فى ذلك فى الفقرة ١٧٨ من كتابه :

« كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضا منهم دلائل على رعايته لهم . نذكر من هذه الدلائل أنه أعطى الذين يفدون عليها منهم بقصد الاقامة مدينة نوكراتيس ليقيموا فيها . أما الذين لم يكونوا يقصدون الاقامة ، بل كانوا يجيئون لقصد التجارة ، فقد أعطاهم أماكن ينشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . وكان أعظم هذه المعابد وأشهرها وأعمرها بالناس يسمى هلنيون . وقد اشتركت فى الأموال اللازمة لبنائه مدن يونانية عدة ... » .

وهنا ذكر هيرودوت أسماء هذه المدن وقال : ان أمازيس سمح لها بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب اسواق التجارة وتؤدى عمل الشرطة فى مدينة نوكراتيس وتقضى بين التجار . ثم قال :

« وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية . ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة . فكان الواصل من البحر الأبيض الى مصر ، اذا وصل بسفينته الى مصب فرع من فروع النيل غير الفرع الكانوبى (الذى تقع عليه نوكراتيس) طولب بأن يحلف أنه لم يصل اليه باختياره . وبعد أن يحلف يكون عليه أن يتجه بسفينته الى المصب الكانوبى . فاذا كانت الرياح تجعل هذه الرحلة مستحيلة فعليه أن ينقل محمول سفينته على مراكب مصرية تدور بهذا المحمول حول ساحل الدلتا حتى تصل الى المصب الكانوبى ومنه الى نوكراتيس . وكان هذا من الامتيازات التى أعطيت لهذه المدينة » .

(٢) كان وجود هذه الفرق المستأجرة نكبة على مصر ، لان الفرق المصرية والشعب المصرى ثارا عدة ثورات بسبب وجود الاجانب فى الجيش والامتيازات التى كانت تتمتع بها الفرق اليونانية والمدن اليونانية . ثم ان بعض القواد اليونانيين خانوا مصر . ومنهم القائد فانيس الذى كان قائدا للجيش المصرى فى عهد بساماتيك الثالث ، ثم لما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر فر اليه وقابله فى سوريا وانضم اليه . وكان قمبيز واقفا موقف الارتباك أمام صحراء سيناء فشجعه فانيس ودله على الوسائل التى يجتاز بها الصحراء واستأجر له رؤساء البدو من سكانها يمدون جيشه بالماء والجمال . وكان لفانيس أولاد لايزالون فى مصر فلما علم المصريون بخيانة أبيهم ذبحوا هؤلاء الأولاد على مرأى منه فى ميدان القتال . ثم فتح قمبيز مصر . وقد ذكر هيرودوت هذه القصة مفصلة .

(٣) اثبت عالم من العلماء المتخصصين فى درس المدنية اليونانية يسمى فوكار (M. Paul. Faucart) فى كتابه المسمى : (Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis) ـ والمطبوع فى سنة ١٨٩٥ ـ أثبت هذا العالم أن عبادة ايلوزيس التى كانت منتشرة فى اليونان منقولة من عبادة ايزيس واوزريس المصرية فى طقوسها وتقاليدها ورموزها .

ومعروف أن كبير الآلهة فى الاساطير اليونانية كان يسمى ذفس (Zeus) . فهذه الكلمة معناها فى اللغة اليونانية « الذى يخفى نفسه » ، وهذا هو بعينه معنى كلمة أمون التى كانت تطلق على كبير الآلهة فى طيبة . وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليونانى بلوطرك (Plutarque) فى الفقرة ٩ من كتابه الذى وضعه باسم « ايزيس وأوزريس » ، وترجمه الى الفرنسية (Mario Meunier) ، وطبعه فى سنة ١٩٢٤ ، وهذه الترجمة هى آخر ترجمة لهذا الكتاب ، وهى التى اعتمدت عليها هنا .

وقد قال بلوطرك فى الفقرة التى أشرنا اليها : ان كلمة أمون معناها فى اللغة المصرية « الذى يخفى نفسه » وان هذا هو بعينه معنى كلمة ذفس التى اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم .

ومعروف أن توت هو الاله الذى يعزو المصريون اليه أنه ملهم الكتابة والعلوم والفنون . وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا فى أساطيرهم الها يسمى هرمس ملهم الكتابة والعلوم والفنون . فتوت المصرى هو هرمس اليونانى .

ظهروا حين نشـوء المدنية اليونانية ، والذين ظهروا حينما كانت هذه المدنية فى أوجها ، زاروا مصر وتلقوا العلم فى مدارس مصر . وقد يحسن أن نذكر هنـا بعضا منهم معتمدين فى ذلك على المصادر اليونانيـة القديمة التى لايمكن أن تتهم بمحاباتها مصر .

فديودور الصقلى (١) يقول :

« يؤكد الكهنة المصريون ، استنادا إلى كتبهم المقدسة ، أنهم شاهدوا فى بلادهم أورفى (٢) ، وموزى (٣) ، وميلامپوس (٤) ، وديدال (٥) ، ثم الشاعر هومير ، وليكورج الاسبارطى (٦) ، وصـولون الأتينـى (٧) ، وأفلاطـون (٨) الفيلسوف . ويذكر الكهنة المصريون أيضـا فيثاغورس (٩) ، ابن جـزيرة سـاموس ، وأيدوكس (١٠) الرياضى ، وديموكريت (١١) ، ابن مدينة أبدير ، وأينوپيـد (١٢) ، ابن جزيرة صاقز » (١٣) .

ذلك ماقاله ديودور الصقلى ، أما بلوطرك (١٤) فانه بعد أن بين ، كما تقدم ، فى الفقرة التاسعة من كتابه

= وهناك اقتباسات دينية اخرى .

ويقول هيرودوت فى الفقرة ٥٠ من كتابه :

« ونكاد جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان ان تكون ماخوذة من مصر . نعم ان بحوثى الخاصة دلتنى على ان هناك شخصيات مقدسة اخذتها اليونان من البلاد المتبربرة ، ولكنى ارى ان أكثر الشخصيات ماخوذة من مصر خاصة . فانه فيما عدا بوزيدون ، وديوسكور ، اللذين اشرنا اليهما فيما مضى ، وفيما عدا هيرا وهستيا وتميس وشيميت وتربيد ، فأن جميع الشخصيات المقدسة اليونانية موجودة فى مصر » .

ثم عاد هيرودوت فأكد هذا المعنى مرة أخرى فى الفقرة العاشرة قائلا :

« لقد تلقى اليونانيون من المصريين العادات التى اشرنا اليها ، كما تلقوا منهم عادات أخرى سنتكلم عنها فيما بعد » .

(١) (Diodore de Cicile) هو مؤرخ يونانى قديم زار مصر بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق م ووضع عنها كتابا وصفيا .

(٢) (Orphée) كان ابنا لملك مقاطعة يونانية تسمى تراس . وهو أشهر موسيقى يونانى . وقد زار مصر وأقام فيها زمنـا . وتقول الأساطير اليونانية ان أنغامه كانت تستوقف الوحوش تحت قدميه ، وان ثعبانا لدغ زوجه فى ليلة زفافها اليه فماتت ، فنـزل الى الجحيم وفتن آلهتها بأنغامه فردت زوجه اليه واشترطت عليه الا ينظر الى الخلف الا بعد أن يخرج من مملـكة الظلام ، فخالف أورف هذا الشرط ونظر الى الخلف ليرى زوجه فعوقب بأن فقـد الأحساس ثم مزق .

(٣) (Musée) شاعر وموسيقى يونانى قديم يعتبر تلميـذا للموسيقى أورف الذى تقدم ذكره . وهناك شـاعر يونانى آخر يسمى بهذا الاسم عاش فى القرن السادس قبل الميلاد .

(٤) (Mélampos) طبيب يونانى اشتهر بالطب والسحر وعاش فى العصر الذى يعرف فى تاريخ اليونان بعصر الآلهـة والأبطـال الخرافيين . وقد كتب عنه هومير الشاعر المعروف فقال انه تعلم بعض العقائد الدينية المصرية وانه هو الذى أدخل عبادة باكشوس اله الخمر فى اليونان .

(٥) (Dédale) مهندس بناء يونانى زار مصر وأقام فيها زمنا . وقد اشتهر فى اليونان بأنه هو الذى بنى اللابيرنت أو قصر التيه فى جزيرة كريت على مثال القصر الذى عرف بمثل هـذا الاسم للملك أمنمحت الثالث فى اللاهون . وتقول الأساطير اليونانية ان قصر التيه فى كريت بنى ليسجن فيه وحش نصفه الأعلى ثور ونصفه الأسفل رجل ، ولكن كان الذى أمر ملك كريت بسجنه فيه هو ديدال نفسه . وحينئذ صنع ديدال لنفسه جناحين من الشمع وطار بهما فأنقذ نفسه .

(٦) (Lycurgue) هو مشرع القوانين لمدينة اسـبارطة فى اليونان القديمة . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد .

(٧) (Solon) هو واضـع القوانين لمدينـة أثينا القديمة . وقد عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٥٨ ق م .

(٨) هو خليفة الفيلسوف سـقراط . ولكنه اشتهر بعد ذلك بفلسفته الخاصة . وقد ذكرنا فيما تقدم انه زار مصر وكان يتردد على كهنة هليوبوليس ، وانه روى ان هؤلاء الكهنة ذكروا له مواطنيه اليونانيين فقالوا :

« أيها الناس . أنكم لستم سوى أطفال . وليس بينكم شيوخ» .

(٩) (Pythagore) فيلسوف ورياضى يونانى مشـهور . عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . ويؤكد كثير من العلماء انه أقام فى مصر حوالى عشرين سنة كان فيها يتردد على مداوسها . وهو القائل بكروية الأرض ، وقد عالج أن يفهم نظام الـكون فقال انه على شكل كرة فى مركزها النار ، وان اجراما عشرة تتحرك حول هذه النار اولها الأرض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحـيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم التوابت . وقال : ان جميع هذه الاجرام تدور حول النار المركزية . فلو انك وضعت فى هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيخ التى تعـد من اعظم كشوف العصور الحاضرة .

(١٠) (Eudoxe) فلـكى يونانى عاش بـين سـنة ٤٠٩ وسنة ٣٥٦ ق م .

(١١) (Democrite d'Abdére) هـو فيلسوف يونانى عاش فى القرن الخامس ق م . وهو معروف فى الـكتب العربية باسم ديموقراطس . وهو صاحب نظرية الجزء الذى لايتجزأ أو الجوهر الفرد .

وأبدير التى هو من أهلها مدينة كانت من مدن مملكة تراس واقعة على بحر ايجة .

(١٢) (Enopide de Chis) عالم يونانى قديم

(١٣) راجع فى هـذا الموضـوع ايضـا كتاب (J. A. Faure) عن أتصال الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط بمصر . وهو مطبوع بباريس فى سنة ١٩٢٣ .

(١٤) (Plutarque) كاتب وفيلسوف يونانى زار مصر فى نحو سنة ١٢٠ بعد الميلاد . ومن كتبـه المشهورة كتابه عن عبـادة « ايزيس وأوزريس » .=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إيزيس وأوزريس » أن كلمة ذفس اليونانية تتفق في معنـــاها مع كلمـــة امون المصرية ، قال في الفقرة العاشرة :

« وهذا مايؤكده أعظم اليونانيين المتنورين ، وهم صـــولون ، وتاليس (١) ، وأفـــلاطون ، وأيدوكس ، وفيثاغورس . ويؤكده ايضا ، على قول بعضهم ، ليكورج نفسه . وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها . فمن ذلك أنه يقال إن أيدوكس تلقى العلم على يد شونوفيس المفيسي (Chonophis de Memphis) ، وإن صولون(٢) تلقاه على يد سونشيس (Sonchis) في سايس (صالحجر) ، وإن فيثاغورس اتصل بإينوفيس (Enuphis) في هليوبوليس(٣) ، وكان فيثاغورس خاصة عظيم الاعجاب بالاســـاتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به ، فحـــاول أن يقلد طريقتهم في كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية ، فأحاط نظرياته بالالغاز . وفي الواقع إنه لايوجد اى فارق بين النصوص الهيروغليفيـــة المصرية والـــكثير من التعاليـــم الفيثاغورية » .

ثم مضى بلوطرك يدلل على هـــذا التشابه ، فذكر أمثلة عديدة من تعاليم فيثاغورس وما يشابهها من التعاليم المصرية .

❋ ❋ ❋

فهؤلاء هم مشرعون وفلاسـفة ورياضيون وشعراء وموسـيقيون يونانيون تلقوا علومهم في مصر ، ومنهم اثنان كان لهما الفضل الأكبر في وضع الحجارة الأولى لبناء المدنية اليونانية وهما المشرعان ليكورج وصولون، ومنهم أيضا الشاعر الكبير هومير ، وثلاثة من كبـــار الفلاسفة الذين ظهروا حينما كانت المدنية اليونانية في أوجها وهم افلاطون وديموكريت وفيثاغورس . ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء والفلاسفة، بل شـمل ــ كما رأيت ــ اطباء وبنـــائين وفلـــكيين ورياضيين وموسيقيين ، وبالاجمال كل العناصر التى تقوم بها المدنية . فلا ريب إذن في أن اليونانيين اتصلوا بمصر حين نشوء مدنيتهم وبعد نشوئها اتصال اقامة وتعلم ، ولـــكن العلماء اليونانيين لم يحملوا الى العالم شيئا من علوم مصر ، كما حمل العرب علوم اليونان الى اوربا .

يضـــاف الى ذلك أن مدرسة الاســـكندرية التى انشـأها البطالسة اخرجت علمـــاء يونانيين كثيرين . وقد كان هؤلاء العلماء محتكين بمصر بطبيعة إقامتهم في الاسكندرية ، ومع ذلك لم يرد أحد منهم أن يحمل الى العالم في كتبه شيئا من العلوم المصرية والآداب المصرية . نعم إن مصر كانت قد دب فيهـــا ســـوس الانحطاط إذ ذاك ، وان الوهن كان قـــد خيـــم على مدارسها القديمة ، ولكن هذه المدارس كانت معذلك لاتزال موجودة ، وإذا نحن فرضنا أنها كانت قـــد انحطت إلى حد أنها لم تكن تستحق أن يؤخذ منهـــا شيء فقد كانت الكتب المصرية موجودة ، وليس يمكن عقلا ولا عملا ان تنهض مدرسة جامعة كمدرســـــة الاسكندرية على أساس علمي صحيح إلا اذا كان من مهمتها أن تضم الى دراساتها الحديثة ماسبقها من الدراسات القديمة ، ولا سيما دراسات مدنية عاشت أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كالمدنية المصرية . نعـــم لايمـــكن هذا ، ولا محل لتصوره ، ولـــكن العلمـــاء السكندريين لم يروا أن يقولوا لنا شـــيئا عن علوم كانت لمصر ، ونظريات كانت لمصر ، وآداب كانت لمصر.

وقد يقال هنا إن مكتبة الاسكندرية أحرقت ، ولو انهـــا بقيت لوجـــد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها ، وهذا عذر قد يكون صحيحا ، ولـــكن من

---

(١) (Thalès)فيلسـوف يوناني عاش بين سنة ٦٤٠ وســـنة ٥٤٨ ق م .

(٢) تكلم هيرودوت في الفقرة ١٧٧ من الرخاء الذى تمتعت به مصر في عهد الملك امازيس ثم قال :

« وامازيس هو الذى فرض على المصريين قانونا يقضى على كل واحد منهم بأن يبين لحاكم الاقليم الذى هو فيه الوســـائل التى يعيش منها ، فمن خالف أو لم يثبت أنه يعيش من موارد شريفة عوقب بالموت . وقد نقل صولون الاتينى هذا القانون من مصر وسنه في اثينا . وأهل أثينـــا يحافظون عليه ويعتبرونه قانونا اخلاقيا كاملا » .

وقد علق مترجم هيرودوت (Ph. E. Legrand) على ذلك في ص ٣٧ من مقدمة الترجمة فقال : أن القانون المصرى لم يكن الغرض منه اثبات الموارد الشريفة ، بل كان الغرض منه الاحصاء لاجل جباية الضرائب .

(٣) هـــذه أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقى العلم عليهم ثلاثة من كبار الفلاسفة اليونانيين . والذي يقرر ذلك هو بلوطرك الكاتب والفيلسوف اليوناني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحيح ايضا أن علماء الاسكندرية هؤلاء نشروا كتبا تعد بالعشرات فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت كتبهم هذه الى اليوم ، وليس فى واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية ، كلا ولم يقل واحد منهم إنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية او المدنية المصرية وبنى عليها نظرية له الفضل فيها (١) .

* * *

وقد كان من نتيجة هذا الصمت عن علوم مصر وآدابها ، انه لما دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، أسدل حجاب كثيف على كل مايسمى علما مصريا . ولولا انه كانت توجد آثار مادية كالأهرام والمعابد والمسلات وقبور الملوك تنطق بعظمة ذلك العلم لما فطن إليه احد . بل لعل الذين وجهوا همهم الى كشف اللغة المصرية وقراءة خطوطها الهيروغليفية والديموطيقية والهيراطيقية ، ماكانوا يعنون بها ويكشفون غطاءها ، وإذن كانت تبقى مصر القديمة غارقة فى ظلمات الماضى، وتبقى علومها غارقة معها فى هذه الظلمات الى الأبد .

* * *

اتصل اليونانيون بمصر وتعلموا فيها ولكنهم لم يذكروهافيما كتبوه ، فهلهم معذلك اقتبسوا منها ؟

إن العقل يجيب على هذا فيقول ان الاقتباس فى هذه الحالة امر لا مفر منه ، لأن المدنيات المختلفة ليست سوى حلقات متتالية فى سلسلة واحدة هى سلسلة الانسانية . فكل مدنية تسوغ نفسها من المدنيات التى سبقتها ثم مما تزيده عليها ، وبهذا يتحقق تقدم الانسان وتقدم العمران .

هذا هو جواب العقل ، فما هو جواب الواقع ؟

جواب الواقع هو بعينه جواب العقل ، فقد عرف منذ مائتى سنة او اكثر ان التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش المصرى والأعمدة المصرية مع شيء من التنويع .

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن .

عرف هذا منذ مائتى سنة أو اكثر لان التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات فى مصر وفى اليونان ، كانت فى متناول كل من يريد ان يدرسها وأن يوازن واحدة منها بالأخرى . اما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ، ولهذا كانت موازنتها بمثيلاتها اليونانية مستحيلة . ولا يزال اكثرها مجهولا إلى اليوم لأن ماعرف لايزيد على جوانب من الديانات لايزال فى بعضها غموض ، ثم طرف صغير من الآداب ممثل فى بضع قصص واناشيد واشعار . أما العلوم ، وخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شيء منها .

ولهذا كان السؤال الذى تساءل فيه الباحثون منذ اربعين سنة ، اى منذ شاعت ترجمة أوراق البردى المصرية هو : « هل فى الآداب والديانات اليونانية اثر من الآداب والديانات المصرية ؟ وهل هذا الأثر واضح بحيث يمكن تعيينه أو هو مبهم غير واضح ؟ » . وسنمر نحن هنا بشيء مما وقف عليه الباحثون . وسنخص بالذكر شاعر اليونان الكبير هومير صاحب الأوذيسة والالياذة .

* * *

من الذين تفرغوا لدراسة الآداب اليونانية وعرفوا بحبها والاعجاب بها عالم فرنسى هو فيكتور بيرار (Victor Berard) . ويهمنى هنا أن يكون بيرار هذا من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحبها لانه إذا شهد بأن بعض هذه الآداب مقتبس ، أو أكثر من مقتبس ، من الآداب المصرية ، فشهادته لاترمى بالتحيز لمصر .

وقد درس بيرار إلياذة هومير وأوذيسته فوضع فيهما الشروح والمصنفات . وهومير هو أعظم شاعر يونانى ، ومنزلته فى الآداب اليونانية أعظم من منزلة امرىء القيس فى الآداب العربية ، وإن كان كل منهما يختلف عن الآخر منزعا وتفكيرا .

وبما اننا سنعرض هنا للأوذيسة وما دخل فيها

---

(١) لانرى ان نسرد هنا اسماء علماء الاسكندرية ونظرياتهم العلمية والكتب التى نشروها لان ذلك يخرجنا من موضوعنا الذى نحن فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الآداب المصرية ، يحسن أن نقول قبل ذلك ماهى الأوذيسة .

فالأوذيسة هى قصة شعرية موضوعها أن البطل اليونانى عوليس أمير مقاطعة يونانية تسمى إيتاك اشترك مع غيره من الأمراء اليونانيين فى محاصرة مدينة طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) ، ثم لم يعد الى إمارته فخرج ابنه تليماك يبحث عنه فذهب الى مدينة اسبارطة وسأل فيها الملك منلاس عن أبيه. وفى أثناء ذلك كان عوليس فى جزيرة الالهة كاليبسو واقعا فى حبها ، ثم تحرك فيه الشوق الى بلده ففر من الجزيرة ، فهبت عليه فى البحر عاصفة فأغرقت مركبه وألقته الأمواج على شاطىء جزيرة شيرى (١) ، وعلى أرض فيها تسمى أرض فياسى. وفى هذه الأرض ، قابل نوزيكا ابنة الملك ألسبنوس فساعدته وقربته من أبيها . وقص عوليس على الملك الأهوال التى وقعت له فى بحار كثيرة ركبها وجزائر عدة التجأ إليها . ثم عاد عوليس الى بلده ايتاك فتنكر فى زى متسول وقابل ابنه تليماك الذى كان قد عاد هو ايضا من اسبارطه . وكانت امرأة عوليس ، وهى تسمى بنيلوب ، قد بقيت وفية له طول غيابه ، ولكن كان اربعة من الأمراء قد تقدموا إليها ليخطبها كل واحد منهم لنفسه فظهر لهم عوليس وقتلهم هو وابنه تليماك ثم ظهر لامرأته وعاد الى عرش إمارته .

تلك هى قصة الأوذيسة وهى مقسمة الى أربعة وعشرين كتابا أو جزءا . وما من لغة فى أوربا الا وقد نقلت إليها .

وقد نقلت الى اللغة الفرنسية من زمن طويل ، ولكن العلماء الفرنسيين مازالوا يضعون لها ترجمات جديدة ، وما زالوا يدرسونها دراسات جديدة ، ومن هؤلاء فيكتور بيرار الذى تقدم ذكره ، درسها مرة ثم ترجمها ودرسها مرة ثانية هى التى طبعها حديثا فى سنة ١٩٢٥ . وقد أتيح له أن اطلع على قصص واشعار مصرية كان ماسبيرو وغيره من علماء المصرولوجيا قد نشروها فدهش إذ رأى فى الأوذيسة آثارا من تلك القصص والأشعار ، فعكف على موازنة إحداهما بالأخرى ، فكانت النتيجة التى خرج بها أن الاقتباس واضح لايصح أن يختلف فيه اثنان ، وأن الشاعر اليونانى هومير اخذ بعض ما فى قصته من الكتاب المصريين .

***

ولكى يقف القارىء على طرف من هذا الاقتباس ، او قل هذا النقل ، نذكر أن مما اشتملت عليه قصة الأوذيسة حديثا طويلا يدور بين تليماك والملك منلاس، وفى هذا الحديث يقص الملك منلاس أن الآلهة غضبوا عليه فى ماضيه فحجزوه مع رفقاء له عشرين يوما فى جزيرة على سواحل مصر تسمى فاروس ، ثم ظهرت له ابنة شيخ من شيوخ البحر ونبى من انبياء مصر يسمى « بروتى » فقالت إن اباها يخرج من الأمواج كل يوم ثم يمضى الى مغارة فى الجزيرة فيتمدد فيها ثم تنام حوله كلاب بحر تخرج هى ايضا من الأمواج. فالوسيلة التى يستطيع بها منلاس أن يخرج من الجزيرة هى أن يفاجىء « بروتى » ساعة نومه ويشد عليه بقوة ، وحينئذ يحاول « بروتى » أن يتخلص فيتحول الى كل نوع من أنواع الحيوانات الزاحفة على الأرض ثم إلى ماء ، ثم إلى نار ، فاذا بقى منلاس قابضا عليه ولم يدعه يفلت فسيعود الى شكله الانسانى ثم يكلمه ، فعلى منلاس حينئذ أن يسأله بأى وسيلة يخلص من الجزيرة .

وبعد ذلك غابت البنت بين الأمواج ثم ظهرت ومعها جلود أربعة من كلاب البحر فلبسها منلاس وثلاثة من رفقائه الأشداء وكمنوا كذلك الى أن ظهر « بروتى » وعرض كلابه ومن بينها منلاس ورفقاؤه دون أن يفطن اليهم . ثم نام فهجم عليه منلاس ورفقاؤه وشدوا عليه بأيديهم فتحول الى أسد ثم الى تنين ثم الى خنزير كبير ثم الى ماء ثم الى شجرة، ثم لما استنفد كل سحره على غير جدوى تكلم فسأله منلاس ، فعلم منه أن ذفس ، كبير الآلهة ، غاضب عليه لأنه لم يقرب له ضحايا قبل ركوبه البحر، وأنه لن يرضى عنه ولن يأمر الرياح بالاعتدال له إلا اذا قرب له الضحايا . ثم أخبره « بروتى » بكثير من اخبار أصدقائه وبلاده . ثم قال : إن القدر لم يكتب له أن يموت فى مدينة أرجوس التي فيها حقوله بل ستقوده الآلهة الى الأليزيه (الأليزيه كانت فى الاساطير اليونانية

(١) هى جزيرة خرافية تخيلها هومير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

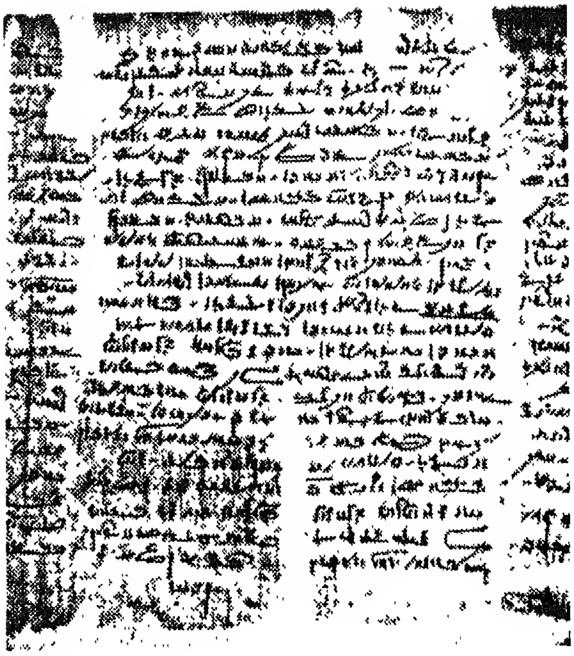

الخط الديموطيقى المصرى

دار النعيم التى يقيم فيها الصالحون) فى آخر الأرض عند الاله رادامانت (١) ، حيث الحياة اهنأ ما تكون وحيث لايوجد ثلج ولا برد قارس ولا مطر ، وحيث لاتوجد عواصف بل توجد ريح الشمال . وبعد ذلك القى « بروتى » بنفسه بين الأمواج فغاب فيها ».

فهذه القصة التى قصها الملك منلاس على تليماك ، علق عليها فيكتور بيرار فقال فى الصفحات ٩٥و٩٦و٩٧ والصفحات التى تليها (٢) ، ما ملخصه انها قبل كل شيء تشبه فى مجموعها القصص المصرية التى جمعها ماسبيرو فى كتابه « القصص الشعبية فى مصر القديمة » (٣) ، وهى قصص ترجع الى ٥٠٠ أو ٨٠٠ سنة على الأقل قبل عصر هومير .

ثم إن شيخ البحر يسحر نفسه أسدا وخنزيرا وماء ونارا مقدسة ، والسحر على هذا الشكل تفيض به القصص المصرية .

ثم إن من الحيوانات التى يتحول شيخ البحر اليها الخنزير الكبير ، والخنزير الكبير تسمية كانت شائعة عند المصريين وكانوا يريدون منها خنزير النهر أو عجل النهر .

ثم إن جميع حوادث هذه القصة وأسماء أشخاصها موجودة فى القصص المصرية بما فيها القبض على « بروتى » وخيانة بنته له .

ثم إن اسم « بروتى » هو اسم فرعون كما أثبته ماسبيرو فى تحليله العلمى ».

ثم إن المصريين كانوا يحبون القصص التى تتكلم فيها الحيوانات .

ثم إن دار النعيم أو (الأليزيه) الموصوفة هنا هى دار مصرية ولا يمكن أن تكون دارا يونانية . إذ مصر هى التى ينطبق عليها أنها لا ثلج فيها ولا مطر ، وأن البرد فيها غير قارس ، أما اليونان فالمطر فيها غزير ، والبرد قارس ، وفيها ثلج فى بعض الأحيان ، وريح الشمال التى يقول هومير إنها تهب على دار النعيم لاتدع شكا فى أن الدار مصرية لا يونانية ، لأن هذه الريح تهب فى مصر من الشمال فتكون عليلة تستروحها النفوس ، أما فى اليونان فان هذه الريح نفسها تكون فى شكل عواصف . والمصريون يحبون هذه الريح واليونانيون يخشونها . أما الاله رادامانت الذى يقاد اليه منلاس فى دار النعيم فهو إله المصريين أوزريس على عرشه فى الحياة الأخرى ».

* * *

هذه هى شهادة فيكتور بيرار ، ونحب نحن أن نكون منصفين فنقول إن الاقتباس هنا يظهر فى صورة إدخال حوادث مصرية وأشخاص مصريين يتخيلهم هومير فى ثنايا قصة الأوذيسة ، ولا يظهر فى صورة اقتباس قصة معينة . وهذا الذى فعله هنا هومير يفعله كل الشعراء وكل الكتاب فلا يؤخذ عليهم أنهم يحكمون المحاكاة بل الذى يؤخذ عليهم هو انهم يقصرون فى المحاكاة ».

فما لم يظهر فى المستقبل أن فى الآداب المصرية قصة معينة كهذه التى قصها منلاس عن وجوده فى جزيرة فاروس ، فليس لقائل أن يقول إن هومير سطا فى هذه القصة على شيء من تلك الآداب . ولكن يقال من ناحية أخرى إن موضوع البحث ليس أن يكون

(١) ردامانت هو فى الأساطير اليونانية احد أبناء دفس .

(٢) كتاب (L'Odyssée — Traduction nouvelle) جزء أول طبعة سنة ١٩٢٥ .

(٣) (Les contes populaires de l'Egypte Ancienne)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هومير قد سطا أو لم يسطُ على الآداب المصرية ، بل أن يكون لهذه الآداب أثر ظاهر فى شعر هومير . فمن هذه الناحية تكون شهادة فيكتور بيرار سليمة ويكون الأثر المطلوب قائما فى تلك المحاكاة .

* * *

والآن ننتقل الى شهادة أخرى ليس الأمر فيها أمر محاكاة لحوادث مصرية يدخلها هومير فى شعره ، بل الأمر فيها أمر قصة مصرية معينة أغار عليها هومير وأدخلها فى الأوذيسة بعد أن حاول أن يلبسها ثوبا يونانيا ، فبقى الثوب شفافا تطل القصة المصرية من ثناياه ، بموضوعها وسياقها ونصوصها .

هذه الشهادة الثانية هى شهادة عالم من علماء المصرولوجيا فى روسيا هو الأستاذ جولنيشيف (M. W. Golénicheff) ، ويؤيده فيها عالم فرنسى هو الأستاذ مورى .

فقد حدث من بضع سنين أن ترجم جولنيشيف ملفا من أوراق البردى المصرية المحفوظة فى إحدى

الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقدس (قطعة من كتاب الموتى)

مكتبات بتروغراد (العاصمة القديمة لروسيا) ، وهو ملف مكتوب بالخط الهيراطيقى فى زمن الأسرة الثانية عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) فاذا به قصة مصرية فى بعض فصولها أن سائحا مصريا ركب البحر ثم غرقت مركبه وقذفت به الأمواج الى جزيرة خرافية ، ثم إذا بهذا الفصل موجود فى الأوذيسة ، لا بمعناه فحسب ، بل بسياقه ، وبكل ما فيه من الأوصاف ، وبالكثير مما فيه من التعبيرات .

ولم يكد جولنيشيف يقف على هذه الحقيقة حتى أذاعها فى رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردى ، وذكر الى جانبها النصوص المماثلة لها من الأوذيسة . فوصلت هذه الرسالة الى مورى فى باريس فدرس ملف البردى الذى ترجمه جولنيشيف وكتب فى كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) المطبوع فى سنة ١٩٢٥ ، فى صفحة ٢٤٠ والصفحات التى تليها يؤيد ما أثبته جولنيشيف ويزيد عليه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ماكتبه هذان العالمان فى موازنة النصوص المصرية بنصوص الأوذيسة فنكتفى بأن ننقل طرفا من هذه الموازنة .

الموضوع فى القصة المصرية هو كما قلنا غرق سفينة لسائح مصرى ، وفى الأوذيسة غرق سفينة عوليس والد تليماك الذى مر ذكره . فالكاتب المصرى يقول فى قصته على لسان بطله :

« ركبت البحر فى سفينة طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ومعى ١٥٠ رجلا من أفضل البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالأعصار قبل ثورانه . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة فجأة . وكنا قريبين من الأرض ، فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

« وقذف بى الموج إلى جزيرة فقضيت فيها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

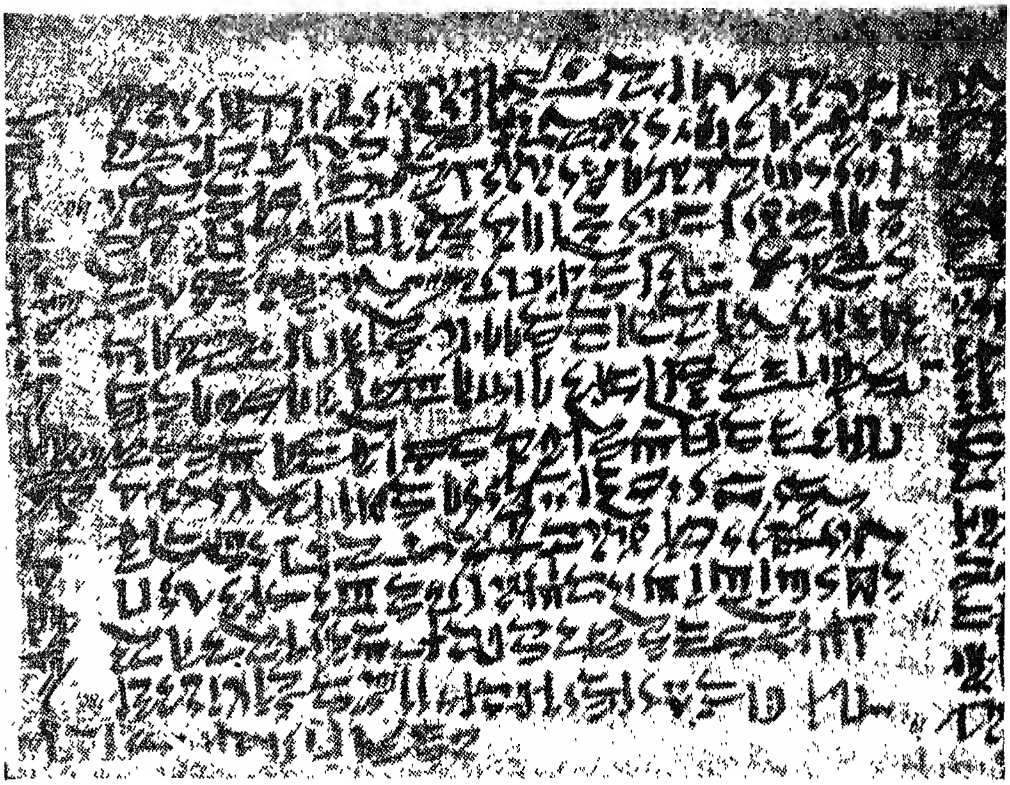

الخط الهيراطيقي المصري

صفحة من ورقة بردي محفوظة في متحف برلين

ثلاثة أيام لا رفيق لي فيها غير قلبي . ونمت في غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بي . ثم مددت ساقي (١) أبحث عن شيء أضعه في فمي . فوجدت تينا وعنبا وكل انواع الكراث الجميلة وبذورا وشماما هو من الكثرة كأنما يصنع صنعا . ووجدت أسماكا وطيورا . وبالاجمال لم يكن شيء إلا وهو في ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداي تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة واشعلت نارا وجعلت القى فيها مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة » .

هكذا كتب الكاتب المصري قصته ، وسنعرب هنا ماكتبه موري عقدا للموازنة بينه وبين ماكتبه هومير في قصته عن عوليس . ونكتفي بأن يكون نصيبنا التعريب حتى لايكون مصري هو الذي يعقد الموازنة ويؤدي الشهادة فيها للكاتب المصري بل يكون الذي يعقد المقارنة ويؤدي الشهادة عالما فرنسيا .

قال هذا العالم بعد أن أورد النص الذي ذكرناه :

« والآن فلننتقل إلى عوليس . بعد أن ترك عوليس جزيرة كاليبسو ركب السفينة وحده فبقي في البحر ثمانية عشر يوما لم يحدث فيها حادث ثم طلعت لعينه جبال فياسي بغاباتها . وحينئذ أثار ذفس (تقدم انه كبير الآلهة في الأساطير اليونانية) العاصفة فارتمت على عوليس موجة عالية فكسرت سفينته وفرقت أخشابها . قال هومير : « وحينئذ ركب عوليس قطعة من الخشب وقادها كما يقود الانسان جوادا » . واستمر عوليس عائما في هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها . قال هومير : « ولم يكن عوليس ينفك في أثناء ذلك عن أن يتناقش مع قلبه » . وقال أيضا : « وأخيرا جاءت موجة كبيرة ودفعت به نحو الشاطىء الوعر » .

(١) المراد بقوله « مددت ساقي » أنه جعل يمشي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانتهى عوليس بأن وصل إلى هذا الشاطىء ثم استطاع بعناية الآلهة أن يلتجىء إلى غابة . قال هومير : « وصنع عوليس لنفسه تحت شجرتين صغيرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس » . ثم نام « تخبئه أوراق الأشجار » . ويمضى هومير بعد ذلك فى الأوذيسة فيجعل عوليس يصف النباتات الرائعة التى تغطى أرض فياسى المباركة . يقول هومير : « فى هذه الأرض أشجار كبيرة باسقة بعضها يثمر الكمثرى والرمان وبعضها يثمر البرتقال الجميل والتين اللذيذ والزيتون الأخضر والعنب الناضج » .

« أما القربان الذى قدمه السائح المصرى للالهة بواسطة النار فهو غير موجود فى هذا المكان من قصة عوليس ، ولكن الاستاذ جولنيشيف لاحظ أن هومير نقله إلى مكان آخر من قصة عوليس نفسها هو المكان الذى يتحدث فيه عن مقام عوليس عند الوحش بوليفيم (١) ، وذلك أن عوليس ورفقاءه يشعلون حينئذ نارا ليقدموا بواسطتها قربانا للالهة بعد أن طعموا من الجبن الذى وجدوه فى مغارة الوحش » .

ذلك ما كتبه مورى ، وقبل أن نمضى فى موازنات اخرى يحسن أن نقول نحن كلمة فى إبراز وجوه الاتفاق بين ماكتبه هومير وما كتبه الكاتب المصرى :

(فأولا) إن العاصفة تهب على السفينة فى القصتين .

(وثانيا) إن عوليس يركب قطعة من الخشب كالتى يركبها السائح المصرى .

(وثالثا) إن السائح المصرى قذفت به موجة إلى الجزيرة ، وعوليس دفعت به موجة إلى شاطىء الجزيرة .

(ورابعا) إن الكاتب المصرى عبر عن وحدة بطله فى الجزيرة وحديثه مع نفسه حينما صعد إليها بأنه لم يكن له رفيق فيها غير قلبه . فقال هومير إن عوليس حينما كان على قطعة الخشب كان يتناقش مع قلبه .

(وخامسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بقى فى الجزيرة ثلاثة أيام وحيدا . فقال هومير إن عوليس بقى على قطعة الخشب ثلاثة أيام بلياليها

(وسادسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله التجأ إلى غابة فى الجزيرة تشبه المخبأ . فقال هومير إن عوليس التجأ إلى غابة وصنع لنفسه تحت شجرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس .

(وسابعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله نام فى الغابة التى التجأ إليها وإن ظلها كان يحيط به . فقال هومير إن عوليس نام فى المأوى الذى صنعه لنفسه وإن أوراق الاشجار كانت تخبئه .

(وثامنا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بحث بعد ذلك فوجد أنواعا كثيرة من النباتات والفاكهة والبذور . فقال هومير إن عوليس بحث بعد ذلك فوجدكثيرا من الأشجار والفاكهة .

(وتاسعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله أراد أن يشكر الآلهة فأشعل نارا وجعل يلقى فيها قربانا تتكفل النار بايصاله إليها . فقال هومير فى مكان آخر من قصته ، وفى حديثه عن عوليس نفسه : إن عوليس ورفقاءه أشعلوا نارا وقدموا بواسطتها قربانا للآلهة .

تلك هى أوجه الاتفاق فيما كتبه الكاتب المصرى وما كتبه هومير . وهو اتفاق يكاد يكون فى التعبيرات .

❊ ❊ ❊

ولم تنته الموازنة بعد لأنها طويلة وهى كلها على هذا المثال فلنستمر .

(١) بوليفيم هو فى الاساطير اليونانية ابن نبتون اله البحر وهو فى صورة وحش ذى عين واحدة . وفى الاساطير اليونانية وحوش كثيرة على هذا الشكل تسمى سيكلوب واكبرها واشدها هو بوليفيم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذكر الكاتب المصرى أن بطله او سائحه نام ، ثم يقول على لسانه :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فاستيقظت وكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى ...

ثم قال لى هـذا الثعبان : « من أتى بك ، من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك ؟ » . ثم وضعنى فى فمه ونقلنى إلى المكان الذى كان يقيم فيه ...

ثم قال لى مرة آخرى : « من أتى بك ، من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هـذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج ؟ »

فيجيب السائح على هذه الأسئلة فيقص قصة سفينته وغرقها كما رأينا .

* * *

وهنا نرجع إلى عوليس ، وهنا أيضا نعرب الموازنة كما كتبها مورى . قال :

« إن الذين يستقبلون عوليس فى أرض فياسى هم نوزيكا وأبوها الملك السينوس ورعيته ، أى انهم اناس لا وحوش . ولهذا لا يوجد دوى رعد فى قدومهم إليه . ولكن هومير لم يفته هذا الرعد فى الفصل الخاص ببوليفيم لأن هذا الوحش يأتى ويأتى معه دوى كدوى الرعد إلىالمغارة التى التجأ إليها عوليس. وقد قال جولنيشيف إن هـذا الموضوع من القصة المصرية انتقل فى شعر هومير إلى مكان آخر . وهو مصيب فى ملاحظته هذه . ويقول جولنيشيف أيضا : إن فى شعر هومير شيئا يستوقف النظر هو أن السائح فىالقصة المصرية يكشف عن وجهه حينما يستيقظ لكي ينظر ، فرفقاء عوليس النائمون على رمال الشاطىء يكشفون هم أيضا عن وجوههم حينما يستيقظون من نومهم على نداء سيدهم . وتلى ذلك مشابهة اخرى هى جلسة السائح المصرى متربعا بالقرب من النار لتقديم القربان وجلسة عوليس متربعا بالقرب من موقد الملك السينوس .

« وهذا الملك ينهض عوليس بيده من جانب الموقد ليجلسه على عرش براق ، والثعبان فى القصة المصرية ينهض السائح من جانب الموقد ويجلسه فى المكان الذى يقيم فيه . ويضيف جولنيشيف إلى كل هذا أن عوليس يسأل فى أرض فياسى مرتين كما يسأل السائح فى القصة المصرية مرتين ، وذلك أن الملكة أريتى تسأل عوليس : « من أنت ، ومن أين تأتى ؟ » وبعد هذا يسأله الملك السينوس مثل هذا السؤال. وحينئذ يأخذ عوليس فى أن يقص كما يقص السائح المصرى الأهوال التى وقعت له » .

* * *

ونعود مرة ثالثة إلى القصة المصرية . إن الثعبان يعطف على السائح ويتفاءل له فيقول :

« لاتخف شيئا ، لاتخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر علىوجهك . لقد وصلت إلى ، لأنه كتب لك أن تعيش وأن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة ... ... ستقيم هنا شهرا بعد شهر ، إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم . وستموت فىمدينتك ... ... ستضم إلى صدرك أولادك ، وستعانق امراتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شىء . ستصل إلى بلادك وستكون فيها بين إخوانك » .

فبكلمات مثل هذه الكلمات يستقبل عوليس فى فياسى . وذلك أن نوزيكا تقوله له .

« إن ذفس هو الذى كتب عليك ما أنت فيه . فيجب أن تتحمله » .

ثم تقول له إن جميع الأغراب والفقراء قريبون من ذفس ، وان ذفس سيرده الى بلاده . وحينئذ يتمنى عوليس أن يجد امراته فى داره فى صحة جيدة ، وأن يجد أصدقاءه فى صحة جيدة أيضا ، فتدعو له نوزيكا ويدعو له ابوها السينوس بأن ينعم برؤية امراته واولاده واصدقائه وداره فى بلده، وهذا كله شبيه بما فى القصة المصرية ، لايكاديختلف عنه إلا فى بعض الألفاظ .

* * *

ونعود الى القصة المصرية مرة رابعة .

يملك الفرح السائح المصرى حين يسمع من الثعبان انه سيعود الى بلاده ، وسيرى أولاده وامرأته وداره ، فيقول له :

« سأصف أرواحك لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسة وطيبا مما يقدم لكل إله . . . وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر كما يفعل الناس لاله» .

فعوليس أيضا يشكر السينوس فيدعو له بمجد لايفنى بالقرب من ذفس ثم يسكر نوزيكا فيؤلى على نفسه أن « يدعو لها كما يدعو لآلهة » .

❊ ❊ ❊

ونعود مرة خامسة .

يجيب الثعبان فيقول للسائح المصرى :

« إننى ملك بلاد بونت (١) ، فبعد أن تفارق هذا المكان لن ترى هذه الجزيرة ابدا لأنها ستتحول إلى أمواج » .

ثم يتحدث السائح عن الجزيرة فيقول إنها « أرض بعيدة لم يعرفها الناس » .

كذلك أهل فياسى يقيمون فى جزيرة شيرى « بعيدا من الناس المتمدينين » .

وتتحدث نوزيكا عن هذه الجزيرة فتقول : « إنها فى أطراف الأرض ، فى وسط البحر المضطرب ، بعيدة من الناس » .

والثعبان فى القصة المصرية يقول إنه « ملك بلاد بونت » ، اى انه وهو فى الجزيرة التى يحادث فيها السائح المصرى لايقيم فى بلاده التى هو ملك عليها بل يقيم فى جزيرة بعيدة منها . وأهل فياسى فى القصة الهوميرية ليسوا من أهل جزيرة شيرى التى يستقبلون فيها عوليس بل هم من أهل هيبريا .

والجزيرة فى القصة المصرية تختفى بين الأمواج بعد سفر السائح المصرى منها ، وجزيرة شيرى فى القصة الهوميرية نصيبها التدمير بعد سفر عوليس منها ، لأن الاله بوزيدون ينتقم من الفياسيين فيغطيهم ويغطى أرضهم بصخرة .

وملك الجزيرة فى القصة المصرية ، اى الثعبان ، ينبىء السائح بمصير الجزيرة بعد سفره منها . وملك الجزيرة أيضا فى القصة الهوميرية ، وهو السينوس ، يخبر عوليس بمصير الجزيرة بعد سفره منها .

❊ ❊ ❊

ومرة سادسة .

حينما يسافر السائح المصرى من الجزيرة التى هو فيها يودعه الثعبان بهذه التمنيات :

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . ستری أولادك ، وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك » .

ثم يعطيه هدايا . وبعد ذلك يتجه السائح إلى الساحل ، ويشكر الثعبان ، ثم يركب السفينة .

وعوليس حينما يسافر، يتمنى له الملك السينوس الصحة ويعطيه هو والفياسيون هدايا ، وحينئذ يشكرهم عوليس ويحييهم .

❊ ❊ ❊

ومرة سابعة .

تصل السفينة بالسائح المصرى الى وطنه فتجنح ويرتطم مقدمها بالساحل . كذلك سفينة الفياسيين تجنح وترتطم حتى يكون نصفها على الساحل ونصفها الآخر فى الماء .

ويدخل السائح المصرى على فرعون فى شكل رجل « رأى أشياء كثيرة ومرت به محن كثيرة » .

وعوليس يقول :

« انا الذى مرت به كثير من المحن فى محاربته للرجال والأمواج . انا الذى راى المدن وعرف طبائع كثير من الناس وتألم فى قلبه من آلام عدة عاناها فى البحر » .

وفرعون يقول للسائح المصرى :

« كن خادما بصيرا فطنا » .

(١) بلاد بونت هى البلاد التى كان المصريون يجلبون منها الطيب والنباتات ذات الرائحة الزكية . وبعض الباحثين يرجح أن المقصود بها بلاد الصومال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعوليس يقول مثل هذه الكلمة أيضا .

* * *

ونقف عند هذا الحد من الموازنة . ونحسب أن في ما تقدم كفاية للقول بأن في أوذيسة هومير أثرا واسعا من القصة المصرية التى اشتملت عليها ورقة البردى رقم ١١٥ فى مكتبة بتروغراد . بل نحسب أن هنالك اكثر من الأثر الواسع يراه كل من ينظر فى فكرة القصتين وفى صياغتهما . ولسنا نحكم بهذا وحدنا بل يحكم به معنا العالمان جولنيشيف وموري . وإليك ماكتبه هذا الأخير فى صفحة ٢٤٩ من كتابه الذى مر ذكره بعد أن عرض وجوه الموازنة بأوسع مما عرضناها هنا . قال :

« من كل هذه الموازنات التى ابرزها جولنيشيف بدقة تامة ، يتضح لى ، كما اتضح له ، أن « هنالك فى الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسيين » (١) ، وليس ذلك مقتصرا على الجزئيات التى يمكن أن توجد على انفراد فى كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق . بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة فى القصتين واحدة » .

وهذه الورقة التى ترجمها جولنيشيف هى واحدة من عشرات من أوراق البردى التى بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر بالخير تارة وبالشقاء تارة فأمكن أن تنجو من التدمير . فانظر أى أثر كنا نجده لمصر فى الآداب والعلوم اليونانية لو أن آداب مصر وعلومها بقيت ، ولو أن المكتبات التى ثبت أن مصر كانت تعمر بها منذ الأسرة السادسة (اى منذ خمسة آلاف سنة) بقيت ولم تعد عليها عوادى البلى والنهب والحريق .

* * *

وننظر الآن فى اقتباس آخر اقتبسه هومير من أسطورة إيزيس وأوزريس المصرية .

تتلخص الأسطورة المصرية فى أن سيت قتل أخاه أوزريس وألقى فى النيل بالصندوق الذى يحتوى جثته ، فعام الصندوق من النيل الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم وصل الى ثغر ببلوس (جبيل) على سواحل سوريا . ووقفت به الأمواج عند جذع شجرة أثل ، فنمت هذه الشجرة حتى طوت الصندوق فى جوفها . ورآها بعد ذلك ملك المدينة فأعجبته ، وأمر فنزعت من الأرض واقيم جذعها عمودا لقصره . وعلمت إيزيس بذلك كله فجاءت الى ببلوس وجلست بالقرب من ينبوع ماء تبكى ، ثم مرت بها جوار هن فى خدمة الملكة ، فحيتهن برفق ، وعرضت عليهن أن تضفر شعورهن وأن تمسح اجسامهن بمثل الرائحة الزكية التى تفوح من جسمها .

فلما فعلت وعاد الجوارى سألتهن الملكة فأنبأنها بنبأ المرأة التى ضفرت شعورهن وطيبتهن ، فاستقدمتها الملكة وجعلتها مربية لطفلها .

وهنا نعرب ما كتبه بلوطرك تكملة لسياق الأسطورة ، قال (٢) :

« وكانت إيزيس كلما ارادت ارضاع الطفل وضعت له أصبعه فى فمه . فاذا جاء الليل أشعلت النار فيما يحتويه جسمه من عناصر الفناء . ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتشكل فى شكل قطاة وتطير حول العمود الذى فيه صندوق أوزريس صائحة ناشجة . فراقبتها الملكة ذات ليلة . فلما رأتها تلقى بطفلها فى النار ، صاحت وانتشلته ، فحرمته بذلك من نعمة الخلود . وحينئذ كشفت إيزيس عن نفسها فى صورة إلهة وطلبت أن تأخذ العمود . ثم نزعته بغير عناء ، وقطعته حتى ظهرت قطعة الخشب التى فيها الصندوق ، فغطتها بنسيج رقيق من الكتان ، وطيبتها برائحة زكية ... الخ » .

فهذا الجانب من الأسطورة المصرية أخذه هومير ونقله فى شعره الى الأسطورة اليونانية التى وضعت

---

(١) هذه الجملة التى تبتدىء بكلمة « هناك » وتنتهى بكلمة « الفياسيين » وضعت بين اقواس للدلالة على انها مقتبسة بنصها مما كتبه جولنيشيف .

(٢) الفقرة ١٦ ، والصفحة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) ترجمة (Mario Meunier) الطبعة السابعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لالهة يونانية تسمى « ديميتر » (١) ، فقال : إن هذه الالهة لما علمت بخطف بنتها كورى « حز الألم فى قلبها ، ومزقت بيديها الشرائط التى تمسك شعرها، والقت على نفسها رداء أسود » .

والأسطورة المصرية تقول : إن إيزيس لما علمت بقتل أوزريس « قطعت خصلة من شعرها ولبست ثوب حداد » وجعلت « تجول فى كل مكان فريسة لأعظم ما يمكن من الحزن » (٢) .

فقد يقال إن شبهة الاقتباس فى هذا التشابه ضعيفة لأنه من الطبيعى أن تحزن ديميتر وتلبس لباس الحداد حينما تعلم بخطف بنتها كما حزنت إيزيس ولبست لباس الحداد حينما علمت بقتل زوجها . وقد يكون من الطبيعى أيضا أن تمزق إحداهما شرائط شعرها كما قطعت الأخرى خصلة من شعرها . ولكن انظر ماذا قال هومير بعد ذلك(٣) .

قال إن ديميتر تعبت فى البحث عن بنتها ، فوقفت فى قصر ملك يسمى كليوس لتستريح ، فاستدعتها زوجة هذا الملك وعهدت اليها أن تقوم على تربية طفلها ، فنما هذا الطفل بين يدى مربيته هذه الجديدة « كأنه إله من غير أن يرضع لبنا أو يأكل خبزا » وكانت ديميتر تدهن جسمه بالعنبر وتمسكه بين يديها وتنفخ عليها انفاسها برفق ، فاذا جن الليل خبأته فى النار وهو كالجذوة ، وراقبتها أم الطفل فرأتها ذات مرة وهى تضعه فى النار فذعرت وانتزعته ، وبذلك حرمته ، على غير علم منها ، نعمة الخلود ، لأن النار التى كان يوضع فيها كل ليلة كانت هى التى تطهره من عناصر الفناء وتجعله بعد ذلك خالدا (٤) .

(١) (Déméter) هى من اكبر الالهة فى اليونان القديمة . وكانت تمثل الارض ، والقوى الطبيعية ، وتعتبر الهة للزراعة ، وحامية للزواج . وتلخيص اسطورتها ان لها بنتا تسمى كورى خطفها هاديس فجعلت تجوب الارض بحثا عنها ، فلما وصلت الى ارض فى اليونان تسمى ايلوزيس رحب بها ملكها فعلمته الزراعة ، وصارت هذه الارض مركزا لعبادتها .

(٢) الفقرة ٦٠ من كتاب (Isis et Osiris) الذى مر ذكره

(٣) ص ٦٠ من المصدر السابق .

(٤) راجع فى ذلك تعليق ماريو مونى (Mario Meunier) على الفقرة ١٦ ص ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) .

فمن هو الذى يقرأ هذا الذى كتبه هومير فى أسطورة ديميتر اليونانية ولا يرى فيه أثر الاقتباس من أسطورة إيزيس المصرية . فديميتر دعيت لتكون مربية لطفل الملكة ، كما دعيت إيزيس لتكون مربية لطفل الملكة . والطفل فى يد ديميتر لايتغذى باللبن ولا بالخبز ، كالطفل فى يد إيزيس كلما أرادت ارضاعه وضعت له إصبعه فى فمه . وديميتر تدهن للطفل جسمه بالعنبر ، كما دهنت إيزيس جوارى الملكة وشعورهن بالطيب . وأهم من هذا كله وأقوى أن ديميتر تضع الطفل فى النار بقصد أن تحرق ما فى جسمه من عناصر الفناء فيصير خالدا ، وإيزيس تفعل فى الطفل ذلك بعينه وللقصد عينه . وأم الطفل فى الأسطورتين تراقب المربية فتراها وهى تضعه فى النار فتنزعج وتنتزعه ، فتحرمه بذلك على غير علم منها نعمة الخلود .

لا جرم أن القصتين متشابهتان فى هذا الجانب منهما ، بحيث لايقبل العقل الا أن تكون واحدة منهما قد اقتبست من الأخرى ، ولما كانت الأسطورة المصرية أقدم من شعر هومير بقرون وقرون ، فلا نزاع فى أن هومير هو الذى اقتبس .

* * *

وقد تظن أن هذا الذى عرضناه عليك هنا هو كل ماوجده العلماء من أثر مصر فى شعر هومير ، فكلا ، واعلم إذن أن مورى وجد هذا الأثر أيضا فى إلياذته (٥) ، فعقد له فصلا خاصا من صفحة ٢٥١ الى صفحة ٢٧٣ من كتابه (Rois et Dieux d' Egypte) أثبت فيه أن كثيرا مما فى الألياذة مقتبس من قصص مصرية أو رسوم مصرية ، بكل ما فيها من الحوادث والتفصيلات والأوصاف ، كما رأينا فى قصة عوليس . واعلم أيضا أن عالما آخر يسمى هلبيج (Helbig) بحث هذا البحث نفسه ، وانتهى الى هذه النتيجة نفسها . ومن أراد فليرجع إليهما .

* * *

ولمصر أثر آخر فى المدلية اليونانية اثبته البحث فى

(٥) الالياذة هى مجموعة من الشعر قص فيها هومير حوادث حرب اليونانيين لمدينة طروادة ، وهى والأوذيسة تعتبران أرقى الشعر اليونانى القديم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السنين الأخيرة أيضا وهو أوضح وأعم وأعمق بكثير مما وجدناه فى شعر هومير . وهذا الأثر الذى نريده هو ما اقتبسته ، أو قل مانقلته الأساطير والديانات اليونانية من الأساطير والديانات المصرية . وقد أشرنا الى هذا من قبل فلا يفوتنا هنا أن عالما من عشاق المدنية اليونانية هو بول فوكار (Paul Foucart)(١) أثبت أن مايعرف فى الديانات اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » (Eleusis) (٢) ، ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة ثوبا يونانيا . وقد أقره على ذلك وأيده فيه ماسبيرو فى بحث عقده فى كتابه (Causeries d'Egypte) فى الصفحات من ٥٩ إلى ٦٩ .

ولا يفوتنا أيضا أن هذين العالمين أثبتا أن الاله اليونانى ديونيسوز (Dionysos) ليس سوى الاله المصرى أوزريس لابسا ثوبا يونانيا .

* * *

فأثر مصر فى المدنية اليونانية يتضح إذن على ضوء البحث العلمى شاملا كل مناحيها . وهو لم يكن معروفا الى سنين ولكنه الآن يبدو كلما ترجم العلماء أوراق بردى مصرية ، وكلما تعمقوا فى موازنة آثار مصر بآثار اليونان. ولهذا أخذ يتزعزع الاعتقاد القديم القائل بأن المدنية اليونانية أول عهد الانسان بالتفكير العلمى وأن المدنيات التى سبقتها لم تكن سوى فوضى فكرية لا تستحق أن يحسب لها حساب . ونقول « أخذ يتزعزع » ولا نقول انهدم ، لأنه لا يزال قائما ولا يزال قويا ، ولكن التصدع أخذ يدب فيه . ومن أعجب الأشياء أن عشاق المدنية اليونانية القديمة هم الذين يخرج منهم أمثال فيكتور بيرار وفوكار ، فيظهرون ما فى ذلك الاعتقاد من الزيف ، ويشهدون بالفضل السابغ لمصر على المدنية اليونانية .

وليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، ونحن نعرف كما قلنا أن كثيرا من علماء اليونان تعلموا فى مصر ، وأن اليونانيين اختلطوا فى مستهل مدنيتهم بالمصريين حتى كانت لهم فى مصر المدن اليونانية وكان الجيش المصرى بعضه مصريا وبعضه يونانيا مأجورا . ليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، وها هو ذا البحث العلمى يكشفه الآن يوما فيوما ، أفلا يكون مما يلفت النظر بعد ذلك أن يقرأ الانسان العلوم والآداب اليونانية فلا يجد فيها صدى لعلوم وآداب مصرية ، ولا ذكرا لعلماء وكتاب مصريين ... !!

(١) يصف معجم لاروس العالم فوكار بأنه عالم فرنسى من المحبين للمدنية اليونانية والمشتغلين بالآثار القديمة ، وقد ولد فى باريس فى سنة ١٨٣٦ .

(٢) هى عبادة كان طلابها يتلقونها فى معبد بالقرب من أثينا ، وكانت لها مواسم تحتفل بها فيها اليونان كلها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة الغريق

بعد أن أشرنا فى البحث السابق إلى « قصة الغريق » المصرية وما اقتبسه هومير منها ، يحسن أن ننشر هنا ترجمة عربية لهذه القصة .

كان الذى عثر على هذه القصة هو الأستاذ جولنيشيف(١) المصرولوجى الروسى كما تقدم . وقد عثر عليها فى محفوظات الدير الامبراطورى فى بتروغراد فى سنة ١٨٨٠ . ولم يعرف أحد إلى الآن كيف وصلت إلى هذا الدير ، ولكنها وجدت فى محفوظاته فى ملف من البردى لم يكن قد فتح ، فلما فتحه جولنيشيف وجده مكتوبا بالخط الديموطيقى المصرى فترجمه إلى اللغة الفرنسية ، واذاع خبره فى مؤتمر عقد للمستشرقين فى برلين سنة ١٨٨١ ، ثم طبع الترجمة ونشرها من غير أن ينشر النص الديموطيقى . وفى سنة ١٨٩١ عاد فترجمه مرة ثانية ، إلى اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه فى هذه المرة نشر الترجمة الجديدة ونشر معها النص الديموطيقى .

وهذه القصة هى إحدى القصص القليلة التى وجدت سليمة وكاملة . ويرى العلماء فى اللغة المصرية القديمة أنها وضعت فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد اخذ مورى بالترجمة الثانية التى وضعها جولنيشيف . وكان ماسبيرو قد أخذ بها هو أيضا فنقلها فى الطبعتين الأوليين من كتابه « القصص الشعبية لمصر القديمة »

(Les Contes Populaires de l'Anciens Egyptiens)

ولكنه لما طبع الطبعة الثالثة من كتابه هذا ، كان قد قرأ النص الديموطيقى الذى نشره جولنيشيف فوضع ترجمة نشرها فيه . وهى لا تختلف عن ترجمة جولنيشيف إلا فى مواضع قليلة والفاظ قليلة . وهذه هى القصة :

قال الخادم الماهر :

ليطب قلبك يا رئيسي ، فقد وصلنا إلى الوطن ، واخذ الرجال المطرقة ، ودقوا الوتد ، وجعلوا مؤخر السفينة حيال الشاطىء ، وهتفوا ، وصلوا للآلهة ، واخذوا يتعانقون . .

وقد عاد بحارتنا فى صحة جيدة ، ولم ينقص منا جندى واحد .

لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات (٢) ومررنا بسانمويت (٣) وعدنا الآن فى سلام ، ووصلنا إلى وطننا .

الق لى سمعك يا رئيسى ، فلست رجل حيلة . اغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم افض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جاشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون كلامه قاضيا عليه بأن يغطى وجهه (٤) افعل ما يرشدك إليه قلبك ، وليكن ما تقوله أداة سلام لك .

سأقص عليك بالحق ما وقع لى أنا نفسى . كنت قاصدا إلى مناجم الملك فركبت البحر فى سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا (٥) ومعى

---

(١) (M. Woldemar Golénicheff)

(٢) يقول ماسبيرو ان بلاد واوات هى التى كانت واقعة فيما وراء الشلال الثانى من بلاد النوبة .

(٣) سانمويت اسم يطلق على جزيرة فى النيل تسمى الآن بيجه ، وهى واقعة أمام جزيرة فيله عند الشلال الأول .

(٤) كانت العادة جارية بتغطية وجه المجرم المحكوم عليه بالعقاب، فالكاتب يريد أن يقول ان كلام الرجل قد يجعله من المجرمين الذين يقضى عليهم بتغطية وجوههم .

(٥) ان كان المقصود بالذراع هنا الذراع الملكى فطوله ٥٢ سم ، ويكون طول السفينة حوالى ٧٨ مترا وعرضها ٢١ مترا . ويرى ماسبيرو أن هذين القياسين مبالغ فيهما لأن السفن التى ارسلتها الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت لم يكن طول الواحدة منها يتجاوز ٢٢ مترا ، ولم يكن عدد الرجال فى كل واحدة منها يزيد على ٥٠ رجلا . ويظهر أن هذه المبالغة فى حجم السفينة وفى عدد رجالها مقصودة لان الأمر أمر قصة خرافية يجب ان يصاحبها التهويل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود. ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه (١) . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة فجأة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها ، وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعـــة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

وقذفت بى موجة إلى جزيرة(٢) ، فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى أبحث عن شىء أضعه فى فمى فوجدت تينا ، وعنبا ، وكل أنواع الكراث الجميلة ، وبذورا ، وشماما هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا (٣) ، ووجدت أسماكا وطيورا . وبالاجمال لم يكن شىء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة واشعلت نارا ، وجعلت القى فى النار مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .

ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فكشفت عن وجهى ، فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى(٤) ، طوله ثلاثون ذراعا ، ولحيته يزيد طولها على ذراعين (٥) ، وجسمه مرصع بالذهب ، ولونه كلون اللازورد . ثم وقف هذا الثعبان أمامى ، وفتح فمه فى وجهى ، بينما كنت قد انطرحت على بطنى ، ثم تكلم فقال :

«من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير (٦) من أتى بك ؟ إن أنت تأخرت عن أن تقول لى من أتى بك إلى هذه الجزيرة فسأعرفك من أنت (٧) . فاما أن ألقيك فى النار فتختفى فيها ، أو تقول لى ما لم أسمعه ولم أعرفه قبل رؤيتك » .

ثم حملنى فى فمه ، ونقلنى إلى المكان الذى يقيم فيه ، من غير أن يصيبنى أذى . وكذلك انتقلت سليما معافى لم ينقص منى شىء .

ثم قال لى مرة أخرى :

« من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هـذه الجزيرة التى تغوص شـواطئها فى الأمواج ؟ » .

وكنت إذ ذاك منبطحا على بطنى ويداى مرسلتان أمامه فأجبته قائلا :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السـماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه. وكان كل واحد منهم أقوى من أخيه قلبا وذراعا . ولم يكن بينهم جبان . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة

---

(١) فى الترجمة التى وضعها ماسبيرو : « وكان هؤلاء البحارة قد تنبأوا بأن لا عاصفة ولا نكبة » بدل « ثم كانوا الى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه » .

(٢) فى ترجمة ماسبيرو : « ولكن العاصفة هبت ونحن فى البحر ، وقبل أن ندرك الأرض . ثم اشتدت الريح فأثارت موجة ارتفعت الى ثمانية أذرع ، فنزعت لوحا من الخشب ، وهلك كل الذين كانوا فى السفينة . أما أنا فانى وصلت الى جزيرة بعد أن دفعتنى موجة اليها » .

(٣) كلمات « هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا » ليست موجودة فى ترجمة ماسبيرو ، وانما الموجود فى مكانها « شماما من كل نوع » .

(٤) يلاحظ هنا أن هذا الثعبان لم يظهر الا بعد ان احرق السائح القربان فى النار ، مع أن السائح كان قد مكث قبل ذلك ثلاثة أيام . فكأنما احراق القربان هو الذى دعا الثعبان الى الظهور ، مثل ذلك كمثل الأعمال السحرية التى لابد فيها من احراق البخور لأجل الاتصال بالقوى الخفية . وفى ترجمة ماسبيرو :

« ولم أشعر بعد ذلك الا وقد سمعت دويا ، فقلت فى نفسى = « هو ذا دوى موجة من أمواج البحر » ثم خفقت الأشجار ، وارتجت الأرض ، فكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا يتقدم نحوى » .

وقول السائح « كشفت من وجهى » معناه أنه لم يدع شيئا يحجب نظره الى الأمام . أو لعل السائح كان قد غطى وجهه قبل ذلك ، ولكن ليس فى سياق القصة ما يدل على انه كان قد فعل .

(٥) كان من المألوف عند المصريين أن يجعلوا للآلهة لحى ، وأن يرسموا الملوك بلحى مستعارة متى أرادوا تصويرهم فى صورة الآلهة . فالمفهوم من قول السائح هنا أن الثعبان ذو لحية يزيد طولها على ذراعين أن هذا الثعبان اله .

(٦) فى ترجمة ماسبيرو توجد كلمة «التابع» بدل كلمة «الصغير»

(٧) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال انها تتردد كثيرا فى النصوص المصرية القديمة ، وأن المراد بها « سأعرفك مجـزك عن مقاومة قدرتى » . ونقول نحن ان هذا التعبير لا يـزال مستعملا فى مصر بهذا المعنى الى اليوم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجاة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها واثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورايت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليهـا وركبتها . ومات كل الذين بقـوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد . وقد انقضت على ثلاثة أيام ، والآن هاأنذا قريب منك ، وأنا الـذى دفعتنى موجة إلى هذه الجزيرة » .

فقال الثعبان :

« لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت إلى لأنه كتب لك أن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة(١) التى فيهـا كل شىء ، والتى هى مملوءة بالأشياء الطيبة . ستقيم هنا شهرا بعد شهر إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم ، وستموت فى مدينتك .

« إن مما يوجب ارتياحى أن أطلع رجلا عانى الآلام مثلك على ما هنا . فساخبـرك إذن بمـا فى هـذه الجزيرة لا انقص منه ولا أزيد .

« إننى أعيش فى هذه الجزيرة بين أخوتى وأبنائى . وعددنا خمسة وسبعون ثعبانا . وعدا ذلك توجد فتاة جاءتنى من طريق السحر ، وذلك أن نجمة سقطت ، فخرج منها الذين كانوا فى نارها ، وظهرت الفتاة من غير أن اكون مع الكائنات التى خرجت من النار أو بينها ، وإلا فلو أننى كنت مع هذه الكائنات أو بينها لمت . وقد وجدت الفتاة بعد ذلك ميتة وحدها(٢) .

« وبعد ، فاقـول لك إنك إن كنت شـجاعا ، وكان قلبك قويا فستضم إلى صـدرك أولادك ، وستعانق امراتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شىء . ستصل إلى بلادك ، وستكون فيها بين إخوانك » .

وحينئذ انبطحت أرضا على بطنى وقلت :

« دونك الآن ما أريد أن افضى به إليك . سأصف أرواحك (٣) لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسـة ، وطيبا ، ودهانا ، وصندوقا لذخائرك المقدسة ، وبخورا للمعابد مما يعجب كل إله . وسأقص على فرعون ما أتيح لى أن أراه هنا ، وسيعبدك الناس فى مدينتك بمحضر أعيان الأرض جميعا (٤) . وسأذبح لك ثيرانا ثم أحرقها فى النار . وسأخنق لك طيورا (٥) . وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر ، كما يفعل الناس لاله محب لهـم فى بلاد بعيدة لا يعرفونها » .

فضحك منى ومن كلامى ، ثم قال لى :

« ليس عندك مر كثير (٦) ، وكل لديك بخور . أما أنا فانى ملك بلاد بونت ، وعندى مر . والشىء القليل وحده فى هذه الجزيرة هو الزيت المقدس (٧) . على أنك متى فارقت هذه الجزيرة فلن تراها لأنها ستتحول إلى أمواج » .

فلما جاءت السفينة ، كما كان الثعبان قد أخبرنى ، صعدت فوق شـجرة عالية وجعلت ارقب الذين فيها . ثم ذهبت إلى الثعبان وابلغته الخبر فوجدته يعرفه ، وحينئذ قال لى :

(١) فى ترجمة ماسبيرو ان هذه الجزيرة تسمى « جزيرة الأرواح السعيدة » .

(٢) يعلق ماسبيرو على حكاية هـذه النجمة فيرجح أن المقصود بها شهاب من الشهب التى تظهر فى الجو او صاعقة . ويقول ان هذه هى الاشارة الوحيدة التى وجدت فى النصوص القديمة لمثل هذا المعنى .

ويقول ماسبيرو أيضا : ان النص الديموطيقى مبهـم فى هـذه النقطة وان جولنيشيف ترجمه على ان الفتاة ميتة لان نار الشهاب او الصاعقة احرقتها . ولكنه هو ـ اى ماسبيرو ـ يرى أن النص معناه أن الفتاة حية وان الثعبان لا يعرف كيف ولدت ، وقد راى هذا الثعبان الشهاب حينما سقط ثم رأى النار التى اضطرمت بعد سقوطه فلم يقترب منها بل انتظر حتى خمدت ثـم اقتـرب فوجد الفتاة بين الجثث من غير أن يعرف كيف جاءت .

(٣) كانت الاساطير تقول ان لكل اله سبعة ارواح .

(٤) المراد بالأرض جميعـا مصر . ويلوح ان المراد بقوله « وسيعبدك الناس فى مدينتك » أن السائح يعد الثعبان بأن تكون له عبادة فى مصر ومدينة يعبد فيها كما كان رع يعبد فى هليوبوليس وبتاح فى ممفيس وتوت فى الأشمونين وامون فى طيبة ... الخ .

(٥) المراد بقوله « وساخنق لك طيورا » انه سيقدم له قرابين من الطيور .

(٦) معروف أن نبات المر اذا احرق نشر رائحة زكية . وقد كان المصريون يجلبونه من بلاد بونت (التى يقال انها بلادالصومال كما يقال انها جنوب بلاد العرب) ليقدموا منه هدايا للآلهة .

(٧) ترجم ماسبيرو « الزيت المقدس » على انه «طيب التهليل» وقال انه يسمى « هاكاتو » ولم يعرف العلماء شيئا عن تركيبه ولكنهم يعرفون أنه واحد من زيوت سبعة كانت تقدم للآلهة ، وفى الحفلات الجنائزية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك . وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك . تلك هى أمانى لك » .

فانبطحت على بطنى أمامه ، وأرسلت يدى ، فأعطانى من الهدايا مرا ، وزيتا مقدسا ، ودهانا ، وصندوقا ، وفلفلا ، ومسحوقا ، وكحلا ، وسروا ، وبخورا ، وذيول حيتان ، وأنياب فيلة ، وكلابا سلوقية ، وقرودا ، وغير ذلك من كل ماهو ثمين(١) . فحملت هذه الهدايا إلى السفينة ، ثم انبطحت على بطنى وعبدت الثعبان ، فقال لى :

« ستصل إلى بلدك بعد شهرين ، وستضم اولادك إلى صدرك ، وبعد ذلك تمضى إلى قبرك لتجدد شبابك (٢) .

فسرت إلى الشاطىء حيث السفينة ، ودعوت الجنود الذين فيها ، وصليت على الشاطىء لسيد الجزيرة وللذين يقيمون فيها .

ولما عدنا إلى مدينة الملك جنحت السفينة وارتطم مقدمها بالساحل . ووصلنا إلى قصر الملك فى الشهر الثانى ، كما كان الثعبان قد تنبأ . فمثلت أمام الملك وقدمت له الهدايا التى جلبتها من الجزيرة ، فشكرنى أمام اعيان الأرض جميعا . ثم أدخلت خدمة الملك وصرت متصلا بكبار حاشيته .

والآن فخفض نظرك لى ، فقد عدت إلى ارض مصر ، بعد ان رأيت أشياء كثيرة ، ومرت بى محن كثيرة . اصغ إلى فان الاصغاء نافع . لقد قال لى فرعون « كن خادما بصيرا فطنا يا صديقى » ، فمن هو الذى يسقى ألطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » (٣)

انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « أمونى ـ أماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياة والصحة والقوة .

❊ ❊ ❊

هذه هى قصة الغريق ، ويفهم من مقدمتها انها رفعت من مرؤوس إلى رئيسه . ويقول الكاتب : « ليطب قلبك يا رئيسى فقد وصلنا إلى الوطن » ثم يقول : « أغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جاشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون قاضيا عليه بأن يغطى وجهه » . فهل يفهم من ذلك أن الرئيس الذى رفعت إليه القصة كان مع مرؤوسه فى الرحلة التى يشير إليها فى قوله : « لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات ومررنا بسانموت وعدنا الآن فى سلام ؟ » أو هذا الرئيس لم يكن فى الرحلة ثم لما عاد المرؤوس وجب ان يقدم إليه تقريرا عما فعله ، كما يقدم الآن كل قائد بحرى تقريرا إلى وزير البحرية عن رحلة أمر بها فاداها وعاد منها ؟

ليس فى القصة جواب على هذا . وكل ما يفهم من المقدمة أن الرئيس الذى قدمت القصة إليه كان عليه أن يقابل الملك ، وان يتحدث إليه فى امر قد تكون فيه مؤاخذة له ، ولذلك يوصيه الكاتب بان يتطهر ويتشجع ويحرص على اجتناب الزلل فى الكلام . ويضيف الكاتب الى ذلك فى ختام قصته كلمة يطمئنه بها ، وهى قوله « لقد قال لى فرعون ، كن خادما بصيرا فطنا ياصديقى . فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » .

أما القصة نفسها فهى من القصص الشعبية ، ومن الطبيعى أن تظهر فيها صور من الأساطير والعادات الدينية القديمة ، لأنها بغير ذلك تكون غريبةعن زمانها

---

(١) علق ماسبيرو على هذه الأنواع من الهدايا فقال انها هى بعينها التى جلبتها من بلاد بونت الحملة البحرية التى ارسلتها بعد ذلك الملكة حتشبسوت ، بحيث لا يوجد بين هذه وتلك الا اختلاف قليل .

(٢) الظاهر أن قوله « تمضى الى قبرك لتجدد شبابك » محمول على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموت ليس فناء للأنسان ، وانما هو انتقال من حياة الى أخرى . وكانوا يعتقدون ايضا أن الرجل الصالح يبعث فى الحياة الاخرى شابا . وقد تقدم هذا كله فى البحث الخاص بعقيدة الحساب بعد الموت .

(٣) علق ماسبيرو على قول الكاتب « فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » فقال ان هذه =

= الجملة تقع فى الأذن كما يقع المثل فلعلها كانت مثلا مصريا . اما معناها فهو أن الرجل الذى يسقى طيره فى بكور النهار يدل بذلك على انه لاينوى أن يذبحه فى هذا النهار نفسه ، واذن يكون للطير الذى سقى أن يطمئن فى نهاره كما يكون لكل رجل ناله خير من سيد قادر أن يطمئن الى هذا الخير والا يتوقع من ورائه شرا عاجلا من هذا السيد نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبيئتها . ولكن من الخطأ أن يظن انها وضعت للتعبير عن فكرة دينية معينة .

وقد كانت عامة المصريين تقبل على هذا النوع من القصص ، كما تقبل عليه الآن . ولذلك وجد فى قصص عدة ، بعضها يقص سياحات فى سوريا (١) ، وبعضها يقص رحلات فى البحر الأبيض المتوسط (٢)، وبعضها يقص رحلات فى النوبة (٣) ، ثم قصتنا هذه تقص رحلة فى البحر الأحمر .

وقبل أن تعرف هذه القصص كان الاعتقاد عاما بأن المصريين القدماء كانوا يكرهون ركوب البحر والخروج من بلادهم ، وكان الكتاب اليونانيون والرومانيون هم الذين انشأوا هذا الاعتقاد ، لأنهم ادعوا هذه الدعوى ثم غالوا فيها فزعموا أن المصريين كانوا يستأجرون بحارة فينيقيين لسفنهم كلما أرادوا أن تشق سفينة لهم عرض البحر أو أن يقاتلوا أعداء لهم فى البحر . فلما عرفت هذه القصص ، كان فيها وفى النقوش التى وجدت فى المعابد ، تكذيب كاف لتلك الدعوى . إذ السائح الغريق هنا مصرى ، والأبطال فى قصص الرحلات الأخرى مصريون جميعا ، وهم يقصون حوادث لايختلف اثنان فى أنها مصرية ، بروحها وأساطيرها وما تشتمل عليه من العادات والتقاليد .

وقد كان عجيبا حقا ان تقع مصر على البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى ، ثم يكره أهلها ركوب الماء . وكان عجيبا أيضا ان تستهدف مصر لغزوات جيرانها الطامعين فى خيراتها ، فى مدى أربعة آلاف سنة أو تزيد ، ثم يجهل أهلها بلاد هؤلاء الجيران . نعم كان هذا عجيبا ، ولكن الكتاب اليونانيين والرومانيين قالوه ، وأكدوه ، الى أن كذبتهم النقوش التى فكت رموزها ثم جاءت القصص فهدمت زعمهم من أساسه ودلت على أن الرحلات فى البحار وفى البلاد المجاورة كانت بعض ماشغف به المصريون .

***

(١) منها قصة « سينوهيت » (سنوحى) التى وقعت حوادثها فى زمن الاسرة الثانية عشرة .

(٢) منها قصة « أونامونو » ورحلته الى بيبلوس .

(٣) منها قصص مختلفة لأمراء ايلفنتين ورحلاتهم فى النوبة .

وتنتهى القصة بالعبارة الآتية :

« انتهت القصة من بدايتها الى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « امونى ــ أماناوو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياه والصحة والقوة » .

فهل « امونى ــ اماناوو » هذا هو واضع القصة، أو هو نساخ وجدها مكتوبة فنسخها ؟

إن قوله « كما وجدت مكتوبة » قد يشير الى انه ليس سوى نساخ ، ولكن قوله « والذى كتبها هو امونى ــ أماناوو » قد يكون معناه أن هذا الأخير هو الذى وضعها وان النساخ شخص آخر لم يذكر اسمه .

***

والقصة ساذجة كما رأيت ، ولعلها كانت فى لغتها الأصلية تكسب قوة من حسن انتقاء الألفاظ والبراعة فى التعبير . ولكن هذه القوة تضيع كلها فى الترجمة ، وخاصة إذا كان المترجم قصة وضعت منذ اربعة آلاف سنة ، لعصر غير عصرنا ، وبيئة غير بيئتنا ، وتقاليد غير تقاليدنا ، وعقلية غير عقليتنا . إذ مما لاشك فيه أن العصر والبيئة والتقاليد والعقلية تضفى على الكتابة قوة خاصة تبقى ببقائها ، فاذا زالت ، صارت الكتابة ، التى كانت تشبه الشجرة الحية المورقة ذات الزهر اليانع ، كأنها خشب جاف لا ورق فيه ولا زهر ولا حياة .

وللكاتب مع ذلك عذر فى سذاجة قصته ، هو انه كان يكتب فى وقت كان العقل الانسانى فيه يخطو خطواته الأولى فى سبيل التفتح ، ومن الظلم أن يطلب من كاتب هذا شأنه أن يكون ككاتب يكتب فى وقتنا هذا .

على أن الفكرة الأساسية فى القصة ، وهى الرحلة فى البحر ثم الاشراف على الغرق ، ثم النجاة إلى جزيرة أو أرض ذات عجائب ، ثم العودة إلى الوطن بعد مكابدة هذه العجائب ، نقول إن هذه الفكرة انتقلت بعد ذلك إلى الأدب العربى على يد كاتب مصرى ، كان هو الذى وضع قصة « السندباد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحرى » فى قصص « الف ليلة وليلة » . فمصرى إذن هو الذى وضع فى الأدب المصرى القديم « قصة الفريق » ، ومصرى أيضا هو الذى وضع بعد ذلك فى الأدب العربى قصة « السندباد البحرى » .

ولم تقف الفكرة عند هذين الأدبين ، بل انتقلت إلى الأدب الانجليزى ، فى قصص نعرف باسم « روبنصون كروزو » (١) .

❊ ❊ ❊

ويلاحظ فى أسلوب الكاتب المصرى أنه قص قصة السفر والاشراف على الغرق والنجاة الى الجزيرة ، ثم لما طلب الثعبان من السائح ان يخبره من اين جاء وكيف جاء ، وشرع هذا السائح يجيب ، قص القصة نفسها ، بألفاظها ، مرة ثانية فقال :

« أردت السفر الى المناجم بأمر من الملك ، فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا ، وعرضها اربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ... الخ » .

وهذا هو بعينه ولفظه ما كان قد قصه من قبل، لا يختلف عنه إلا فى كلمات قليلة . وكان اولى لو انه استغنى عن هذا التكرار المبتذل بجملة موجزة يقول فيها : إنه اجاب الثعبان فأخبره بكل ما كان من امره . غير أن هذا التكرار الذى يراه كتاب اليوم مبتذلا ، كان سائغا منذ اربعة آلاف عام . وقد استعمل اكثر من مرة فى قصة « الملك خوفو والسحرة » (٢) ، وفى قصص أخرى . ولم يكن هذا الاسلوب مستعملا فى مصر وحدها ، بل كان مستعملا فى غيرها من البلاد ايضا ، وقد جاءت التوراة بعد « قصة الغريق » بأكثر من الف سنة فلم يستطع الذين كتبوها ان يتخلصوا من اسلوب التكرار ، ونسوق هنا امثلة تدل عليه .

ففى الاصحاح السادس عشر من « سفر القضاة » حكاية عن شمشون ودليلة ، ما يأتى :

« وكان بعد ذلك أنه (شمشون) احب امرأة فى وادى سورق تسمى دليلة . فصعد إليها اقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظرى بماذا قوته العظيمة ، وبماذا نتمكن منه لكى نوثقه لاذلاله ... فقالت دليلة لشمشون : أخبرنى بماذا قوتك العظيمة ، وبماذا توثق لاذلالك ؟ » .

فهنا كررت على لسان دليلة لشمشون نفس الألفاظ التى قالها أقطاب الفلسطينيين لدليلة . ثم استمر كاتب السفر فقال :

« فقال لها شمشون : إذا أوثقونى بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس . فأصعد لها اقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابث عندها فى الحجرة . فقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . فقطع الأوتار ... فقالت دليلة لشمشون : قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب، فأخبرنى الآن بماذا توثق ؟ فقال لها : إذا اوثقونى بحبال جديدة لم تستعمل اضعف واصير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها ، وقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . والكمين لابث فى الحجرة . فقطعها عن ذراعيه كخيط . فقالت له دليلة : حتى الآن ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى بماذا توثق ؟ فقال لها : اذا ضفرت سبع خصل رأسى مع السدى فمكنتها بالوتد وقالت له : الفلسطينيون عليك ياشمشون . فانتبه من نومه وقلع وتد النسج والسدى . فقالت : كيف تقول أحبك وقلبك ليس معى . هو ذا ثلاث مرات قد ختلتنى ولم تخبرنى بماذا قوتك العظيمة ... الخ » .

ففى هذه الأسطر القليلة من القصة كرر شمشون غير مرة قوله « أضعف واصير كواحد من الناس » . وكررت دليلة غير مرة أيضا قولها « قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى بماذا توثق » ، ثم قولها « بماذا قوتك العظيمة » ، ثم قولها « الفلسطينيون عليك ياشمشون » .

(١) (Robinson Crusoe)

(٢) موضوع هذه القصة ان الملك خوفو دعا اولاده وطلب ان يقص عليه كل واحد منهم اعجب ماعرفه او سمع به من أعمال السحر والحكمة ، فأجابوا وقصوا اشياء كثيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الاصحاح الخامس من سفر أستير ما يأتى :

« وفى اليوم الثالث لبست أستير ثيابا ملكية ... والملك جالس على كرسى ملكه فى بيت الملك مقابل داخل البيت . فلما رأى الملك أستير الملكة واقفة فى الدار نالت نعمة فى عينيه . فمد الملك لاستير قضيب الذهب بيده ، فدنت أستير ولمست رأس القضيب . فقال لها الملك : ما لك يا أستير الملكة ما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تعطى لك ؟ فقالت أستير : إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك : اسرعوا بهامان . ليفعل كلام أستير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها أستير . فقال الملك لأستير عند شرب الخمر : ما هو سؤلك فيعطى لك وما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير وقالت : إن سؤلى وطلبتى إن وجدت نعمة فى عينى الملك وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها لهما ، وغدا أفعل حسب أمر الملك » .

ففى هذه الأسطر من تكرار الألفاظ ما يستطيع القارىء أن يتبينه بسهولة .

وفى الاصحاح السابع من هذا السفر نفسه ما يأتى :

« فجاء الملك وهامان ليشربا عند أستير الملكة . فقال الملك لاستير فى اليوم الثانى أيضا عند شرب الخمر : ما هو سؤلك يا أستير فيعطى لك ، وما هى طلبتك . ولو إلى نصف المملكة تقضى ؟ فأجابت أستير الملكة وقالت : إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك أيها الملك وإذا حسن عند الملك ، فلتعط لى نفسى بسؤلى وشعبى بطلبتى ... الخ » .

وهنا أيضا تكرار لنفس الالفاظ التى مرت فى الاصحاح الخامس . وقصص التوراة مشحونة بكثير من هذا النوع من التكرار .

والذى يوازن أسلوب الكاتب المصرى فى التكرار بأسلوب التوراة ، يحكم للأول بأنه لم يلجأ إلى التكرار إلا فى موضع واحد من قصته بينما أسلوب التوراة يكثر منه فى كثير من المواضع حتى لتكاد كلمات بعينها تتكرر كلما مضت أسطر تعد على الأصابع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسائل سياسية وغير سياسية
فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

فى سنة ١٨٧٧ كان جماعة من أهالى قرية الحاج قنديل يحفرون فى تل العمارنة ، أو قرية بنى عامر، ليبحثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم . وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد الفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا فى تل العمارنة هذا مايريدونه من سماد لحقولهم وأدوات لمبانيهم . فبينما كان أصحابنا هؤلاء يهدمون جدارا سميكا وينقضونه حجرا حجرا اذا بفؤوسهم تعثر فى جوانبه على قوالب من الطوب سليمة ، فتناول واحد منهم قالبا ونظفه من التراب المتراكم عليه ، فما أشد مادهش اذ رأى عليه نقوشا تملأ جانبيه وتنتظمها صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع . فعرض الأمر على زملائه فنظفوا هم أيضا قوالب أخرى فظهر لهم فيها مثل ماظهر لزميلهم من النقوش ، وظهر الى جانب ذلك أن من الطوب ماهو أسود ومنه ماهو أصفر ومنه ماهو أحمر . فلم يبق لديهم شك فى أنهم عثروا على لقية من اللقى الأثرية التى يزدحم بها جوف الأرض فى مصر . فعادوا يحفرون ، ولكن بحذر واحتياط فى هذه المرة ، فوجدوا حفرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش ، وكانت حميرهم تنتظرهم فلم يحملوا عليها مواد البناء التى جاءوا فى طلبها ، بل حملوا تلك القوالب وعادوا الى قريتهم غانمين فرحين .

ولم تمض على ذلك أيام حتى كانت هذه القوالب قد انتقلت من أيدى أصحابنا هؤلاء الى أيدى تجار الآثار فى أخميم والأقصر والقاهرة . ثم وصل خبرها الى مدير مصلحة الآثار المصرية حينذاك مسيو جريبو والى مدير المدرسة الفرنسية فى القاهرة مسيو نورمان، فاشتريا بعضا منها وأخذا يفحصان النقوش التى عليها ، فلم يستطيعا قراءتها ولكنهما ادركا أنها تشبه الخط المسمارى ، خط الكتابة البابلية القديمة ولم يفهما كيف يمكن أن يوجد مستودع لكتابات بهذا الخط فى مصر . ثم أرسلا ما اشترياه من الطوب إلى عالمين خبيرين بالخط المسمارى هما الأستاذ اوبير فى باريس والاستاذ سايس فى لندن ، فلم يجد هذان العالمان مناصا من القول بأن الكتابة بابلية . ولكن الخبر لم يكد يذاع حتى قوبل بالدهشة فى جميع الدوائر العلمية ، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة ، والريبة الى سخرية وإنكار ، وخرج العلماء من هذا كله بأن قالوا : إن مازحا غشاشا أراد أن يضحك منهم ومن الناس كافة فصنع الطوب ونقش عليه مانقش ثم وضعه فى تل العمارنة ليداعب به الفلاحين المصريين اولا ، وتجار العاديات المصرية ثانيا ، والعلماء أخيرا.

وهكذا انكر العلماء طوب تل العمارنة ، وانكروا ان يوجد طوب بابلى فى مصر على صورة من الصور.

ولكن قوالب هذا الطوب كانت كثيرة ، وقد اخذت كثرتها هذه تظهر شيئا فشيئا ، فلم يكن بد من أن يبدو غريبا أن يكون ذلك المازح الغشاش الذى نقش الطوب ودفنه فى خرائب تل العمارنة كلف نفسه كل هذه المشقة لغير غرض سوى الغش والمزاح .

وعندئذ أخذ الشك يعلق بذلك الانكار . ثم ازداد الشك حينما قيل : إن قوالب الطوب ليست خمسين او ستين بل قد يبلغ عددها بضعة الوف (سيأتى ان عددها الصحيح كان ستمائة تلف منها فى أيدى العلماء ثلثمائة) . وحينئذ اشترت متاحف مصر ولندن وبرلين وفينا قليلا منها ، واشترى بقيتها طبيب كان معروفا فى الاسكندرية يسمى دانينوس باشا وجامع آثار قديمة كان يسمى جراف . وعرف متحف برلين قيمة هذه القوالب ، وعلم أن جراف ودانينوس باشا لايكرهان أن يبيعا مالديهما فاشتراه منهما . واكب العلماء على قوالب الطوب يحاولون قراءة مافيها ، ففى ابريل سنة ١٨٨٨ قرأ سايس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى تقدم ذكره أسماء لملوك بابليين وحكام سوريين.

وقفى على أثره عالم المانى من كبار العلماء فى المصرولوجيا هو أدولف إرمان الذى ذكرناه فى بحوث سابقة فقرأ اسم الفرعون أمينوفيس الثالث والفرعون أمينوفيس الرابع مكتوبين بالخط المسمارى . ثم تضافر أربعة من العلماء هم الأستاذ أبيل (١) ، والأستاذ ونكلير (٢) فى برلين ، والأستاذ بيزولد (٣) ، والأستاذ بودج (٤) فى لندن ، على طبع صورة النقوش التى على الطوب وإذاعتها فى جميع الدوائر العلمية لتكون فى متناول كل من يعرف شيئا من الخط المسمارى.

واستطاع عالم فرنسى بعد ذلك هو الأستاذ هاليفى (٥) ، أن يضع ترجمة لمجموعة كبيرة من هذه النقوش باللغة الفرنسية ، فكانت ترجمة يتخللها النقص فى مواضع ، والخطأ فى مواضع ، ولكنها كانت أول محاولة أعطت فكرة عامة عن القوالب وما فيها . وحينئذ عرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات ما يكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة اى فى حدود الف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فهى لهذا تعد فى الطبقة الأولى بين الوثائق التاريخية .

* * *

والآن يحسن بنا ، قبل المضى الى الأمام فى درس هذه الرسائل السياسية ، أن نقول ما هو تل العمارنة الذى وجد فيه ذلك الطوب .

فتل العمارنة هو اسم يطلق على خرائب تقوم بالقرب منها الآن قرية صغيرة تسمى قرية بنى عامر على الشاطىء الشرقى من النيل فى الطرف الشمالى من مديرية أسيوط بين ملوى وديروط . وهذه الخرائب هى بقايا مدينة قديمة كان الملك أمينوفيس الرابع قد أسسها وسماها « خوتاتون » — اى أفق قرص الشمس — وانتقل من طيبة إليها وجعلها عاصمة الامبراطورية المصرية (١) ، بعد أن ثار على عبادة المعبود أمون وأقفل معابده وشتت كهنته ودعا إلى عبادة « أتون » — اى قرص الشمس — وسمى نفسه « ايخون أتون » ، اى « قرص الشمس مغتبط » ، ويسميه كثير من كتاب التاريخ المصرى « اخناتون » على سبيل التخفيف .

وليس المقام هنا مقام شرح هذه الثورة والأسباب التى دعت إليها . وانما يكفى أن نقول انها اول ثورة كبيرة على الكهنة وعلى المعتقدات الدينية التى كانت فاشية فى ذلك الوقت ، وإن من أكبر الأسباب التى حملت امينوفيس الرابع عليها رؤيته نفوذ الكهنة يطغى على نفوذ الفراعنة ورؤيته الأموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تطغى على الأموال التى تجبى لخزانة الدولة . ويضاف الى ذلك أن صيرورة مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة فى النوبة والسودان من ناحية ، وفى فلسطين وسوريا وسواحل الفرات وآسيا الصغرى من ناحية ثانية ، وفى الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة . . هذه الامبراطورية لا يلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات ، بل الذى يلائمها ويوحد هواها جميعا هو أن يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد ، ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير الشمس لأنها ترسل النور والحرارة والحياة الى جميع أنحاء

(١) (Abel) .
(٢) (Winckler) .
(٣) (Bezold) .
(٤) (Budge) .
(٥) (Halévy) .

(١) كانت مصر فى ذلك العهد امبراطورية تمتد من الشلال الرابع فى السودان الى ماوراء الفرات والى المنطقة التى تعرف الآن باسم لواء الاسكندرونة فى آسيا الصغرى ، ثم الى ارخبيل ايجيه فى البحر الابيض المتوسط . وقد وجدت فى بعض القصور فى جزيرة كريت وفى بلاد اليونان أختام باسم الملكة تى يى والدة امينوفيس الرابع وزوجة أبيه الملك أمينوفيس الثالث ، ففتح ذلك بابا للقول بأن حكم مصر امتد فى ذلك العهد الى كريت والى سواحل اليونان ، ولكن هذا القول لا يزال محتاجا الى أدلة أخرى وان يكن من المؤكد أن نفوذ مصر الادبى والتجارى كان شائعا اذ ذاك فى كريت وفى اليونان .

وهذه البلاد التى ذكرناها هناهى التى كانت مصر تحكمها حكما مباشرا ، وعدا ذلك كانت توجد بلاد أخرى فى آسيا الصغرى ترتبط مع مصر بمعاهدات تشبه معاهدات الحماية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامبراطورية المصرية فى آسيا

يجمع العلماء على أن الامبراطورية التى أنشأتها مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة هى أولى الامبراطوريات فى العالم كله . وكانت تمتد من الشلال الرابع فى النوبة ، أو من خلفه بقليل ، الى ما وراء نهر الفرات . وكانت تدخل تحت حمايتها مملكةالازيا ومملكة ميتانى ومملكة نحارينا . ثم كانت مملكة أشوريا ومملكة كاردنياش (أو مملكة الكلدان) تعيشان فى ظل الصداقة معها وتقديم الهدايا لفرعون . ثم كانت هـذه الامبراطورية تبسط جناحها على الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط الذى كان يسمى البحر الأخضر الكبير . وكانت مملكة خيتاس ، وأهلها هم الذين تسميهم التوراة الحيثيين ، هى التى عقدت مع رمسيس الثانى معاهدة صداقة وتحالف بعد حرب طويلة . وتبين الخريطة الجزء الأسيوى من الامبراطورية المصرية ، وهذا الجزء هو الذى تبادل ملوكه وحكامه رسائل تل العمارنة مع أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

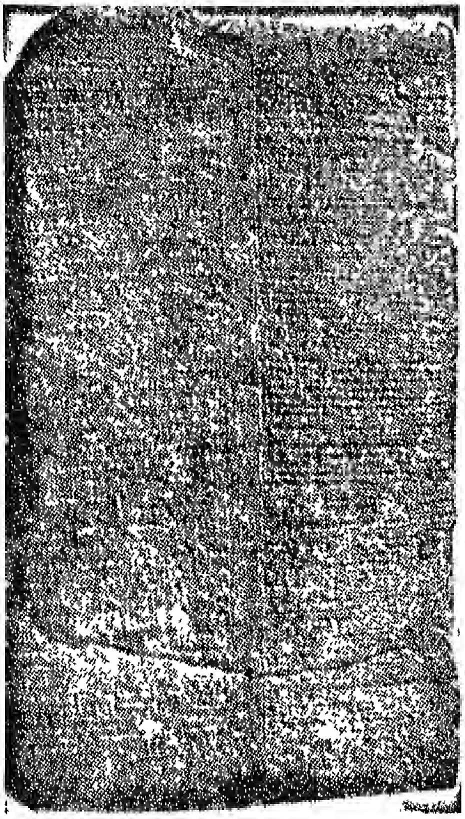

رسالة من رسائل تل العمارنة . وهى تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيبا بنت دوشراتا ملك ميتانى وقد تزوجها الملك امينوفيس الثالث

العالم ، فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا .

ولما أنشأ امينوفيس الرابع أو اخناتون مدينة خوتاتون ونقل اليها عاصمة الملك ، انشأ فيها القصور والمعابد . ثم انتقل اليها معه رجال الدولة فبنوا فيها هم أيضا قصورا لأنفسهم ، ولم تمض سنوات تعد على الأصابع حتى صارت خوتاتون تضارع طيبة فى عظمتها وجمالها . وكانت فى طيبة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت فى خوتاتون دار لهذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التى كانت محفوظة فى طيبة .

وهذه الدار هى بعينها التى أدى الاتفاق بمعاول الفلاحين من أهالى قرية الحاج قنديل الى أن تعمل فيها فى سنة ١٨٧٧ ، وذلك الجدار السميك الذى ثر به أولئك الفلاحون وجعلوا ينقضونه حجرا حجرا ليأخذوا منه مايصلح لمبانيهم ، لم يكن شيئا سوى سور قصر الملك محيطا بالقصر وبالدار ، وذلك الطوب الذى عثروا عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقية اثرية لم يكن شيئا غير كتب كتبها ملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين الى فراعنة مصر .

وبعبارة اخرى ان المنطقة التى وجد فيها الطوب كانت دارا مخصصة لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية . وسيأتى أن الرسائل التى اشتمل عليها هذا الطوب دلت على أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها وتنظيم الرسائل فيها بحيث يسهل عليهم الرجوع الى مايريدون الرجوع اليه فيها . وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغة البابلية وخطها المسمارى ، ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى ليكونوا جميعا مستعدين لترجمة أية رسالة تتلقاها وزارة الخارجية المصرية وللاجابة عليها .

ومتى عرفنا هذا لايسعنا إلا أن نأسف لأن الطوب الموجود الآن — وهو كما قلنا موزع بين متاحف مصر وبرلين ولندن وباريس وفينا — ليس سوى نصف الطوب الذى عثر عليه الفلاحون فى تل العمارنة . أما نصفه الآخر فقد هلك فى أيدى العلماء حينما كانوا يرفضون أن يعترفوا له بقيمة أثرية وكانوا يقولون إنه تزوير مزور ومزح مازح . فقد كان عدد القوالب التى وجدها الفلاحون يقرب من ستمائة فلم يبق منها غير ما يقرب من ثلاثمائة . والله وحده يعلم أية خسارة خسرها التاريخ بهلاك هذه القوالب . والله وحده يعلم أيضا أية فائدة كان التاريخ يستفيدها لو أن محفوظات وزارة الخارجية الفرعونية وجدت سليمة كلها ولم تعد عليها عوادى الندمير منذ هجرت مدينة خوتاتون أى منذ ٣٤ قرنا .

* * *

ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة فبان فى الحال انها ليست رسائل متفرقة بغير نظام ولا تتابع . بل هى رسائل متتابعة كانت منظمة فى مستودعها على أساس هذا التتابع . فمنها ٦ رسائل من ملك بابل و٩ من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

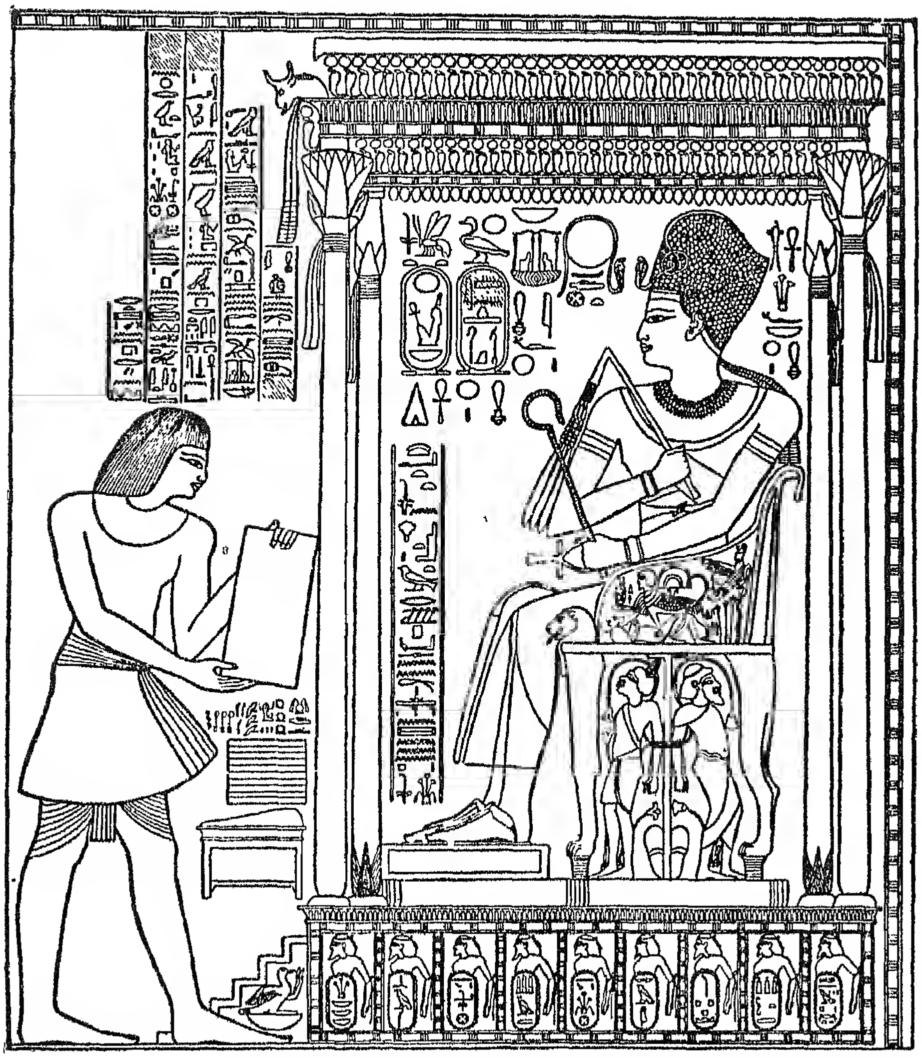

الملك أمينوفيس الثالث

الملك امينوفيس الثالث جالسا على عرشه ، وفى يده الصولجان والسوط وقد تقدم له وزيره ببيان الجزيات التى جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد أسيوية أخرى خاضعة لمصر . ويلاحظ أن العرش الذى يجلس عليه أمينوفيس الثالث مرسوم على جانبه أسيران اسيويان مشدودان بحبل ، وفى أسفل قاعدته تسعة اسرى أسيويين شد كل منهم إلى حبل خلفه وكتب اسم بلده على صدره .

وتشير امثال هذه الرسوم إلى البلاد التى كانت تحكمها مصر فى آسيا والتى كانت تؤدى الجزية لأمينوفيس الثالث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملك الازيا(١)، و٤ من ملك ميتانى(٢)، و٤٦ من حاكم من حكام سوريا يسمى ريب ادى(٣)، ونحو مائة رسالة أخرى من حاكم لمدينة أورشليم (القدس الآن) يسمى أرادهيبا (٤) ،وحاكم لمدينة فى سوريا يسمى أزيرو (٥)، ومن غيرهما من الحكام فى سوريا وفلسطين . وهذه الرسائل كلها موجهة الى فرعونين اثنين هما : أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع . ويقدر العلماء المدة التى كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين سنة (٦) .

ويرى من هذا البيان أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين ، كانوا فى ذلك الوقت يكاتبون فراعنة مصر بالخط المسمارى البابلى لا بالخط المصرى . وانهم كانوا جميعا يستخدمون فى كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذى كان المصريون يكتبون عليه . ومعنى هذا أن الرسول الذى كان كل واحد من اولئك الملوك والحكام يرسله برسالة الى مصر كان يسير بحمولة من الطوب ثقيلة ولكنه متى عاد بالجواب بعد ذلك لم يكن يحمل إلا ورقة مطوية فى قمطر .

ويحسن بنا هنا أن نقول إن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا قبل أن تغزوها مصر بأجيال . ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية واللغة البابلية والخط البابلى ، فلما غزاها المصريون بعد ذلك — أى بعد طرد الهكسوس — اكتفوا بأن تخضع لهم وأن تؤدى لهم الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ولا عاداتهم ولا تقاليدهم ولا ملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللممالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم مايريدون ويتركوا مايريدون . وبعبارة أخرى إنهم تركوا حضارتهم تؤثر فيهم وفى غيرهم تأثيرها الطبيعى من غير ان يحملوهم على اقتباسها كرها . وقد أثرت فيهم هذه الحضارة مع الزمن تأثيرا عميقا ، ولكنها فى الوقت الذى كتبت فيه الرسائل التى نحن فى صددها هنا لم تكن قد حملتهم بعد على استبدال الكتابة المصرية بالكتابة البابلية ، واستبدال الكتابة على الورق بالكتابة على الطوب ، على الرغم مما فى ذلك من اليسر والسهولة .

وإنما اقتبست شعوب سوريا وآسيا الصغرى الكتابة على ورق البردى المصرى بعد ذلك بنحو مائة وعشرين سنة ، أى فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين .

وكل من يقرأ تواريخ الأمم التى عاصرت الحضارة المصرية فى نشأتها ، أو التى ظهرت بعد دخول المدنية المصرية فى سن الشيخوخة ، ثم يزن مسلك هذه الأمم مع الشعوب المغلوبة لها بمسلك المصريين هذا مع الشعوب المغلوبة لهم ، لايسعه إلا أن يعترف بأن الحكم المصرى كان حكم سياسة ولين بينما كان حكم الأمم الأخرى حكم قسوة تبلغ حد الوحشية . فالأشوريون مثلا — وهم لم يظهر لهم سلطان الا بعد دخول الحضارة المصرية فى سن الشيخوخة — لم يكونوا يعدون للأسرى فى الحرب غير القتل مع التمثيل ، وكان من المألوف عندهم أن يعلقوا الأسرى عشرات عشرات فى خوازيق فى ميدان القتال على مرأى من أعدائهم ليوقعوا الرعب فى قلوبهم ، فى حين كان المصريون يمتنعون عن قتل الاسير (٧) ، ولم يعرف عنهم انهم قتلوا أسرى الا فى

---

(١) الازيا (Alasya) هى مملكة كانت توجد فى المنطقة الشمالية بين الساحل ونهر أورونت ،وهو يسمى الآن نهر العاصى.

(٢) ميتانى (Mitanni) هى مملكة كانت واقعة فى شمالى مملكة الازيا وهى فى المنطقة التى يوجد فيها الآن لواء الاسكندرونة.

(٣) (Rib-Addi)

(٤) (Arad-Hiba)

(٥) (Aziro)

(٦) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو ص ٣ .

(٧) كتب فى هذا الموضوع جول بابيه (Jules Baillet) فى كتابه « النظام الفرعونى فى علاقاته بتطور التهذيب النفسى فى مصر » .

(Le Règime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Egypte.)

فى ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٠ من الجزء الاول ، فذكر أن العرف كان جاريا عند الشعوب كلها بأن للمنتصر أن يذبح الاسرى وينهب اموالهم ، بل كان جاريا بأن له أن يتصرف كما يشاء فى أرواح اهالى البلاد المغزوة وأموالهم . ولم يخرج على هذا العرف الا المصريون ، لأنهم امتازوا وحدهم — ولا سيما بعد تقدم مدنيتهم — بمعاملة الاسرى واهالى المدن المغزوة معاملة اذا قيست بالعرف الذى كان جاريا كان فيها كثير من الرأفة والرفق . فهم لم يحرقوا المدن المغزوة ، ولم يسلموا رجالها ونساءها واطفالها للسيف ، كما كان غيرهم يفعلون . كلا ، ولم يذبحوا الاسرى ، ولم يمثلوا بهم ، بل كان كل الذى فعلوه أن ساقوا هؤلاء الاسرى الى مصر واستخدموهم ، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين فى اعمال البناء والصناعة والمناجم واشباهها .

قال بابيه : « لم يعرف من المصريين انهم استخدموا التعذيب —

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

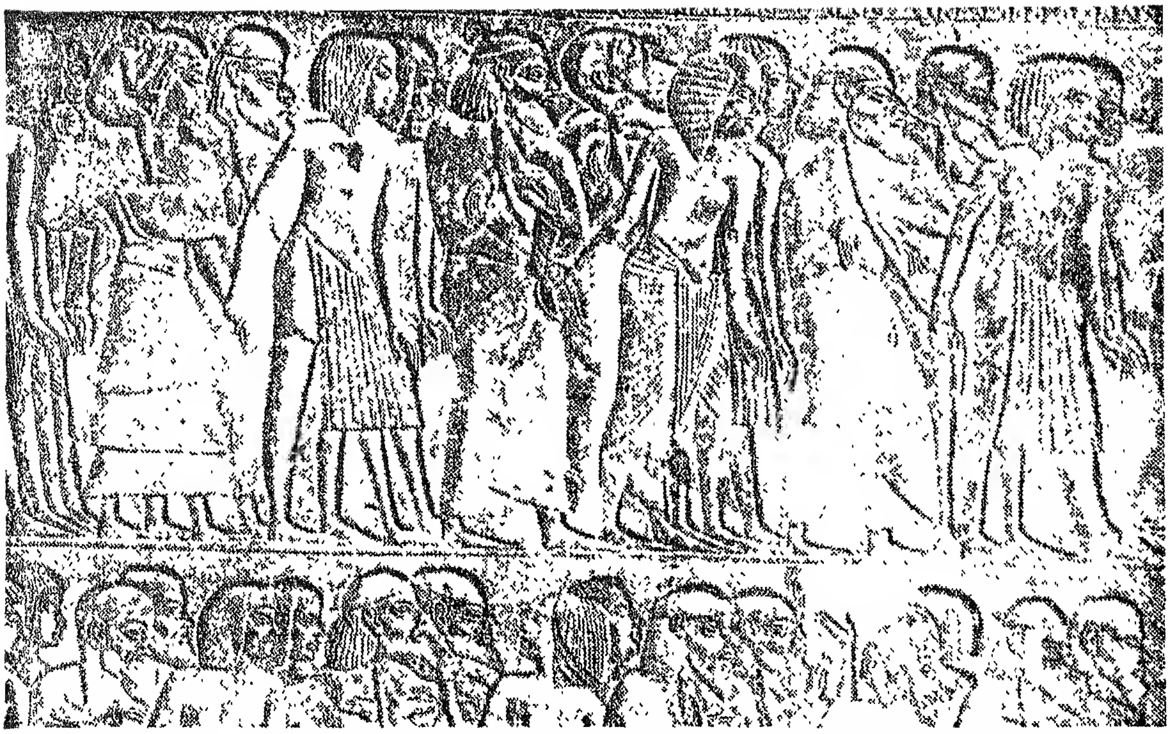

اسرى أسيويون فى مصر • وهم يعرفون بلحاهم وملابسهم الثقيلة • وفى مؤخرتهم أسيرة سورية تحمل طفلها على كتفها وهم موثقو الايدى ، ويقودهم مصريون • وفى الصف الأدنى أسرى أسيويون أيضا •

= أو النفس فى القسوة فى معاملة المغلوبين فى الحروب ، كما كانت تفعل الشعوب الاسيوية. فليس فى تاريخهم شىء عن الاسرى الذين يغرزون غرزا فى الخوازيق وهم أحياء ، ولا عن سمل عيونهم ، ولا عن كسر أنوفهم، ولا عن صلمآذانهم، ولا عن قطع شفاههم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم ، كلا ، ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم ، ولا عن سلخ جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء ، ولا عن صلبهم ، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار».

وقد صدق بابيه فليس فى تاريخ المصريين شىء من هذا ، ولكنك تقرأ تاريخ أشور نازيرابال ، وسالامانازار الثالث ، وتجلافالازار الثالث ، وسارجون ، وسناخريب ، وأشور بانابال ، من ملوك أشور ، فتجد الكثير من هذه الفظائع فى معاملتهم الاسرى والمغلوبين فى الحرب .

ولقد قلنا ان المصريين قتلوا بعض الأسرى فى حالات قليلة . فمن أبرز هذه الحالات أن الملك أمينوفيس الثانى أسر كثيرا من أمراء سوريا (٥٠٠ أمير و٢٤٠ امرأة من نسائهم على مايقول برستيد ص ٣٣٤ من الترجمة الفرنسية) الذين كانوا قد ثاروا عليه بعد موت أبيه تحوتمس الثالث ، فعاد بهم الى مصر ، وعلق سبعة منهم فى مقدم سفينته حين وصوله الى طيبة ، ثم قتل ستة من هؤلاء السبعة أمام المعبود آمون فى معبد الكرنك ، وعلق رءوسهم وأيديهم على جدران المعبد ، ثم أرسل بالسابع الى مدينة ناباتا (عاصمة النوبة) فجرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه .

وقد علق بابيه على هذا الحادث فقال (ص ١٦٩ من كتابه الذى مر ذكره) يجب أن يلاحظ أن هؤلاء الامراء السبعة كانوا اسيويين ، وأن العادة كانت جارية فى آسيا بقتل الأسرى ، بل بما هو أشنع من قتلهم .

ثم قال بابيه : على أن العلماء ليسوا متفقين جميعا على قراءة النص الخاص بهذا الموضوع ، لأن منهم من يقرأه بما يفهم منه أن أمينوفيس الثانى لم يعلق الأمراء فى سفينته أحياء ، بل علق جثثهم التى كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال . فهو اذن لم يذبحهم وانما قطع رءوس جثثهم وعلقها على جدران الكرنك .

ومن هذا الرأى أيضا ارثر ويجل (Arthur Weigall) فى كتابه « تاريخ مصر » ص ١٢٧ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها . وهنا يضع ويجل موازنة تلفت النظر فيقول : ان التوراة تقص علينا فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر صموئيل الثانى قصة سبعة من الأمراء سلمهم الملك داود للجبعونيين ، فقتلوهم وصلبوهم قربانا لله كى تذهب بقتلهم مجاعة كانت فاشية ويحل محلها الرخاء . وقال ويجل " ان هذا كان بعد عهد أمينوفيس الثانى بأكثر من ٤٠٠ سنة » .

ونذكر نحن هنا نص ماقالته التوراة فى ذلك . قالت :

« وكان جوع فى أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة ، فطلب داود وجه الرب فقال الرب هو لأجل شاول ، ولأجل بيت الدماء لانه قتل الجبعونيين . فدعا الملك الجبعونيين وقال لهم .... ماذا أفعل لكم ؟ وبماذا أكفر ؟ فتباركوا نصيبَ الرب... فقالوا للملك: الرجل الذى أفنانا والذى تآمر علينا ليبيدنا لكيلا نقيم فى كل تخوم اسرائيل ، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب فى جبعة شاول مختار الرب . فقال الملك : انا أعطى ... فأخذ الملك ابنى رصفة ... وبنى ميكال ابنة شاول الخمسة ... وسلمهم الى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا فى أيام الحصاد فى أولها فى ابتداء حصاد الشعير ... وبعد ذلك استجاب الله من أجل الأرض » .

ويقول ويجل فى هذه الموازنة : ان أمينوفيس قتل السبعة الامراء فى نفس هذه المنطقة التى كان فيها الجبعونيون ، ثم حمل جثثهم الى مصر . ويستمر ويجل بعد ذلك فيقول :

« أن مصر لم تكن تعرف ذبح الآدميين قربانا للآلهة . ولكن هذا النوع من القربان كان معروفا فى سوريا وبلاد اخرى ، فاذا صح أن الامراء السبعة الذين جاء ذكرهم فى عهد أمينوفيس الثانى قد ذبحوا قربانا دينيا فيجب أن نرى فى ذلك مثلا من أمثلة تأثير سوريا فى الروح المصرى » .

حالات قليلة ، ولم يعرف قط أنهم استعملوا فى القتل خوازيق أو اى نوع آخر من أنواع التعذيب والتمثيل.

وقد يقال هنا إن جدران المعابد المصرية تزدحم بصور الملوك المصريين والأسرى راكعون أمامهم ، وهم قابضون على رءوسهم متأهبون لضربهم ، فنقول جوابا على ذلك إن هذا التصوير لم يكن المراد منه قتل الأسرى قربانا للمعبودات ، ولا التمثيل بهم على نحو ماكان الأشوريون يفعلون ، بل كان المراد منه التحدث بما فعله هؤلاء الملوك من قهر اعدائهم وإخضاعهم لسلطانهم . وهذا شيء ، وقتل الأسرى والتمثيل بهم شيء آخر .

***

والآن ناخذ فى درس تلك الرسائل ، فنبدأ بالقاء نظرة عامة عليها ثم نشفع هذه النظرة بتعريب بعض منها .

وجدت على أحد قوالب الطوب كلمات « مكان المحفوظات من القصر الملكى » . ووجدت فى إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة فى مكاتبه . فهاتان الاشارتان دليل قاطع على أن المستودع الذى وجدت فيه قوالب الطوب كان دارا لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية .

ووجد على هامش من هوامش أحد القوالب ، تأشير بالخط المصرى مؤداه أن دار المحفوظات هذه كانت فى طيبة ، ثم لما هجرها الملك امينوفيس وطلق عبادة المعبود أمون ، وانشأ مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ودوائر الحكومة ، نقل إليها ايضا المحفوظات السياسية وجعل مقرها فى دار داخلة فى قصره فى العاصمة الجديدة .

ووجد فى أحد القوالب خاتم منقوش باسم « تيتو — نو ، رجل ، شاماس — نيكى » فها هنا رجلان أحدهما « تيتو — نو » ، والتانى « شاماس — نيكى » والثانى رجل الأول ، اى تابع له (١) . ويرى

(١) هكذا فى الأصل . وهناك تناقض لم يستقم لنا معه فهم اى الرجلين كان تابعا للآخر ، ولو ان الأرجح أن المصرى كان تابعا او مساعدا للبابلى ، كما يفهم من الفقرة التالية . فاذا صح هذا ، فانه يقوم دليلا على أن الدولة — فى ذلك العهد — لم تكن ترى ضيرا فى أن يكون الموظف المصرى مساعدا لموظف غير مصرى اذا استدعت حاجة العمل ذلك . كتاب الشعب

العلماء ان الاسم الأول مصرى لأنه يشبه الاسماء المصرية من جميع الوجوه ، والثانى بابلى لأنه يشبه الاسماء البابلية من جميع الوجوه (٢) .

وعثر فلندرز بترى حينما نقب فى تل العمارنة فى سنة ١٨٩١ على اسم آخر مكتوب بالحبر على قطعة من الحجر باللغة المصرية هكذا : « الكاتب الملكى رع اببينى » . ويظن بترى ، ويؤيده العلماء فى ظنه ، ان هذا الكاتب الملكى كان مديرا لدار المحفوظات أو كان على الاقل رئيسا لادارة من الادارات فى دار المحفوظات ، وأن «شاماس — نيكى» ومساعده «تيتو — نو » كانا مرءوسين له .

وعثر بترى أيضا على بقايا طوب مكتوب ، فلما درسها ودرسها معه العلماء فى اللغة البابلية ، اذا هى معجم وضع ليتعلم فيه من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين ، أو لعل هذا المعجم وضع ليرجع اليه الموظفون المصريون فى وزارة الخارجية كلما اشكلت عليهم كلمة . ووجدت على هامش قطعة من قطع هذا الطوب الكلمات الآتية «بأمر ملك مصر» ، فالمعنى المتبادر الى الذهن من ذلك أن ملك مصر هو الذى أمر بوضع المعجم .

وقوالب الطوب التى فيها هذا المعجم ينقسم سطحها الى ثلاث خانات عمودية متساوية : الأولى فيها الكلمة باللغة المصرية ، والثانية فيها أمامها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها أيضا نطق الكلمة فى اللغة البابلية مكتوبا باللغة المصرية . ثم تتوالى الكلمات فى الخانات الثلاث على هذا النظام .

ويقول هنا بترى إن هذا المعجم يدل على ان ملك مصر لم يكن يكتفى من الموظفين المصريين بأن يترجموا له الكلمات البابلية ، بل كان يطلب منهم فوق ذلك ان يحذقوا هذه اللغة فى نطقها وفى جميع خصائصها .

ويظهر أن ملوك مصر كانوا فى بعض الأوقات يحبون أن يعرف ملوك آسيا أن فى استطاعتهم ان يردوا عليهم بلغتهم ، ولهذا وجد كتاب طويل كتبه امينوفيس الثالث باللغة البابلية والخط المسمارى

(٢) كتاب (Au Temps des Pharaons) ص ٥٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

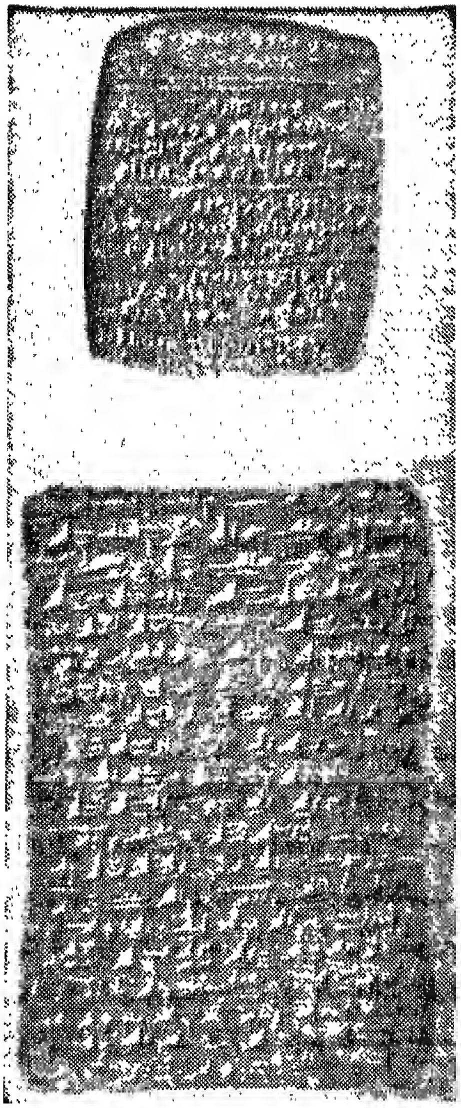

رسالتان مرقومتان بالخط المسمارى

على قوالب من الطوب يرد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

***

وتنقسم رسائل تل العمارنة إلى قسمين : أولهما قسم الرسائل الواردة من ملوك مستقلين ولكنهم مرتبطون مع مصر بروابط التحالف او روابط الصداقة ، وهى روابط يختفى خلفها فى كثير من الأحيان معنى الحماية . وأصحاب هذه الرسائل هم ملوك كاردونياش (١) واشور (٢) وميتانى ونحارينا .

(١) (Kardounyash) هو الاسم الذى كانت تعرف به مملكة بابل فى ذلك الوقت .

(٢) اشور مملكة كانت على نهر الدجلة .

والثانى قسم الرسائل الواردة من حكام البلاد التى كانت تحكمها مصر حكما مباشرا فى فلسطين وسوريا . وبعضها وارد من مدن فى سورياكانت متمتعة بالحكم (الذاتى) وكان نظام الحكم فيها جمهوريا .

ومن هذا التقسيم يتضح ، كما يقول مورى ، أن سياسة الحماية المستترة بستار المحالفة ليست اختراع العصر الحديث ، بل هى سياسة كان المصريون يعرفونها ويجرون عليها فى علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم . ونضيف نحن أنه يتضح من هذا التقسيم أيضا ، كما يتضح من الرسائل التى سيأتى تعريبها ، أن نظام الحكم الذاتى ونظام الحكم الجمهورى اللذين يعتقد كثير من الباحثين أنهما ابتداع المدنية اليونانية ، ليسا من ابتداع هذه المدنية ، وإنما هما نظامان عرفهما المصريون وطبقوهما على بعض المدن الخاضعة لحكمهم فى سوريا ، قبل ان توجد المدنية اليونانية بنحو ٨٠٠ سنة .

ونأخذ الآن فى درس رسائل القسم الأول وتعريب بعض منها . والمصادر التى اعتمدنا عليها فى ترجمة الرسائل كلها هى :

(اولا) مجموعات من مجلة (Journal Asiatique) فى سنى ١٨٩١ و١٨٩٢ و١٨٩٣ و١٨٩٤ و ١٨٩٩ .

(ثانيا) كتاب (Au Temps des Pharaons) لمورى من ص ٤٩ إلى ص ٨٧ .

(ثالثا) الترجمة الفرنسية لكتاب : (A History of Egypt) لبرستيد من ص ٣٩٠ إلى ص ٤٠٠ .

***

(١)

كتب ملك الازيا :

« إلى ملك مصر ، واخى ، اقول : أنا ملك الازيا ، اخوك ، صحتى جيدة ، وإنى ابعث بأفضل تحياتى إليك ، وإلى اقاربك ، وإلى خادماتك ، والى ابنائك ، والى زوجاتك ، وابعث أيضا بتهنئاتى لك على عرباتك العديدة (٣) ،

(٣) المقصود بالعربات هنا العربات الحربية وكانت ذات شهرة واسعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى يى فى طيبة ، وهما تمثلان طيرا من الاوز بين أزهار اللوتس

وخيولك ، كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر » .

وكتب ملك ميتانى :

« إلى امينوفيس ، ملك مصر العظيم ، وأخى ، وصهرى الذى احبه ويحبنى أقول : أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم ، واخوك ، وحموك الذى يحبك . صحتى جيدة ، وإنى أبعث بتحياتى إليك أنت أخى وصهرى ، والى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

ومن هذا الكتاب ، ومن كلمة « حموك » التى فيه يعرف أن امينوفيس الثالث والد امينوفيس الرابع ، الذى وجه إليه هذا الكتاب ، كان قد تزوج من بنت دوشراتا ملك ميتانى .

وكتب ملك اشور :

« إلى أمينوفيس الرابع أخى أقول : انا اشورو باليت ، ملك اشور ، واخوك الملك ، أدعو بالسلام لك ، ولأقاربك ، ولبلادك » .

ويلاحظ فى هذه الكتب الثلاثة انها مكتوبة باسلوب واحد ، وألفاظ تكاد تكون واحدة على الرغم من أن أصحابها مختلفون ، وأنها كتبت فى أوقات مختلفة وبلاد مختلفة . ففيها كلها تلقيب بالأخوة وإخبار بصحة الملك صاحب الكتاب ، ثم إهداء تحيات أو دعوات إلى ملك مصر وأقاربه وزوجاته وأبنائه . ويزيد ملك الازيا فيهدى التحيات إلى خادماته .

وهذه الوحدة فى الاسلوب بين كتب مختلفة من ملوك مختلفين تدل على أنه كانت توجد فى ذلك الوقت قواعد وتقاليد معينة لمكاتبات الملوك ، وأن هذه القواعد والتقاليد كانت تراعى بدقة ، وهى تسمى فى العرف الحديث «بروتوكولا» ، وان كانت قواعد اليوم وتقاليده غير قواعد الأمس وتقاليده .

ويؤيد وجود هذه القواعد والتقاليد فى المكاتبات أن من بين رسائل تل العمارنة صورة رسالة كتبها الملك امينوفيس الثالث الى ملك كاردونياش فجرى فيها على الأسلوب نفسه والنسق نفسه .

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نوجه النظر إلى أن هؤلاء الملوك جميعا كانوا شرقيين ، وأنهم مع ذلك كانت تقاليدهم فى المكاتبات تسمح لهم ، أو تقضى عليهم ، بأن يبعث كل واحد منهم بتحياته إلى زوجات الملك الذى يكتب إليه . وقد لا يلفت النظر كثيرا أن يبعث الملك دوشراتا بتحياته إلى زوجات الملك امينوفيس الثالث بسبب المصاهرة التى كانت بين الاثنين ، ثم لأن بنت الملك دوشراتا كانت إحدى الزوجات اللواتى يذكرهن فى كتابه . ولكن الذى يلفت النظر حقا هو ان ملك الازيا يهدى هو الآخر ، تحياته إلى زوجات ملك مصر ، وهذا لايكون إلا إذا قلنا إن «البروتوكول» كان يسمح بهذه التحيات .

ولا حاجة لأن نقول بعد ذلك إن هذا النوع من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« البروتوكول » اختفى من الشرق وانتقل إلى الغرب .

(٢)

وكتب الملك بورنابورياش ملك كاردونياش إلى ملك مصر ، فابتدأ بديباجة كالتى رأيناها فى الكتب السابقة ثم قال :

« لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول اخى . ولم يشجعني اخى فى طول المدة التى بقيت صحتى فيها منحرفة . ولهذا استأت من اخى وقلت : الم يسمع اخى أننى مريض . لماذا لم يبعث لى رسولا ولم يظهر اهتماما بى .

« وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة لكى يسمع اخوك بمرضك ويرسل إليك رسولا يستعلم اخبارك .

« وفى الواقع اننى استفهمت بعد ذلك من رسولى ، فقال لى : « إنها رحلة طويلة جدا » . فمنذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من اخى » .

ففى هذه الرسالة نرى ملك بابل يتحرق شوقا الى كلمة طيبة تأتيه فى مرضه من ملك مصر ، ولا يكاد يصبر على هذا الشوق إلا بعد أن يعلم ان الشقه بين البلدين بعيدة ، وأن ملك مصر معذور لهذا السبب إذا هو لم يرسل اليه يستعلم اخباره .

وفى هذه الرسالة نوع من الجهل يستوقف النظر هو ان ملك بابل لم يكن يعرف بعد ما بين بلاده ومصر إلا بعد أن سأل فى ذلك رسول مصر ثم رسوله .

واسلوب الكتابة فى هذا يلفت النظر لأنه يكرر كلمة « أخى » ست مرات فى سبعة اسطر فهو يشبه اسلوب التوارة الذى اشرنا إليه فى تعليقنا على « قصة الغريق » .

(٣)

وكتب دوشراتا ملك ميتانى الذى تقدم ذكره إلى امينوفيس الرابع يصف له الحزن الذى استولى عليه حينما جاءه الخبر بوفاة أمينوفيس الثالث فقال :

« حينما اشرف والدك على الموت ... فى ذلك اليوم بكيت وسقطت مريضا وأشرفت على الموت ... ولكنى علمت بعد ذلك بأن أكبر أنجال الملك أمينوفيس والملكة تى يى جلس على العرش ... وقد قلت حينئذ ان أمينوفيس لم يمت ... » .

هذا الكتاب مبتور لم توجد منه غير الكلمات التى عربناها هنا ولكن الباقى منه كاف للدلالة على المعنى المقصود منه .

والقارىء يذكر من غير شك أن دوشراتا كان حما الملك أمينوفيس الثالث . فهو هنا يعبر عن الحزن الذى استولى عليه حينما بلغه موت زوج ابنته .

ويذكر الملك دوشراتا فى كتابه هذا الملكة تى يى زوجة أمينوفيس الثالث ، وأمر هذه الملكة مشهور فى كتب التاريخ لأنها كانت ذات نفوذ كبير على زوجها وكان لها أثر ظاهر فى سياسة الامبراطورية المصرية . وقد ذهب بعض العلماء الى انها بنت الملك دوشراتا التى تزوج بها أمينوفيس الثالث ، وانها لذلك تكون سورية الأصل . وبنوا على هذا زعما آخر هو أن الثورة الدينية التى ثارها أمينوفيس الرابع على عبادة أمون كانت بتأثير أمه تى يى فى نفسه ، وإذن تكون هذه الثورة راجعة فى كثير منها الى عوامل سورية .

ولكن ماسبيرو أثبت من مومياء الملكة تى يى (١) ، ومن تابوتها ، ومن النقوش التى وجدت عليه ، ثم من قبر والد هذه الملكة ، ان هذا القول خطأ ، وأن تى يى مصرية ، لم تكن من الدم الملكى بل كانت من عامة الشعب ، فأحبها الملك وجعلها زوجته الأولى ، وهى أم أمينوفيس الرابع .

وقول دوشراتا « إن أمينوفيس لم يمت » لأنه يحيا فى ابنه ، هو من الأقوال التى ما زالت الى وقتنا هذا متداولة بين الكتاب .

(٤)

هذا الكتاب الذى نعرض له هنا لم يعرف كاتبه لأن ديباجته مبتورة ولكن الباقى منه ذو اهمية

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) ص ١٤٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سياسية . وهو موجه الى امينوفيس الرابع . وهذا نصه :

« ... والآن يامليكى وقد جلست على عرش أبيك فلنتبادل ، انا وانت ، الصداقة الدائمة كما كنت اتبادل مع أبيك الهدايا . فاقبل هذه الأمنية التى كنت قد وجهتها الى أبيك ،ولنعمل معا على تحقيقها بيننا » .

فكاتب هذا الكتاب لابد أن يكون واحدا من ملوك البلاد المستقلة ، لا واحدا من حكام سوريا ، لانه يطلب تبادل الصداقة . ولكنه مع ذلك يخاطب ملك مصر بقوله « يامليكى » رغبة منه فى استمالة قلبه. وهو يلح فى تبادل الصداقة والهدايا ، ويسمى هذا التبادل « امنية » له . لأن صداقة مصر كانت فى ذلك الوقت أعز امنية يسعى إليها الملوك .

ويغلب على الظن أن صاحب هذا الكتاب هو ملك بابل لأن فى الكتب الآتية كتبا منه تتفق مع هذا الكتاب فى معناه .

(٥)

بهذا الكتاب الذى نعرض له الآن ندخل فى صميم المكاتبات السياسية ، ونرى كيف كان كل من ملك

قطعة من سقف غرفة فى قصر الملك امينوفيس الثالث والملكة تى بى فى طيبة

بابل وملك اشور يتنافسان فى اكتساب عطف مصر والتحالف معها .

كتب بورنا بورياش ملك بابل الذى تقدم ذكره الى الملك امينوفيس الرابع فقال بعد الديباجة :

« حينما كان والدى كوريجالزو حيا أرسل اليه ملك كنعان رسولا قال له : « هيا فلندخل مدينة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا » . فبعث إليه أبى يقول : «لا تفكر فى الاتفاق معى. فان كنت تريد معاداة ملك مصر فابحث لك عن حليف غيرى . اما انا فانى لا أسير فى هذا ولا ادمر بلاد ملك مصر لأنه حليفى ». وهكذا رفض والدى ان يصغى الى ملك كنعان حبا فيك .

« والآن فان ملك اشور تابع لى . ولست فى حاجة لأن اقول لماذا هو يطلب صداقتك . فان كنت تحبنى فلا تعقد معه معاهدة واطرده بعيدا جدا » .

وإذن كان ملك اشور وملك بابل يتسابقان الى التحالف مع ملك مصر لأن كلا منهما كان يرى فيه امانا لنفسه وعضدا لبلاده . ولم يكن ذلك فى عهد الملك بورنابورياش فقط ، بل كان فى عهد أبيه من قبله أيضا ، وكان ابوه هذا يقول لمن يدعوه الى معاداة ملك مصر : « ابحث لك عن حليف غيرى ».

ولعل القارىء يرى من فحوى هذا الكتاب مايؤيد الظن الذى ذهبنا إليه اذ رجحنا ان يكون الكتاب السابق الذى لم يعرف صاحبه صادرا من ملك بابل .

وبعد هذا لا بد من سؤال وهو : ماذا فعل ملك مصر فى هاتين اليدين اللتين مدتا إليه من ملك اشور وملك بابل ؟

إن من حسن الحظ أن فى استطاعتنا أن نجيب على هذا السؤال لأن ماعثر عليه من محفوظات وزارة الخارجية المصرية يسمح لنا بالجواب .

والجواب أن امينوفيس الرابع — أو أخناتون — حالف كلا من الملكين ، ولم يقبل أن يكون لواحد منهما على الآخر ، وقد رضى الملكان بذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من آيات الصانع المصري

تمثال نصفى للملكة نفرتيتى

وهذا التمثال موجود فى متحف القاهرة وهو غير التمثال الذى فتن به « هتلر » وكان يحتفظ به فوق مكتبه . والملكة نفرتيتى هى زوج أمينوفيس الرابع أو أخناتون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٦)

إلى هنا رأينا كيف كانت نكتب ديباجة الرسائل بين الملوك ، ثم رأينا نوعا من هذه الرسائل دل على أن ملوك البلاد المجاورة للامبراطورية المصرية كانوا يحرصون على أن ينالوا شرف الارتباط برباط المحالفة أو الصداقة مع ملك هذه الامبراطورية .

فالآن نخوض فى نوع آخر من الرسائل خاص بمصاهرة ملك مصر لأولئك الملوك ، وما كان لهذه المصاهرة من التأثير فى العلاقات السياسية .

كانت هذه المصاهرة تعتبر متممة لمعاهدات التحالف ، فكان ملك مصر يرى ان زواجه من بنت الملك المجاور له أو من اخته ــ وفى بعض الأوقات منهما معا ــ ضمان على ان هذا الملك لايخرج عليه . وكان هذا الملك يرى من ناحيته ان هذا الزواج نفسه ضمان له على أن يبقى متمتعا برعاية ملك مصر . ولهذين السببين نجد ذكر المصاهرة يتردد فى كثير من رسائل تل العمارنة .

وقد رأينا فيما تقدم أن الملك امينوفيس الثالث صاهر الملك دوشراتا ملك ميتانى بأن تزوج بنته واخته ، فنضيف هنا الى ذلك ان زواج هذه الأخت لم يكن سهلا على مايظهر لأن امينوفيس الثالث طلبها ست مرات حتى أعطيت له . ولسنا نعرف ايهما هى التى تزوجها قبل الأخرى .

وكما تزوج امينوفيس الثالث أخت ملك ميتانى وبنته ، تزوج اخت الملك « كالينابسن » ملك بابل فى عهده ، ثم طلب ان يتزوج بنته وكانت تسمى « زوهارتى » فتردد أبوها ودارت فى ذلك رسائل عدة .

وليست هذه الرسائل موجودة كلها ولكن ما هو موجود منها يدل على باقيها . فقد وجدت رسالة من امينوفيس الثالث الى « كاليناسن » يقول فيها :

« ... اطلعت على الأقوال التى بعثت بها إلى . انك تقول لى : كيف تطلب بنتى للزواج منك على حين أن اختى التى أعطاك إياها والدى لاتزال عندك ، وما من احد رآها بعد أن زوجت

اسرى نوبيون فى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

منك ، فليس معروفا هلّ هى الآن حية أم ماتت » .

وهناك رسالة من « كاليناسن » يرد بها على امينوفيس فيذكره بأنه كان قد ارسل رسولا يرى هل اخته لاتزال حية ام ماتت ، فأمر امينوفيس بادخاله قصره ، فأدخل الى حيث نساء القصر مجتمعات وقيل له « ماهى سيدتك بين هؤلاء » فلم يميز الرسول واحدة منهن ولم يعرف من هى سيدته .

وعلى هذه الرسالة اجاب امينوفيس الثالث فقال :

« إنك لم ترسل رسولا كفؤا عرف اختك من قبل وحادثها ليمكن أن يعرفها الآن ويتحدث معها . بل الرسل الذين جاءوا من عندك كانوا من طبقة وضيعة . ويكفى أن أضرب لك مثلا رسولك « زاجارا » الذي هو راعى ماشية قليلة . وليس بين رسلك واحد كان قد اقترب من أبيك » .

فرد كاليناسن فقال :

« إنها أية امرأة من بنات النبلاء هى التي رآها رسلى عندك . إذ من يقول لهم انها أختى » .

فرد امينوفيس فقال :

« هب ان اختك ماتت فلماذا اخفى موتها منك ؟ » .

هذا ما فى رسائل تل العمارنة عن زواج أمينوفيس الثالث . أما مافيها عن زواج ابنه أمينوفيس الرابع فهو أن أمينوفيس هذا طلب الأميرة « تادوخيبا » إحدى بنات الملك دوشراتا ، أى نفس الملك الذى كان أبوه قد تزوج من اخته ومن إحدى بناته ، فأجاب دوشراتا على عجل يقول :

« تطلب ابنتى ؟ إننى أعطيك اياها » .

ولم يكن أمينوفيس الرابع قد تولى الملك حينما طلب هذا الطلب ، بل كان لايزال أميرا وكان أبوه لا يزال حيا . والذى حمل هذا الطلب من مصر الى مملكة ميتانى هو سفير مصرى يسمى « مانى » وحمل معه هدايا وكتابا من أمينوفيس الثالث يقول فيه :

« إن ما أبعث به اليك الآن من الهدايا ليس شيئا ... فان أنت أعطيت الفتاة التى أطلبها فسأبعث إليك بهدايا أكثر » .

وبعد أن قابل دوشراتا هذا السفير وقبل الهدايا التى حملها اليه ، كتب الى أمينوفيس الرابع يقول :

« إن صداقة متينة تربطنى بوالدك ، فالآن ستكون محبتى لك ، أنت ولده ، أمتن » .

وفى إحدى الرسائل ــ أو بعبارة اخرى فى أحد

قطعة من ارض القصر الذى بناه لنفسه الملك اخناتون (امينوفيس الرابع) فى مدينة اخيتاتون (تل العمارنة)

قوالب الطوب المحفوظة الآن فى متحف برلين ــ بيان طويل بمهر الأميرة « تادوخيبا » هذه التى تزوجها أمينوفيس الرابع .

ويظهر أن دوشراتا كان يطمع فى هدايا جمة من وراء هذا الزواج ، وأنه لم يكتف بما جاءه منها ، ولهذا جعل يشكو فى إحدى رسائله من ان الهدايا التى وعد بها لم تصل إليه .

(٧)

وكانت الأميرة التى يتزوجها ملك مصر تخرج من بلادها فى جمع كبير ، بل فى جموع كبيرة ، من النساء والخدم . وكان هؤلاء النساء والخدم يرافقونها الى مصر ويقيمون معها حاشية لها مدة من الزمن . فقد وجد منقوشا على جعران من عهد أمينوفيس الثالث أن ٣١٧ امراة رافقن « كيلاجيبا اميرة ميتانى » التى تزوجها أمينوفيس الثالث .

وقد مر أن أمينوفيس الثالث تزوج اخت الملك دوشراتا وبنته ، فالأميرة كيلاجيبا هذه هى إحدى هاتين الزوجتين .

وكان من العادات المألوفة فى ذلك الوقت أن تصنع جعارين باسم عروس الملك كلما تزوج . وكان نساء الأغنياء يتخذن من هذه الجعارين حليا لهن . ولهذا وجدت جعارين باسم الملكة تى يى حينما تزوجها أمينوفيس الثالث . ووجدت جعارين باسم كيلاجيبا التى تقدم ذكرها . ووجدت جعارين باسم غيرهما .

وليتصور القارىء بعد ذلك ٣١٧ امرأة قادمات مع كل عروس من بنات الملوك المجاورين لمصر تزف الى فرعون . وإذا كان عدد القادمات من النساء ٣١٧ فكم يكون عدد القادمين من الرجال والغلمان لخدمتها وخدمتهن جميعا ! ؟ . وإذن ليتصور القارىء كيف يكون القصر أو تكون القصور التى يجب أن يقيم فيها هؤلاء الجموع مع أميرتهم !

وليس ريب فى أن أكثر هؤلاء النساء والرجال كانوا يعودون الى بلادهم بعد أن يحضروا حفلة الزفاف وبعد أن يقيموا بالقرب من أميرتهم وقتا ما ، ولكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

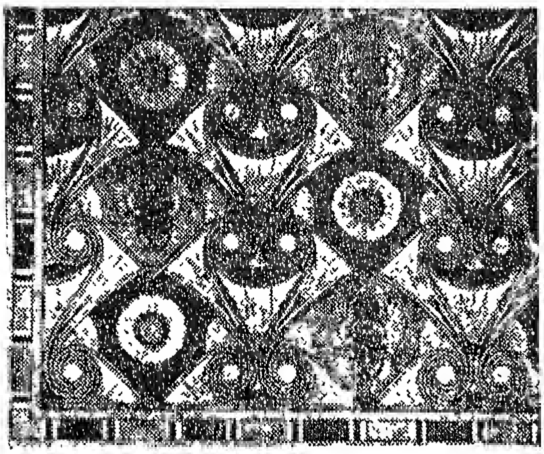

سقف قبر لرجل من الكبراء يسمى راميس بالقرب من طيبة (الاسرة الثامنة عشرة)

ليس ريب أيضا فى أن بعضا منهم كانوا يستوطنون مصر معها .

* * *

رأينا فراعنة يتزوجون بنات الملوك المجاورين لهم واخواتهم ، فهل كان هؤلاء الملوك يتزوجون من بنات الفراعنة وقريباتهم ليتم التبادل بين الفريقين ، ام لم يكن هذا التبادل موجودا ؟ .

هذا السؤال تجيب عليه رسالة كتبها ملك بابل الى امينوفيس الثالث وفيها يقول :

« حينما طلبت يد ابنتك ارسلت إلى تقول : « لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر الى أجنبى » (١) ،فلما بلغتنى هذه الكلمات أرسلت إليك اقول : « اذا أنت بعثت بها الى وأنت آسف فخير عندى الا تبعث بها » . إنك لاتنظر الى بعين العطف الأخوى ، وأنت تعلم مع ذلك انك حينما كاشفتنى برغبتك فى أن تعقد بينى وبينك رباط زواج ، اجبتك الى ماتريد ، وأظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكنها أخ لأخيه . والآن يا أخى ، وقد كاشفتك برغبتى فى رباط زواج بينى وبينك ، لماذا تأبى بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطيها لى ؟ لو اننى كنت قد رفضت إجابتك الى رغبتك لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما . ولكن بناتى كن رهن أمرك ، وانا لم ارفض لك طلبا» .

وقد علق الأستاذ مورى على هذه الرسالة فقال : إن الفراعنة كانوا يأبون بناتهم وأخواتهم على حلفائهم ملوك آسيا ، لأنهم كانوا يرون أن بنات «الدم المقدس» ارفع من أن يهبطن إلى مضاجع هؤلاء الملوك .

* * *

ومما يظهر ظهورا جليا فى رسائل تل العمارنة أن الملوك المجاورين للامبراطورية المصرية كانوا يلحون على فرعون فى طلب هدايا من الذهب فيقولون مثلا : « ان الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » . من عندك ... لقد كان أبوك يرسل إلى أبى كثيرا من الذهب ... فيجب أن ترسل لى مثل ماكان أبوك يرسل إلى أبى » .

وكان من الأقوال الشائعة فى الممالك الأسيوية إذ ذاك « أن الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .

ومن الكتب التى كتبها الملك بورنابورياش إلى امينوفيس الرابع كتاب يقول فيه :

« جاء الرسول الذى بعثت به إلى ومعه

سيدات مصريات فى حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفتاة تقدم لاحدى السيدات اناء صغيرا فيه شراب، واحدى السيدات تلتفت الى جارتها وتقدم لها زهرا ذا رائحة زكية . (هذه اللوحة موجودة فى المتحف البريطانى بلندن)

(١) النص الفرنسى الذى لدينا لهذه الفقرة من هذا الكتاب هو :

(Jamais la fille du roi d'Egypte n'a été donné à personne.)

وتعريبها الحرفى هو :

« لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر الى أحد » .

ولكننا وجدنا كلمتى « الى أحد » هنا لاتدلان على المقصود ، اذ بنات ملوك مصر كن يتزوجن فى مصر ، فالقول بأنهن لم يعطين قط الى أحد هو قول لايمكن أن يكون مرادا للملك امينوفيس الثالث . وانما المراد أنهن لم يعطين لأحد من الاجانب . وسياق الرسالة كلها يجعل هذا المراد متعينا . وأغلب الظن ان هنا خطأ فى الترجمة من اللغة البابلية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عشرون وزنة من ذهب غير نقى ، فلما وضعت فى البوتقة لم يخرج منها سوى خمس وزنات من ذهب نقى » .

ويظهر الملك بورنابورياش الـمه من ذلك ، ويطلب إرسال ذهب آخر . وفى كتاب آخر يقول الملك بورنابورياش :

« إن سبائك الذهب التى لم يفحصها اخى قبل إرسالها الى ، بعثت بها لتذاب فى البوتقة فردوها إلى ولم يقبلوها » .

وفى كثير من كتب الملك دوشراتا ، ملك ميتانى ، يتردد أيضا الالحاح فى طلب الذهب من ملك مصر .

* * *

إلى هنا فرغنا من الرسائل الخاصة بالملوك المجاورين للأمبراطورية المصرية ، فنأخذ الآن فى درس الرسائل الخاصة بحكام فلسطين وسوريا .

كانت فلسطين وسوريا فى الوقت الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة جزءا من الامبراطورية المصرية . ولم تكونا ولاية واحدة أو ولايتين ، بل كانتا ولايات عدة يحكم كل ولاية منها حاكم مولى من قبل فرعون فهو يحكم باسمه ويدفع له الجزية . وكان هذا الحاكم يسمى « خازانو » . ويذهب بعض العلماء الذين كتبوا فى هذا الموضوع إلى أن حملة هذا الاسم لم يكونوا مصريين بل كان الفراعنة يختارونهم من الأسر القديمة ذات النفوذ فى البلاد التى هم حكام عليها ، وكثيرا ماكان الفراعنة يفتحون المدن فيقدم لهم حكامها بالطاعة والولاء فيقرونهم فى حكوماتهم .

ولكن الفراعنة كانوا يطلبون من هؤلاء الحكام أن يرسلوا أبناءهم إلى طيبة ليتعلموا فيها ثم ليكون وجودهم فى الحاشية الفرعونية ضمانا — الى حد ما — على ولاء آبائهم . فاذا توفى هؤلاء الآباء خلفهم أبناؤهم الذين تربوا فى الحاشية الفرعونية . وعلى هؤلاء أن يرسلوا إلى مصر أبناءهم ليتربوا مثل تربيتهم .

وكان يوجد بجانب «الخازانو» مندوبون عن فرعون يراقبون سير الحكومات ويبلغون أوامر فرعون إليها . وهؤلاء المندوبون كانوا مصريين وكان اختصاص الواحد منهم يشمل فى بعض الأوقات عدة مدن وعدة حكومات . وكان فرعون يشير إليهم فى رسائله فيقول إنهم « عيون الملك وآذانه فى البلاد الأجنبية » . وهذا تعبير لايزال مستعملا الى اليوم (١) .

وكان هؤلاء المندوبون مرهوبى الجانب حتى كان أحد الحكام « الخازانو » يكتب الى فرعون فيقول :

« ليسأل مولاى الملك جميع مندوبيه يعرف الى أى حد أنا خادم له أمين » .

وكان غيره يكتب فيقول :

« ليسأل مولاى مندوبه يعرف هل ما أقوله صدق أم كذب » .

ولم تكن المدن كلها محكومة بهذا النوع من الحكم ، بل كانت توجد مدن لها حكم من نوع آخر ، يشبه الحكم الجمهورى (٢) ، ومن هذه المدن مدينة «أراد» ومدينة «تونيبو» ، ولهذا سيأتى أن أعيان كل واحدة من هاتين المدينتين كانوا يخاطبون فرعون ويعرضون عليه فى رسائلهم مايعرضونه من شئون مدينتهم .

ولما كان الحكم الجمهورى لايتحقق إلا بأن يكون هناك نوع من الاستقلال ، كانت كل واحدة من هاتين المدينتين حاصلة فى عهد أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع — أى فى العهد الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة — على مايسميه الانجليز الآن (Self government) أو الحكم الذاتى .

ولهذا قلنا فى ما تقدم إن المصريين عرفوا نظام الحكم الجمهورى الذى يظن كثير من الناس أنه لم

(١) ذكر فى حجر محفوظ فى متحف اللوفر يسمى « حجر انتيف » اسم ضابط بالقصر الملكى كان مناديا فوصف بأنه « لسان الملك » .

وفى احجار اخرى وصف اشخاص انفسهم بأنهم «عينا الملك» او « عينا الملك فى الارض كلها » او « عينا الملك اللتان تنفذان الى الاحشاء » .

ويقول المؤرخ اليونانى كزينفون (Xénéfon) : أن ملوك الفرس كانوا يوفدون ضباطا يجولون فى الولايات الواقعة تحت حكمهم ويراقبون اعمال الولاة فيها ، وان هؤلاء الضباط كانوا يسمون « عينا الملك وأذناه » .

وواضح أن المصريين هم أول من استعمل هذا النوع من التعبير .

(٢) كتاب (Au temps des Pharaons) لموري ص ٦١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعرف قبلَ المدنية اليونانية . نعم إنهم طبقوه فى بلاد أجنبية ولم يطبقوه فى مصر ، ولكنهم عرفوه على كلِّ حال . وهم قد عرفوا أيضا نظام الحكم الذاتى الذى يظن كثيرون أنه من اختراع العصور الحديثة .

ولست أنا الذى أقول هذا فأؤدى به شهادة لوطنى ، بلْ يقوله قبلى مورى ، فى كتابه الذى أشير اليه فى هامش هذه الصفحة .

***

وأولُ مايبرز فى رسائل الحكام (أى آلخازانو) هو إظهار العبودية فى الفاظ ومعان ليست مألوفة لأبناء العصور الحديثة . فواحد منهم يكتب :

« انا خازانو مدينة ... خادمك ، وتراب قدميك ، والأرض التى تدوسها وخشب المقعد الذى تجلس عليه ، وكرسى قدميك (١) ، وحافر جوادك . إننى اتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدمى الملك ، مولاى ، وشمس السماء » .

وحاكم آخر يكتب :

« انا خادم الملك ، وكلب بيته . إننى أحفظ البلد هنا لمولاى الملك » .

وحاكم ثالث يسمى نفسه «خادم جواد فرعون» .

فى مثل هذه الألفاظ كان كثير من الحكام يكتبون . فملك مصر ليس سيدا فقط بل هو إله وشمس ، والحاكم لايتقدم إليه بأقل من أن يكون تراب قدميه وحافر جياده والمتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدميه .

ويحسن أن نقول هنا إن فرعون كان ملكا وسليلْ آلهة فى آن واحد ، وإن الشمس كانت أحد الآلهة المصرية . فالمعبود رع هو الشمس ، والمعبود أمون هو الشمس ، والمعبود اتون هو قرص الشمس . والفراعنة كانوا أبناء الدم الشمسى ، فليس مستغربا أن يخاطب الحاكم فرعون فيقول إنه إلهه وشمسه .

(١) المراد بكرسى القدمين هنا الكرسى الصغير الذى يوضع أمام الكرسى العادى ليضع الجالس قدميه عليه . ويرى من ذلك أن هذا النوع من الكراسى كان مستعملا فى مصر فى ذلك الوقت .

ويحسن أن نقول أيضا إن «بروتوكول» المقابلات لفرعون كان يجعل الناس طبقات . فمنهم من إذا اذن لهم بالدخول الى مجلسه كانت تحيتهم له أن يخروا الى الأرض أمامه . ومنهم من كانوا ينحنون انحناء الركوع . ومنهم من كانوا يكتفون بأن يحنوا رءوسهم . وكان أغلب حكام سوريا يندمجون فى الطبقتين الأولى والثانية .

***

ومن رسائل تل العمارنة رسالة كتبها حاكم صيدا فقال فيها :

« أخبر مولاى الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدى ، وهى مدينة صيدا ، هادئة . وحينما وصل الى الأمر الذى أرسله مولاى الملك امتلأ قلبى فرحا . وقد رفعت راسى وفاض النور على وجهى وعينى حينما قدم أمر مولاى الملك . إن خادمك يبعث اليك مائة ثور ، ويبعث أيضا رقيقات . وهذا إخبار بذلك للملك مولاى وشمس السماء » .

فهذه الرسالة تدل على أن الجزية التى كان حكام سوريا يرسلونها إلى فرعون كانت تختلف باختلاف البلدان . فهى لبعض منها مصنوعات من المعادن الكريمة كما يرى فى كثير من النقوش التى على الآثار المصرية ، ولبعض آخر ثيران ورقيقات .

وكتب حاكم آخر فقال :

« أرسل إلى مولاى الملك ، وشمس السماء ، الرسول «هامايا» فهأنذا أقول : لقد أصغيت لأمر الملك بأعظم اهتمام ... وقد سرت أنا وجنودى وعرباتى وإخوانى الى مقابلة رماته فى المكان الذى عينه الملك » .

فيؤخذ من هذا انه كان على الحاكم واجب نحو كل رسول لفرعون يجتاز أرضه ، وهذا الواجب أن يرافقه فى أرضه بجنوده لأجل مساعدته ، إذا دعا الأمر إلى مساعدة .

أما إذا كان فرعون نفسه هو الذى يجتاز أرضا فى سوريا فان مايفعله حاكم هذه الأرض يظهر من الرسالة الآتية :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«حينما علمت أن الملك عائد بجنوده العديدين الى بلاده أرسلت الى جيشه العظيم كثيرا من الماشية وكما من الزيت » .

فاذا كان الحاكم فقيرا أو كانت بلاده فقيرة فانه يقدم مايقدر عليه ثم يعتذر فيقول :

« ليبعث مولاى الملك من يأخذ الزيت . فليس عندى خيول ولا عربات أسير بها الى مقابلة الملك ، وقد ارسلت ابنى الى بلاد مولاى الملك » .

ويلاحظ فى هذه الرسالة ، كما يلاحظ فى الرسائل الأخرى ، وكما يلاحظ فى رسائل ملوك بابل وأشور والازيا وميتانى التى مرت،أن أصحابها قلما يستعملون ضمير الغائب حينما يشيرون الى فرعون ، بل هم يكررون فى كل مناسبة كلمة «الملك» أو كلمتى «مولاى الملك » أو كلمة « اخى » .

* * *

وكانت الخصومات بين حكام سوريا قائمة قاعدة فكان بعضهم يعتدى على أراضي البعض الآخر ورجاله، وحينئذ كان كل من المعتدى والمعتدى عليه يسارع فيشكو الى فرعون ويطلب منه نجدة .

كتب احدهم فقال :

« ليعلم مولاى الملك أن النهابين أثاروا هذه المدن ضدى ... إننى الآن اشبه طائرا فى فخ او فى قفص ... ليرسل لى مولاى رماة مصريين » .

ولم تكن النجدات التى يطلبها هؤلاء الحكام كثيرة ، فحاكم « مجدو » (١) يطلب راميين اثنين ، وحاكم «صور» (٢) يطلب عشرين ، وحاكم « ببلوس » يطلب أربعة ومعهم عشرون عربة . ولا تزيد اعظم نجدة طلبها واحد منهم على مائتين .

ويقول مورى هنا إن هذه الطلبات تدل على أن ملوك مصر لم تكن لهم فى سوريا حاميات مصرية . ويخالفه فى ذلك برستيد فيذكر أنهم كانت لهم حاميات . وربما كان الصواب ان الحاميات كانت موجودة ولكنها لم تكن فى كل مدينة ولا عند كل حاكم ، بل كانت فى أماكن قليلة متباعدة ، فلم يكن من السهل أن يلجأ الحكام اليها كلما اختصموا ، وهم فى كل يوم يختصمون ، وكان من الضرورى مع ذلك ان يلجأوا الى فرعون لأن الحاميات لم يكن لها أن تنصر واحدا منهم على آخر بغير أمر منه . وفى بعض رسائل تل العمارنة ما يؤيد رأينا هذا .

وعلى كل حال فان الشواهد تدل على أن قلة الحاميات المصرية فى سوريا كانت نقطة من نقط الضعف فى الحكم المصرى ، وان هذه القلة كانت السبب فى احتياج الفراعنة الى سوق الجيوش من وقت الى وقت لاطفاء ثورة أو لرد هجوم على الحدود أو لغير ذلك من الأعمال الحربية .

* * *

والآن ننتقل الى ماساة تدل عليها رسائل تل العمارنة ، وهى انحلال الأطراف الآسيوية من الأمبراطورية المصرية فيعهد أخناتون بسبب انصرافه الى ثورته الدينية ، وانقسام البلاد من جراء هذه الثورة .

حينما صعد امينوفيس الرابع الى العرش كانت مملكة فى آسيا الصغرى تسمى مملكة خيتاس ، أو مملكة الحيثيين ، قد امتد سلطانها بجانب الممالك المحالفة لمصر . ولكن ملك هذه المملكة ــ ويسمى « سبلل » ــ كان يسعى الى اكتساب صداقة مصر فأرسل إلى امينوفيس الرابع حين توليه العرش رسالة يهنئه بها . ثم لما انتقل امينوفيس الى عاصمته الجديدة أخيتاتون وسمى نفسه اخناتون ، ارسل اليه سبلل رسالة اخرى يسأله فيها لماذا قطع مراسلته .

فهذا السؤال من الملك سبلل يحملنا على الظن بأن اشتغال اخناتون بثورته الدينية لم يكن يدع له وقتا للاهتمام بعلاقاته مع الملوك .

وعلى اثر هذه الثورة أو بعدها بقليل شرعت قبائل من الحيثيين تغير على الحدود السورية ، وشرع بعض حكام سوريا يتآمرون مع الحيثيين . وكان من هؤلاء الحكام حاكم لمدينة عمورية يسمى

(١) (Mageddo) (٢) (Tyr)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« عزيرو » ، فأغار باتفاقه مع الحيثيين على الأراضى المجاورة له وقتل ثلاثة من الحكام . ثم لما علم ان خبره وصل الى اخناتون أراد أن يخدعه فكتب اليه رسالة يتبرأ فيها من تهمة الخيانة ويؤكد انه لايزال وفيا لفرعون ويعتذر بأنه لم يفعل غير ان دافع عن نفسه ويقول :

إن أعيان مدينة « سوموری » (١) هم الذين لم يتركونى فى سلام . فأنا لم اقترف وزرا فى حق مولاى » .

وفى رسائل تل العمارنة جواب على هذه الرسالة ليس من اخناتون بل من شخص آخر (لم يوجد اسمه) يبتدىء فى مخاطبة عزيرو بقوله :

« باسم الملك مولاك ، حاكم مدينة عمورية » .

ومن هذه الكلمات يرى أن أخناتون لم يجب بنفسه بل كلف شخصا من المقربين اليه أن يجيب باسمه ، ويرى أيضا ان هذا الجواب كتب من صورتين احداهما أرسلت الى عزيرو والثانية حفظت فى وزارة الخارجية الفرعونية وهى التى توجد الآن بين ايدينا .

وفى هذا الجواب يقول الكاتب :

« لاشك انك لست مع الملك مولاك . فان أردت ان تخضع للملك فستكون مكافأتك عند الملك عظيمة . أما اذا بقيت على ما أنت عليه فالعصيان فى قلبك وستموت أنت واهلك .

«اخضع للملك مولاى لتعيش ... إنى اقول لك : اترك قمة هذا الجبل (٢) وامضى الى مقابلة الملك مولاك ، أو ارسل ابنك الى الملك . أليس لك ابن يمكن ان يذهب اليه ؟ ... اعلم ان الملك قوى كالشمس فى السماء وأن جنوده وعرباته عديدة فى البلاد العالية والبلاد الواطئة (٣) ومن مشرق الشمس الى مغربها » .

وكان عزيرو ذا دهاء ومكر فلما تلقى هذا الجواب

(١) لم نجد لهذه المدينة (Soumoury) موقعا فى الخرائط القديمة التى بين ايدينا ولعلها سامراء .

(٢) يظهر من هذا أن عزيرو كان قد احتمى فى قمة جبل .

(٣) لعل المراد بالبلاد العالية الجبال وبالبلاد الواطئة السهول .

فنانتان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية فى حفلة بينما سيدة من سيدات الحفلة جالسة وفتاة تقدم لها شرابا

لم يرد عليه بالرفض بل كتب الى فرعون يقول إنه سيقدم اليه مع ابنه . ثم مضت أيام ولم يقدم ، فكتب يقول إنه قادم . ثم مضت أيام اخرى ولم يقدم ، فكتب يقول إنه تحرك للقدوم ، ولكنه أضاف الى ذلك أن الحيثيين يهاجمون مدينة « نونيبو » وتساءل من يدافع عنها فى غيابه . قال :

« إننى أنا وابنى خادمان وفيان للملك فسنسافر أنا وابنى فى الحال .. ليكن مولاى الملك على ثقة من اننى أسارع الى إطاعة اوامره ولكن الملك كلفنى ان ادافع عن اراضيه وها هو ملك الحيثيين قد صار فى ارض نوخاسى وفى مدينة تونيبو .. إننى خائف على بلاد مولاى »

وبينما كان عزيرو يكتب هذا كان اعيان مدينة تونيبو يكتبون الى فرعون رسالة بعد رسالة مستصرخين مستغيثين ، لأن عزيرو يداهمهم ويضيق الخناق عليهم باتفاقه مع الحيثيين . قال هؤلاء الأعيان فى إحدى رسائلهم :

« الى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعو لك بالسعادة الكاملة ونسقط على قدميك ... مولانا : إن خادمتك مدينة تونيبو تقول : من هو الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيبو من غير أن يجازيه « مناخبيريا » (٤) يمثل ما فعل فيها .

(٤) يرجح برستيد ان يكون اسم « مناخبيريا » هذا لقبا لتحوتمس الثالث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرابطة الاسلامية التى انعقدت عام ١٩٢٥ . وسيد أمير على مؤلف كتاب « روح الاسلام » ، ومؤسس الجمعية المحمدية القومية ، وقد نظم فرع حزب الرابطة فى لندن . ونواب سليم الله كان له دور محمود فى تأليف حزب الرابطة الاسلامية ، وقد استطاع مع جماعة من أنصاره اخراج الفكرة الى حيز الوجود .

والشيخ عبد القادر من ألمع الشخصيات الاسلامية فى البنجاب ، وقد عمل على توحيد كلمة المسلمين ، وكان يحرر صحيفة « المخزن » باللغة الأوردية ، وعين بعد ذلك وزيرا فى حكومة البنجاب ، ومثل الهند فى اجتماعات عصبة الأمم .

وغير هؤلاء كثيرون ممن قاموا بنصيب مشكور فى سبيل تأسيس باكستان ، حتى تحققت النبوءة وأصبح الحلم حقيقة عام ١٩٤٧ .

وعندما قامت هـذه الدولة الاسلامية الكبرى نهض القـائد الأعظم محمد على جناح ليقول فى محفل من المحافل : « ان شعب باكستان لا يريد شيئا ليس له حق فيه ، ولا يتوق الا الى توفير حسن النية ، وتعزيز أواصر الصداقة مع كل الأمم الحرة فى العالم . ونحن فى باكستان قد عقدنا العزم ، بعد أن حصلنا على حريتنا التى حرمنا منها طويلا ، على أن نبذل أقصى ما فى مستطاعنا لا لكى نقيم لنا دولة قوية سعيدة وحسب ، بل لكى نسهم بكل ما فينا من قوة فى اقرار السـلام العالمى واشاعة الرفاهية » .

وقد اتجهت باكستان ــ قبل أن تعتنق سياسة الأحلاف الغربية ــ اتجاها اسلاميا عربيا حمده لها العرب والمسلمون . ففى عام ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كان وزير خارجيتها السيد ظفر الله خان أكثر الخطباء فى هيئـة الأمم تحمسا لقضية العرب فى مشكلة

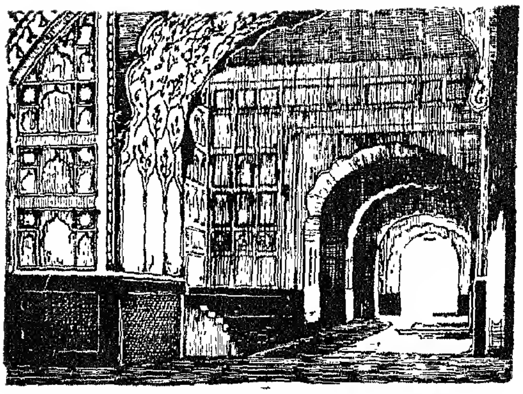

الفناء الداخلى لمسجد شاهى بمدينة لاهور

فلسطين . ولكنها لم تلبث أن تخلت عن سياستها التى رسمها لها مؤسسها محمد على جنـاح ، واندفعت مع تيار الأحلاف . وانها اليوم لتعود الى الروح التى نشأت عليها مستهدية بنور الاسلام ، وروابطها التاريخية المجيدة بالعالم العربى .

الاسلام فى الهند

تضم الهند ما يقرب من ٤٣ مليون مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٣٥٧ مليون نسمة . ويقول سير توماس آرنولد : « ان عددهم يربو على ٦٦ مليونا » . والمسـلمون اليوم فى الهنـد بعضهم ورث الاسلام عن أسلافه ، وبعضهم وفد من البلاد العربية المجاورة ، واستقر به المقام فى الهند . ومنهم من اعتنق الاسلام لأنه وجده الدين الحق ، والشريعة المثلى ... ولكن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم سكان الهنـد الأصليون الذين ورثوا الدين الاسلامى جيلا بعد جيل .

وقد انتشر الاسلام فى الهنـد ، لأن الظروف هيأت له هذا الانتشار ... فمالت اليه النفوس ، وهفت اليه القلوب ، فرارا مما كانت ترسف فيه من ظلم وطغيـان ، ورغبـة فى التمتع بما كفله الاسلام من حرية وعدل ومساواة .